د. محمد زينهم محمد عزب



قيام وتطور
الدولة الرستمية في المغرب

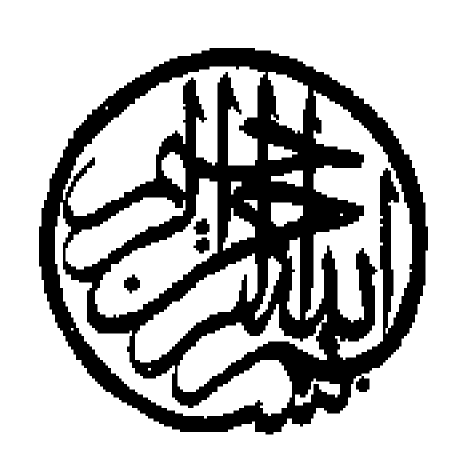


http://albordj.blogspot.com

الكتاب من مرفوعات

مدونة برج بن عزوز

قيام وتطور
الدولة الرستمية في المغرب



دار العالم العربي

٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ ـ ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٣م/ صَفَر ١٤٣٤ هـ

رقم الإيداع: ١٩١١٧ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨ـ٩٧٧ـ٤٩٥ـ١٢١ـ٣.

صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي

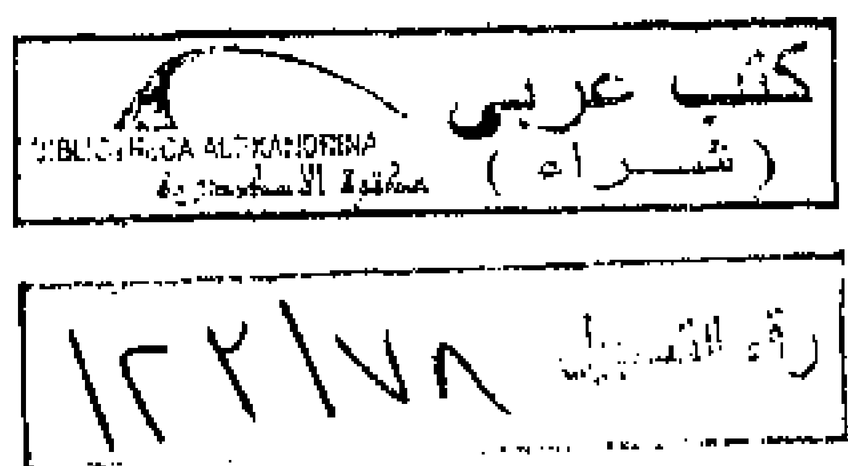
965.02
A991

قيام وتطور
الدولة الرستمية في المغرب

تأليف

د. محمد زينهم محمد عزب





بيانات الفهرسة المكتبية

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

عزب، محمد زينهم محمد.

قيام وتطور

الدولة الرستمية في المغرب/

تأليف محمد زينهم محمد عزب. .

ط ١ . . القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١٣.

١٨٠ ص؛ ٢٤ سم . .

(صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي)

تدمك: ٣-١٢١-٤٩٥-٩٧٧-٩٧٨.

١. المغرب - تاريخ - العصر الإسلامي

٦٤٧-١٩١٢.

ديوي ٩٥٣,٠٧١

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

تمهيد: الجغرافية والبشرية للمغرب الأوسط:

موطن الرستميين:

أسست دولة الرستميين فى منطقة المغرب الأوسط الذى يمثل جزءًا من كلمة عامة هى المغرب، وقد أطلق العرب كلمة المغرب على تلك المساحات الواسعة التى تلى مصر غربًا حتى المحيط الأطلسى[1]. ولم تكن بلاد المغرب معروفة بهذا الاسم عند الفاتحين المسلمين حينما زحفت جيوشهم على تلك البلاد[2]. بل أطلق العرب على بلاد المغرب اسم إفريقيّة الذى كان سائدًا إذ ذاك لدى البيزنطيين[3]. وبامتداد حركة الفتح الإسلامى إلى ساحل المحيط الأطلسى، ومنها إلى بلاد الأندلس أصبح لفظ

---

(١) شملت معنى لفظ المغرب عند بعض الجغرافيين من أمثال الاصطخري والمقدسى فشمل المغرب عندهما كل ما يلى مصر غربًا ابتداء من برقة حتى طنجة والسوس، ويُدخلان ضمنه بلاد الأندلس، بل إن مفهوم المغرب اتسع أكثر من هذا عند ابن خرداذبه مثلا: فيسمى كل المناطق الواقعة فى غرب سُرَّ من رأى التى تقع فى مسير شروق الشمس مشرقًا. انظر المزيدفى: الأصطخرى: المسالك والممالك ٣٣ تحقيق الدكتور: محمد جابر عبد العال الحينى ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومى ـ القاهرة ١٩٦١م المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٢١٦ ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٩٥م ـ ابن خرداذبه: المسالك والممالك ٤١ و٨٤ و١١٦ مكتبة المثنى ببغداد، ابن خلدون: العبر ـ دار الكتاب اللبنانى جـ٦ ٢٠١، ١٩٥٨م، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥ تحقيق ليفى بروفنسال ـ دار الثقافة ـ بيروت ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ٢٠ تحقيق محمد شمام ـ المكتبة العتيقة بتونس ١٣٧٨هـ: اليعقوبى: كتاب البلدان ٣٤٢ مكتبة المثنى ـ بغداد ١٨٩١م.

(٢) د. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ١ـ٢ مكتبة الآداب ـ القاهرة ١٩٤٧م.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ٢٣٢ تحقيق عبد المنعم عامر ـ لجنة البيان العربى ـ القاهرة ١٩٦١م «إفريقيّة» بكسر الهمزة وهو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية «ياقوت الحموى: معجم البلدان ١/ ٣٠٠ طبعة محمد أمين الخانجي، القاهرة ١٩٠٦م».

إفريقية غير كافٍ لتحديد هذا المجال العظيم الذى انطلق فيه المسلمون، ومن ثم بدأ لفظ إفريقية يتقلص شيئًا فشيئًا، بينما أخذ لفظ المغرب فى الظهور[1]، وأصبح مدلول إفريقية مقصورًا على الإقليم الذى تتوسطه القيروان[2] والذى يمتد من طرابلس[3] «إطرابلس» شرقًا حتى بِجَايةُ[4] أو مِلْيَانَةُ غربًا[5]، وصارت تُعرف إفريقية فيما بعد.

كما ميَّز الجغرافيون العرب الأقاليم البعيدة من بلاد المغرب فأطلقوا عليها اسم المغرب أو المغرب الأقصى[6] وفى الوقت نفسه ظهر مصطلح المغرب الأوسط، وذلك على نحو ما جاء عند البكرى[7] وأصبح مجرى وادى ملوية مثل خط التقسيم

---

(١) ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ١٩.

(٢) القَيْرَوَانُ: مدينة عظيمة بإفريقية.. انظر المزيد فى: معجم البلدان ٧/ ١٩٣ مطبعة الخانجى.

(٣) البغدادى: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ١/ ١٠٠ - ١٠١ تحقيق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٤م.
طَرَابُلُس: بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضًا مضمومة وسين مهملة - ياقوت الحموى: معجم البلدان ٦/ ٣٤ مطبعة الخانجى - القاهرة.

(٤) بِجَاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء، مدينة على ساحل البحرين إفريقية والمغرب: ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٦٢ مطبعة الخانجى القاهرة.

(٥) مِلْيَانَة بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الألف نون، مدينة فى آخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام، ياقوت الحموى: معجم البلدان ٨/ ١٥٥، مطبعة الخانجى، القاهرة.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١١-١٢ دار المعارف القاهرة ١٩٦٥، أبو عبيد البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧٦، مكتبة المثنى - بغداد.

(٧) هو عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى أبو عبيد، مؤرخ جغرافى، ثقة علاَّمة بالأدب له معرفة بالنبات نسبته إلى بكر بن وائل، كانت لسلفه إمارة فى غربى الأندلس، وقيل كان أميرًا وتغلب عليه المعتضد. وقال الصفدى: «كان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته، وكان معاقرًا للراح، مدمنًا يكاد لا يصحو» ولد فى شلطيش «Saltes غربى إشبيلية» وانتقل إلى قرطبة ثم صار إلى المرية فاصطفاه صاحبها محمد بن معن لصحبته ووسع راتبه، وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعته بالوزير. ورجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين، فتوفى بها عن عالية سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. له عدة مصنفات منها: «المسالك والممالك» و«معجم ما استعجم» و«أعلام النبوة» و«شرح أمالى القالى فى أماليه» و«فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لابن سلام» و«الإحصاء لطبقات الشعراء» و«أعيان النبات» وله «رسائل» بعث بها إلى بعض معاصريه، وإنشاؤه مسجع على طريقة كتّاب زمانه. انظر المزيدنى: الصلة ٢٨٢، طبقات الأطباء ٢/ ٢، بغية الوعاة ٢٨٥. آداب اللغة ٣/ ٨٤.

الذي يفصل بين المغربين الأوسط والأقصى[1]. وعلى هذا فالحد الشمالي الغربي الأوسط الذي صار دارًا للرستميين يبدأ من بجاية شرقًا إلى وادي ملوية وجبال تارة غربًا[2]، وهذه الواجهة الشمالية للمغرب الأوسط تطل كلها على البحر المتوسط، وتمتاز بساحلها الصخري الصلب الذي تتدافع عليه الأمواج التي تزيد من حدتها الرياح الغربية؛ بحيث يتعذر على السفن المعادية الاستقرار على الساحل، وفي الوقت نفسه توفرت في هذا الساحل ظاهرة الخلجان التي أقام عليها الرستميون موانيهم التي ربطت بلادهم ببلاد المغرب، والأندلس، وتمتد هذه الخلجان على هيئة أنصاف دوائر مثل خليج[3] وَهْرَان[4] وُمُستغانم[5] وتَنَس[6] وَشرْشَال.

وتمثل الصحراء الكبرى الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط، وقد ضمَّت هذه الصحراء كثيرًا من العوامل التي سهَّلت قيام علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين الرستميين وجيرانهم في جهات السودان الغربي؛ إذ حفلت هذه الصحراء بكثير من منابع المياه والواحات التي انتشرت في أنحائها فمكنت القوافل التجارية من القيام بمهامها الاقتصادية فجنى الرستميون من ورائها أرباحًا طائلة دعمت أركان دولتهم. وأشهر هذه الواحات والقواعد الصحراوية في صحراء المغرب الأوسط [7]قاعدة وَرْجَلان[8].

---

(1) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١٢.

(2) البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧٦.

(3) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي ١٠ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠م - القاهرة، محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٥١٧ القاهرة ١٩٦٣م، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٦ و٨١ و٨٢، أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ١٦١ و٢٤٥، الجزائر ١٣٥٠هـ.

(4) بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون، مدينة على البر الأعظم من المغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ٤٣٦ مطبعة الخانجي - القاهرة.

(5) مدينة بالقرب من مصب نهر شلف.

(6) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٩.

(7) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١٦ د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٨٤ ابن خلدون: العبر ٦/ ١٩٩.

(8) وَرْجَلان: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون؛ كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ٤١٤.

أما الحدود الشرقية للمغرب الأوسط فتتميز بأنها حدود مفتوحة طبيعيًا سهلت اتصال المغرب الأوسط بجهات إفريقية الجنوبية وإقليم طرابلس وجبل نفوسة حيث لا توجد هناك فواصل عرضية تعوق الانتقال بين المغرب الأوسط وبين الجهات[1]. وقد منح هذا الوضع الجغرافي الفريد الحركة الإباضية التي انطلقت منها الدولة الرستمية كثيرًا من فرص النجاح، فالمعروف أن هذه الجهات كانت مهدًا للدعوة الإباضية قبل قيام الدولة الرستمية. وما أن فشل دعاة الإباضية في إقامة دولة لهم هناك حتى انتقل كثير منهم إلى المغرب الأوسط، مستفيدين من هذا الوضع الجغرافي، وهناك نجحوا في إقامة الدولة الرستمية الإباضية، وكان من الطبيعي بعد قيام هذه الدولة وتأكيد سلطانها في المغرب الأوسط أن تنضم هذه الجهات إليها وتصبح جزءًا منها.

بجانب هذه الحدود الطبيعية التي تمتع بها المغرب الأوسط كانت هناك عناصر السطح المتنوعة التي بسط الرستميون نفوذهم عليها، فتمتد في أراضي المغرب الأوسط سلسلتا الجبال المعروفة باسم أطلس التل وأطلس الصحراء[2]. وتحاذي أطلس التل ساحل البحر فتقسم شمال المغرب الأوسط إلى ثلاث مناطق ـ تتباين بعضها عن بعض. وهذه المناطق هي: المنطقة الساحلية، وهي منطقة سهول ضيقة غنية كثيرة السكان. وتلي هذه المنطقة المنطقة التلّية، وهي الوجه الجبلي من جبال الأطلس التلي الذي يلي البحر، وهذه المنطقة أخصب جهات المغرب الأوسط وأغناها من حيث التربة والغابات، ومن هاتين المنطقتين خرج كثير من الحاصلات الزراعية وغيرها عن طريق الموانئ الرستمية إلى بلاد الأندلس[3]. أما المنطقة الثالثة فهي منطقة النجود أو الشطوط وتقع بين سلسلتي جبال الأطلس التلّي والصحراوي. وهي منطقة فقيرة التربة قليلة المياه، لا تسمح للإنسان بدوام الاستقرار؛ لذا فهي قليلة السكان ضعيفة العمران[4].

---

(١) د. إبراهيم رزقانه: المغرب العربي ـ معهد الدراسات الإسلامية ـ القاهرة.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١.

(٣) ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا ١٤٢ بيروت ١٩٧٠م، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ١٣٣ ـ تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد.

(٤) د. إحسان حقي: الجزائر العربية ١٣ منشورات المكتب التجاري ١٩٦١م، أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ١٦١.

وتمتد بعد ذلك سلاسل جبال الأطلس الصحراوى، وهى تنحدر شديدًا نحو الصحراء، وتتميز بأنها منابع لبعض المجارى المائية القصيرة التى تغذى عددًا من واحات الصحراء[1]. وقد ارتبط أهالى منطقة النجود أو الشطوط التى تقع بين أطلس التل وأطلس الصحراء ببدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلى، وهذا الإقليم ازدهرت فيه المراعى التى أمدت الدولة الرستمية بثروة رعوية لا بأس بها[2] كما ساهمت هذه المناطق الجبلية بدورها فى حماية الدولة الرستمية.

مصادر المياه فى المغرب الأوسط

لم يُحظ المغرب الأوسط بعدد كبير من الأنهار، فأنهاره قليلة صغيرة، وبعضها لا تكثر فيه المياه إلا فى فصل الشتاء عندما تهطل الأمطار[3]. وقد كان لهذه الأنهار أثرها فى ازدهار العمران فى المغرب الأوسط وفى الدولة الرستمية بصفة خاصة؛ حيث أسس عبد الرحمن بن رستم عاصمة دولته على نهر مينة[4]. وأشهر أنهار المغرب الأوسط:

١ ـ نهر الشلف: وينبع هذا النهر من جبل وانشريش، ويصبُّ ماؤه فى البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة مستغانم[5].

٢ ـ نهر سيرات: ويجرى هذا النهر بالقرب من قلعة هوارة، ويسقى هذا النهر فحص سيرات الذى يبلغ طوله أربعين ميلا[6].

---

(١) محمد أحمد حسونة: أثر العوامل الجغرافية فى الفتوح الإسلامية ٥٣ ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦١م.

(٢) محمد أحمد حسونة المرجع السابق ٥٣.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربى ١٤.

(٤) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٦.

(٥) ابن سعيد المغربى: كتاب الجغرافيا ١٤١، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٩.

(٦) البكرى: المصدر السابق ٦٩ ـ ٧٠.

٣ ـ نهر مينة: وهذا النهر يأتي من جهة القبلة لمدينة تاهرت[1] عاصمة الرستميين[2].

وإلى جانب هذه الأنهار هناك وديان صغيرة يأتيها الماء من العيون أو من قمم الجبال[3]. ومن هذه الأنهار الصغيرة والوديان ذلك النهر الذى يتجمع من عيون تسمى تاتشى وعليه يعتمد أهل تاهرت فى شربهم ورى بساتينهم، ونهر تامن وهوند تامن وهو نهر يأتى من الجبال فى جنوب تنس وعليه تعتمد مزارع تنس التى اشتهرت بزراعة الحبوب كالقمح[4]. وقد ساهمت هذه الأنهار والوديان والعيون فى قيام حياة زراعية هيأت الاستقرار لكثير من المواطنين الرستميين، بالإضافة إلى أنها شكلت مصدرًا مهمًّا من مصادر رخاء الدولة الرستمية وازدهارها اقتصاديًّا.

المناخ فى المغرب الأوسط

ونتيجة تنوع عناصر السطح فى المغرب الأوسط من سهول ساحلية إلى هضاب وجبال وصحارى، فقد تنوعت عناصر المناخ المتمثلة فى درجات الحرارة وكميات الأمطار، وكان لهذا التنوع أثره الكبير فى تعدد النشاط البشرى لسكان المغرب الأوسط.

فالمنطقة الساحلية ذات طقس معتدل لطيف فى الشتاء خفيف فى الصيف كثير الرطوبة، كما تشتد الحرارة فى السهول المرتفعة الداخلية[5]، وفى هاتين المنطقتين تغزر الأمطار فيشتغل السكان بالزراعة ويحيون حياة الاستقرار والتحضر[6].

أما الأنجاد أو الشطوط فجوُّها بارد لاذع فى الشتاء شديد الحرارة فى الصيف

---

(١) بفتح الهاء وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لإحداهما تاهرت القديمة، والأخرى تاهرت المحدثة بين تلمسان وقلعة بنى حماد.
انظر: البغدادى: مراصد الاطلاع ١/ ٢٥١.

(٢) البكرى: المصدر السابق ٦٦.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١٤.

(٤) ابن سعيد المغربى: كتاب الجغرافيا ١٤٢؛ مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار ١٣٣

(٥) أحمد توفيق المدنى: كتاب الجزائر ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٦) يحيى بوعزيز: الموجز فى تاريخ الجزائر ٢٠ المطبوعات الوطنية الجزائرية ١٩٦٥م؛ د. جمال الدين الدناصورى وآخرون: جغرافية العالم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ٢/ ١٣٨.

ويستمر ارتفاع الحرارة كلما تقدمنا نحو الصحراء، وبالتالى تقل كمية الأمطار حتى تندر أو تكاد تنعدم؛ لذا كان النشاط البشرى الذى يمارسه السكان فى هاتين المنطقتين هو حرفة الرعى التى تفرض عليهم أن يعيشوا حياة التنقل والترحال وراء العشب والمراعى[1].

السكان

جاء تكوين السكان فى الدولة الرستمية صورة صادقة للتكوين الذى كان سائدًا فى بلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى، وتتضح معالم هذا التكوين فى انقسام السكان فى الدولة إلى أربعة أقسام هى:

١ ـ الأفارقة: وكانوا يشكلون بوجه عام سكان المدن والمراكز القريبة من المدن، وهم مزيج من بقايا الأمم التى احتلت بلاد المغرب كالرومان والبيزنطيين وبقايا الشعب القرطاجنى القديم، وهؤلاء لا يرجع أصلهم إلى البربر، ولا تجمعهم أصول دموية واحدة، ولا جدٌّ أعلى ينحدرون منه، وإنما انصهروا فى الحياة الجديدة فى مدن المغرب؛ واستقروا فيها وعاشوا مختلطين بمن تحضر من البربر، وأصبحت تجمعهم هذه الحياة المشتركة من استقرار فى الأرض وارتباط بالمعيشة فهم تجمعهم حياة المدينة وما يتصل بها من أرباض ومزارع هى على الأغلب جزء منها[2]. وقد عاش أفارقة المغرب الأوسط فى المجتمع الرستمى حياة المواطن العادى من أبناء الدولة. بل إن بعض هؤلاء الأفارقة من المسيحيين كانت لهم منزلة خاصة لدى بعض أئمة الرستميين كأبى بكر بن أفلح[3].

٢ ـ العرب: وهم الجند الذين وفدوا إلى بلاد المغرب فى أثناء الفتح الإسلامى لهذه البلاد، والعرب الذين انتقلوا إلى هذه البلاد بعد تمام الفتح واتخذوا منها موطنًا

---

(١) د. جمال الدين الدناصورى وآخرون جغرافية العالم ٢/ ١٣٧، د. أحمد توفيق المدنى: الجزائر ١٧٣، د. إحسان حقى: الجزائر العربية ١٣.

(٢) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٥، د. حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب: قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ـ رسالة ماجستير كلية دار العلوم ـ القاهرة ١٩٦٧م ص١٠٠، د. شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ١٨٠، دار العلم للملايين ـ بيروت.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣٦، تحقيق: موتلنسكى ـ باريس ١٩٠٧م.

لهم فاستقروا فيها وأقاموا بها، ومنهم أيضًا هؤلاء الذين أرسلهم الخلفاء لبثّ تعاليم الإسلام ونشره بين سكان البلاد. يضاف إليهم أيضًا هؤلاء الذين لجئوا إلى بلاد المغرب لنشر آرائهم ومبادئهم كالخوارج؛ إذ وجدوا في هذه الأرض مرتعًا خصبًا لأفكارهم وآرائهم، كما أنهم في هذه الأراضي البعيدة عن دمشق وبغداد يكونون في أمن من ضربات الخلافة[1]. وقد حظي المغرب الأوسط بأعداد كبيرة من هؤلاء الخوارج فكان مسرحًا للدعوة الإباضية ومن ثم كان المغرب الأوسط في نظر عبد الرحمن من رستم أنسب الأماكن لتأسيس دولة إباضية به، وقد ظل هؤلاء العرب في مجتمع الدولة الرستمية على حالهم يمثلون طبقة معروفة لدى الجميع، فكان يطلق عليهم العرب[2].

٣ ـ العجم: وهم الفرس الذين جاءوا إلى بلاد المغرب ضمن جيوش المسلمين الفاتحين أو الذين قَدِموا مع الجيوش الخلافية لإخماد ثورات البربر[3]، وكان يطلق عليهم اسم العجم، وكان لهؤلاء العجم دور كبير في أحداث الدولة الرستمية في عهد الإمام أبي بكر بن أفلح وأخيه أبي اليقظان، كذلك في عهد الإمام أبي حاتم يوسف ابن محمد، وقد أطلق عليهم ابن الصغير الذي عاصر أحداث الدولة الرستمية وأرّخ اسم العجم[4].

٤ ـ البربر[5]: وهم السكان الأصليون لبلاد المغرب، وهم يمثلون الغالبية العظمى

---

(١) د. حسن علي حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ١٠-١١.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٧ - ٣٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٢ ق ١ ورقة ١٩ ـ ٢٠.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٧ - ٣٩ و٥٢.

(٥) البربر اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم كانوا ينظرون للبربر على أنهم أعاجم على حضارتهم ولذلك سموهم «البرابرة» وجاء العرب فاستخدموا هذه التسمية بعد أن عربوها إلى «بربر أو برابر»، وما أن جاء القرن الرابع الهجري حتى دُوِّنت أنساب البربر بالعربية، وأصبحت هذه الأنساب علمًا مثل أنساب العرب، بل إن نسَّابة البربر اتخذوا من شجرة الأنساب العربية ـ التي تقسم العرب إلى شعبين كبيرين ينحدران من عدنان وقحطان ـ نموذجًا يُحتذى في تقسيم قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما: البتر والبرانس إلى جد واحد.

د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٤-٢٥ د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ١٣٣ الإسكندرية ١٩٦٦م.

Julien, HisT. del'Afrique du Nored Delaconquete Araie A 1830 - P. 10.

فى التكوين السكانى للمغرب الأوسط وقد رحب هؤلاء البربر بالمبادئ التى حملها إليهم عبد الرحمن بن رستم واعتنقوها. وكانوا العنصر الأساسى الذى اعتمد عليه عبد الرحمن بن رستم فأقام دولته بينهم.

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين: البربر الحضر وهؤلاء يسكنون السهول الخصبة والمدن والهضاب المزروعة، وكانوا يتصلون اتصالًا قويًا بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ويعتمدون فى معيشتهم على الزراعة والصناعة. والبربر الرُّحَّل وهؤلاء يعيشون على الرعى ويميلون إلى الإغارة على السهول وما يجاورهم من جهات العمران[1].

وقد تحدث ابن خلدون عن هاتين المجموعتين فقال: «هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملئوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر، يظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة: لا يجوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ومكاسبهم الشاه والبقر والخيل والغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاشى المعتزين أهل الانتجاع والأظعان فى نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم، وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل ورءوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعهدونها بالحلق، ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعيها وهى التى اختُصوا من أجلها بهذا الاسم «البربر»[2].

وابن خلدون فى هذا النص يفرق بين أسلوب البربر الحضر وهؤلاء أطلق عليهم المؤرخون اسم البرانس، أما البربر الرحل فأطلقوا عليهم اسم البتر[3]. وقد حاول النسَّابة إرجاع هذه التسمية إلى الأصول الأولى التى ينتمى إليها البربر، فقالوا: إن

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ١٣٥، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٦.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦/ ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) السلاوى: الاستقصا ١/ ٣١، ابن خلدون: المصدر السابق ٦/ ١٧٦.

البربر «يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس»[1].

ورغم هذا الانقسام إلى بتر وبرانس فقد كان لكل من الفريقين دوره في الدولة الرستمية وفق ما هيأته طبيعة حياته التي يمارسها للقيام به.

وأهم قبائل البتر التي ساهمت في قيام الدولة ودعّمت أركانها:

١ ـ **نفوسة** من بني ما دغيس الأبتر أبو البتر[2].

٢ ـ **لواته**: وهي بطن من بطون لواء الأكبر من مادغيس الأبتر، ومن لواته كانت مزاته وسدراته[3].

٣- **لماية**: وهي من ولد تمصيت بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر[4].

أما البرانس فكانت قبائل هوارة الوحيدة من بين قبائل هذا الفرع من البربر التي شاركت في تأسيس الدولة الرستمية ودعمت أركانها.

---

(١) ابن خلدون العبر ٦/ ١٧٦.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦/ ١٧٨ - ١٧٩.
نَفُوسَة بالفتح ثم الضم والسكون، وسين مهملة.
البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١٣٨٢.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ٦/ ١٧٩-١٨٠ لَواتَة بالفتح والتاء مثناة: قبيلة من البربر، البغدادى: المصدر السابق ٣/ ١٢١٠
مُزَاتَه: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ٩٠ ـ مكتبة المثنى ـ بغداد، سدراته: موطنها بالمغرب الأدنى في شمال الأوراس وجنوبه.
محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٧٩.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٩-٣٠، ابن خلدون: العبر ٦/ ١٨٠ - ١٨١.
لَمَايَة: محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٢٥٧

الفصل الأول
الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبيل قيام الدولة الرستمية

١ ـ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

تركزت المحاولات الأولى للفتح العربي في بلاد المغرب ـ منذ خلافة عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنه حتى قيام الدولة الأموية ـ في منطقتي برقة وإفريقية فقط.

---

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لُقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل الشجاع الحازم صاحب الفتوحات؛ يُضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، وله السفارة فيهم، ينافر عنهم وينذر من أرادوا إنذاره وهو أحد العمرين اللذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين وشهد الوقائع. قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر رضي اللّه عنه. وقال عكرمة: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر رضي الله عنه. وكانت له تجارة بين الشام والحجاز. وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر رضي اللّه سنة ١١ هـ بعهد منه. وفي أيامه تم فتح الشام والعراق وافتُتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة حتى قيل انتصب في مدته اثنا عشر ألف منبر في الإسلام، وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري، وكانوا يؤرخون بالوقائع؛ واتخذ بيت مال للمسلمين، وأمر ببناء البصرة والكوفة فبُنيتا، وأول من دوَّن الدواوين في الإسلام جعلها على الطريقة الفارسية لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات، وكان يطوف في الأسواق منفردًا ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم وكتب إلى عماله إذا كتبتم لي فابدءوا بأنفسكم. وروى الزهري: كان عمر رضي الله عنه إذا نزل به الأمر المفصل دعا الشبان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم. وله كلمات وخطب ورسائل غاية في البلاغة. وكان لا يكاد يعرض له الأمر إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان أول ما فعله لما ولي، أن ردَّ سبايا أهل الردة إلى عشائرهن وقال: كرهت أن يصير السبي سبة على العرب. وكانت الدراهم في أيامه على نقش الكسروية وزاد في بعضها {الحمد للّه} وفي بعضها {لا إله إلا الله وحده} وفي بعضها {محمد رسول اللّه}. له في كتب الحديث ٥٣٧ حديثًا. وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظًا يا عمر»، وفي الحديث «اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب لغضبه». لقّبه صلى الله عليه وسلم بالفاروق وكناه بأبي حفص، وكان يقضي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالوا في صفته: كان أبيض عاجي اللون، طوالا مشرفًا على الناس، كث اللحية، انزع «منحسر الشعر من جانبي الجبهة» يصبغ لحيته بالحناء والكتم. قتله أبو لؤلؤه فيروز الفارسي

ولم تكن هذه المحاولات سوى إغارات سريعة لم يحظ المغرب الأوسط بشيء منها، لذا لم تحقق هذه الإغارات للمسلمين استقرارًا يتمكنون عن طريقه من تعريف أهل البلاد بالإسلام وما يحمله من مبادئ سامية ونظم متكاملة، كما أن هذه الغارات لم تقضي على مقاومة الروم «البيزنطيين» التي تعتبر عقبة كبيرة في سبيل انتشار الإسلام وتثبيت دعائم الفتح. لذلك فقد كان على الخلافة الأموية ـ بعد أن استتبت الأمور في يد معاوية بن أبي سفيان[1] سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م أن تتبنى سياسة جديدة تستهدف الفتح المنظم لبلاد المغرب[2].

غلام المغيرة بن شعبه غيلة بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح وعاش بعد الطعنة ثلاث ليال. انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٣/ ١٩ تاريخ الطبري ١/ ١٨٧-٢١٧ ثم ٢/ ٢-٨٢، تاريخ اليعقوبي ٢/ ١١٧، الإصابة ت: ٥٧٣٨، صفة الصفوة ١/ ١٠١، حلية الأولياء ١/ ٣٨، تاريخ الخميس ١/ ٢٥٩ ثم ٢/ ٢٣٩، أخبار القضاة ١/ ١٠٥، البدء والتاريخ ٥/ ٨٨ و١٦٧، الكنى والأسماء ١/ ٧، الإسلام والحضارة ٢/ ١١١ و٣٦٤.

(١) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي مؤسس الدولة الأموية في الشام وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار كان فصيحًا حليمًا وقورًا. ولد بمكة سنة ٢٠ ق.هـ/ ٦٠٣ م وأسلم يوم فتحها سنة ٨ هـ وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه. ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه ولاه قيادة جيش تحت إمرة أخيه. يزيد بن أبي سفيان، فكان على مقدمته في فتح مدينة صيداء وعرقة وجبيل وبيروت، ولما ولي عمر رضي الله عنه جعله واليًا على الأردن ورأى فيه حزمًا وعلمًا فولاه دمشق بعد موت أميرها يزيد أخيه وجاء عثمان رضي الله عنه فجمع له الديار الشامية كلها وجعل ولاة أمصارها تابعين له، وقُتل عثمان رضي الله عنه. فولي علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجَّه لفوره بعزل معاوية، وعلم معاوية بالأمر قبل وصول البريد فنادى بثأر عثمان واتهم عليًا رضي الله عنه بدمه، ونشبت الحروب الطاحنة بينه وبين علي رضي الله عنه وانتهى الأمر بإمامة معاوية في الشام وإمامة علي في العراق. ثم قتل علي وبويع بعده ابنه الحسن، فسلم الخلافة إلى معاوية سنة ٤١ هـ. ودامت لمعاوية الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة، فعهد بها إلى ابنه يزيد ومات في دمشق. له ١٣٠ حديثًا اتفق البخاري ومسلم على أربعة منها وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة، وهو أحد عظماء الفاتحين في الإسلام، بلغت فتوحاته المحيط الأطلنطي، وافتتح عامله بمصر بلاد السودان سنة ٤٣ هـ، وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو. وفي أيامه فُتح كثير من جزائر يونان والدردنيل وحاصر القسطنطينية برًا وبحرًا سنة ٤٨ هـ وهو أول من جعل دمشق مقر خلافة، وأول من اتخذ المقاصير «الدور الواسعة المحصنة» وأول من اتخذ الحرس والحجاب في الإسلام. وأول من نصب المحراب في المسجد، كان يخطب قاعدًا، وكان طوالا جسيما أبيض، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وضُربت في أيامه دنانير «عليها صورة أعرابي متقلد»، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نظر إليه يقول: هذا كسرى العرب. انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٤/ ٢، تاريخ الطبري ٦/ ١٨، منهاج السنة ٢/ ٢٠١-٢٦٦، تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩٢ تاريخ الخميس ٢/ ٢٩١-٢٦٦ البدء والتاريخ ٦/ ٥، شذور العقود للمقريزي ٦، معجم الشعراء ٣٩٣، مروج الذهب ٢/ ٤٢، خلاصة تذهيب الكمال ٣٢٦، الإسلام والحضارة العربية ٢/ ١٤٦ - ١٦١ و٣٩٤، المحبر ١٩، الذهب المسبوك ٢٤.

(٢) د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة الأموية في العصر الأموي ٢٥٧ القاهرة ١٩٦٦م.

وكانت البادرة الأولى فى هذه السياسة الأموية أن ولّى معاوين بن أبى سفيان «عقبة بن نافع الفهرى»[1] قيادة عمليات الفتح فى بلاد المغرب سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م وأمده بعشرة آلاف فارس[2]، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة هى مرحلة الفتح المنظم لبلاد المغرب، وامتداد تلك الفتوح خاصة إلى بلاد المغرب الأوسط.

حملة عقبة بن نافع الأولى ٥٠هـ/ ٦٧٠م

رأى عقبة ـ فى أثناء حملاته على بلاد المغرب ـ أن فتح تلك البلاد، ينبغى أن يتم فى إطار خطة عامة تقوم على تأسيس قاعدة ثابتة يستقر فيها المسلمون، ثم يتابعون منها الغزو ونشر الإسلام[3]. ووقع اختيار عقبة على مكان لهذه القاعدة التى سماها

---

(١) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموى القرشى الفهرى فاتح من كبار القادة فى صدر الإسلام وهو بانى مدينة القيروان. وُلد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم سنة ١ ق.هـ/ ٦٣٠م ولا صحبة له، وشهد فتح مصر، وكان ابن خاله عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢هـ واليًا فافتتح كثيرًا من تخوم السودان وكورها فى طريقه وعلا ذكره، فولاه معاوية إفريقية استقلالا سنة ٥٠هـ، وسير إليه عشرة آلاف فارس، فأوغل فى بلاد إفريقية حتى أتى وادى القيروان، فأعجبه فبنى فيه مسجدًا لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وأمر من معه فبنوا فيه مساكنهم، وعزله معاوية سنة ٥٥هـ فعاد إلى المشرق، ولما توفى معاوية بعثه يزيد واليًا على المغرب سنة ٦٢هـ فقصد القيروان، وخرج منها بجيش كثيف، ففتح حصونا ومدنًا وصالحة أهل فزان، فسار إلى الزاب وتاهرت. وتقدم إلى المغرب الأقصى فبلغ البحر المحيط وعاد، فلما كان فى تهوده من أرض الزاب تقدمته العساكر إلى القيروان، وبقى فى عدد قليل، فطمع به الفرنج، فأطبقوا عليه فقتلوه ومن معه ودفن بالزاب سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م.
انظر المزيد فى: الاستقصا ١/ ٣٦ ـ ٣٨، البيان المغرب ١/ ١٩، بغية الرواد ١/ ٧٦، فتح العرب للمغرب ١٣٠ - ١٥٢.

(٢) النويرى: نهاية الأرب. جـ٢٢ ق١ ٥، ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ٣/ ٤٦٥ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٥م تحقيق إحسان عباس.

(٣) ظهر عقبة بن نافع على مسرح أحداث الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، حين عهد إليه عمرو بن العاص بحملة لفتح فزان، كما أصبح عقبة أميرًا على إفريقية من قِبل عمرو بن العاص وذلك سنة ٢٣هـ، وفى سنة ٤١هـ استعمله عمرو بن العاص على إفريقية فغزا لواته ومزاته وافتتح غدامس سنة ٤٢هـ وفى سنة ٤٣هـ غزا عقبة بعض كور السودان وودان وظل عقبة مقيمًا فى برقة وزويلة حتى استعمله معاوية بن أبى سفيان.
انظر: د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٣٠ - ١٣١.

القيروان، وشرع فى بنائها بعد أن فرغ من فتح إفريقية وقضى على مقاومة الروم «البيزنطيين» والبربر بها سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م[١].

وتجلت عبقرية عقبة الحربية فى اختيار موضع القيروان؛ فموقعها على عتبة إقليم نوميديا يجعلها مفتاحًا لبلاد المغرب الأوسط وما يليها من أراضى المغرب الأقصى[٢]. ثم إن بُعدها عن الساحل يجعلها فى مأمن من غارات الروم المفاجئة. وأخيرًا فإن قربها من السبخة يتيح لإبل المسلمين أن تكون آمنة فى مراعيها من اعتداءات البربر والنصارى عليها[٣].

وقد أوضح عقبه هدفه من تأسيس القيروان حين قال لجنوده: «فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بُدٌّ من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها «أى بلاد المغرب» الأول فالأول»[٤].

وانشغل عقبة بتأسيس القيروان أربع سنوات، أو تزيد قليلا[٥] تغيرت خلالها الأمور فى بلاد المغرب، وأصبحت الأوضاع تقتضى تغييرًا فى القيادة العليا الإسلامية هناك، وكان مسلمة بن مخلد[٦] ـ والى مصر ـ أول من أحس ـ لقربه من بلاد المغرب ـ أن الأمور تتغير فى تلك البلاد لغير صالح المسلمين نتيجة السياسة الجديدة التى اتبعها فى تلك البلاد الإمبراطور قسطنطين الرابع، إذ أصدر هذا الامبراطور أوامره بمنع الاضطهاد الدينى لأهالى المغرب أملا فى تكوين جبهة داخلية قوية لمقاومة

(١) الدباغ معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ١/ ٨، تحقيق إبراهيم شبوح ـ الخانجى ـ القاهرة ١٩٦٨م.

(٢) د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر ٨٩ ـ ٩٠.

(٣) ابن عذارى البيان: المغرب ١/ ١٩ـ٢٠، الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٩.

(٤) ابن عذارى البيان: المغرب ١/ ١٩ ـ ٢٠.

(٥) د. محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر الأموى ٢٥٩.

(٦) هو مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصارى الخزرجى من كبار الأمراء فى صدر الإسلام. وفد على معاوية قبل أن يستتب له الأمر، وشهد معه معارك صفين فولاه إمارة مصر سنة ٤٧هـ ثم أضاف إليها المغرب فأقام بمصر وسير الغزاة إلى المغرب فى البر والبحر. ولما توفى معاوية أقره يزيد فاستمر فى الإمارة إلى أن توفى بالإسكندرية ٦٢هـ/ ٦٨٢م وقيل بالمدينة، وهو أول من جعل بنيان المنائر التى هى محل التأذين فى المساجد كان ولده سنة ١هـ/ ٦٢٢م انظر المزيد فى الكامل ٤/ ٤٤، الاصابة ت ٧٩٩١، الولاة والقضاة ٣٨ ـ ٤٠

المسلمين، تضم الروم مع بربر المغرب الأوسط وبخاصة قبيلة أوربة، والقبائل البدوية الخاضعة لها[1]. وأمام هذه التطورات سعى مسلمة بن مخلد فى عزل عقبة عن القيادة العليا فى المغرب، وتولية دينار أبى المهاجر سنة ٥٥هـ/ ٦٧٦م[2].

دينار أبو المهاجر «٥٥هـ - ٦٧٦م»

قَدِمَ دينار أبو المهاجر إلى إفريقية فى هذه الظروف الجديدة من تحالف البيزنطيين مع البربر، وأجمعت معظم المصادر على أنه عزل عقبة وأخرجه إلى المشرق فى حراسة مشددة[3]، ثم انتهج دينار أبو المهاجر لنفسه سياسة جديدة قوامها التقرب إلى البربر لضرب تحالفهم مع البيزنطيين، فأمر الناس بإخلاء القيروان والاتجاه إلى عمارة بلدة اسمها تيكروان[4]. وأراد بذلك أن يُظهر تقربه إلى البربر ليفسد على الروم «البيزنطيين» مخططاتهم التى تقوم على غرس العداوة والسخط فى نفوس البربر تجاه المسلمين، ونجح أبو المهاجر بعد ذلك فى نقل مسرح عملياته العسكرية إلى المغرب الأوسط، فقد رأى أن المنطقة الواقعة بين تاهرات ووهران والتى تتوسطها تلمسان أصبحت مقر نشاط التحالف البيزنطى البربرى الجديد[5]، وبات الهجوم عليها أمرًا ضروريًا، فخرج بجيشه حتى وصل إلى تلمسان، وهناك اصطدام بالبربر وهزمهم وظفر بكسيلة زعيم أوربة، وبكياسة دينار وحسن سياسته استطاع اجتذاب

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٠٩.

.Diehl, Ch, L, Afrique Byrontine P. 576 London 1896

أَوْرَبة: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والباء موحدة وهاء: قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس.

ياقوت الحموى: معجم البلدان ١/ ٣٧١.

(٢) د. إبراهيم العدوى، بلاد الجزائر ٩١ - ٩٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢١ - ٢٢.

(٤) ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ٢٩، تحقيق: محمد شمام.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ٢٤٠، القاهرة ١٩٦٣م، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٦٦.

تِلِمْسان: بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة.

ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٤٠٨، طبعة الخانجى.

كسيلة إلى الدخول فى الإسلام [1] هو وعدد كبير من البربر، فكانت هذه صفحة جديدة فى تاريخ انتشار الإسلام فى المغرب الأوسط.

وفى سنة ٥٩هـ/٦٧٨م اتجه أبو المهاجر دينار إلى قرطاجنة التى تمثل أقوى معاقل الروم فى الشمال الإفريقى وحاصرها حصارًا شديدًا، ولم يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل الروم عن جزيرة شريك، التى اتخذها أبو المهاجر مركزًا لمراقبة الروم ومعرفة تجمعاتهم وتحركاتهم [2].

بعد ذلك اتجه أبو المهاجر إلى مِيْلة وافتتحها وأقام بها سنتين عاد بعدهما إلى مقره فى تيكروان بعد أن حقق أهدافه فى المغرب الأوسط [3].

ولاية عقبة بن نافع الثانية «٦٢هـ/٦٨٢م»

أثمرت جهود أبى المهاجر دينار فى المغرب الأوسط، فقد عرف كثير من أهله الإسلام ودخلوا فيه، ولكن عقبة بن نافع كان قد استطاع فى ذلك الوقت إقناع السلطات المركزية فى دمشق بالعودة إلى القيادة العليا فى بلاد المغرب بدلا من دينار أبى المهاجر. وحضر عقبة إلى القيروان «سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م» [4] مؤمنًا بسياسته القديمة، ورفض تمامًا سياسة أبى المهاجر التى كانت تقوم على استمالة البربر وتحبيبهم فى الإسلام، فلم يكد عقبة يتسلم زمام الأمور حتى أعد العدة لغزو

---

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ٣٩٩، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٨-٢٩.

Mercier, F. Histoire de L'Fique Septerionale. P. 204 London 204.

(٢) د.محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر الأموى ٢٦٢.

قَرْطَاجَنَّةُ: بالفتح ثم السكون وطاء مهملة وجيم ونون مشددة ياقوت الحموى: معجم البلدان ٧/ ٥٢ طبعة الخانجى.

جزيرة شَرِيْك: بفتح الشين المعجمة وكسر الراء وياء ساكنة وكاف، كورة بإفريقية بين سوسة وتونس. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٣/ ٩٩ الخانجى ـ القاهرة.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١/ ١٥٢ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣م.

مِيْلَةُ: بالكسر ثم السكون ولام، مدينة صغيرة بأقصى إفريقية.. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٨/ ٢٢٦ طبعة الخانجى ـ القاهرة.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٧٨-١٧٩.

بلاد المغرب بكاملها. فاستخلف زهير بن قيس البلوى على القيروان وحمل معه أبا المهاجر دينار مكبلا بالحديد انتقامًا منه[1]، واندفع بقواته يحرز النصر تلو النصر حتى وصل إلى السويس الأقصى بعد أن خاض معارك ضارية فى باغاية ولميس والزاب[2]وتاهرت، وقد أظهرت هذه المعارك أن البيزنطيين عادوا إلى التحالف مع جماعات البربر المعروفة باسم «البرانس» لتكوين جبهة للمقاومة فى المغرب الأوسط[3].

ذلك أن عقبة لم يبدأ من حيث انتهى أبو المهاجر دينار، وبذلك فقد عنصرًا مهمًا من عناصر النجاح؛ حيث أعطى تشدده مع البربر وخاصة كسيلة فرصة للروم «البيزنطيين» ليجددوا ما كان بينهم وبين البربر من تحالف ليصبحوا جبهة مقاومة واحدة ضد المسلمين تضرب ضربتها فى الوقت المناسب، وفضلا عن ذلك فإن عقبة وقع فى تأثير الإغراء الجغرافى لامتداد المغربين الأوسط والأقصى فتقدم بقواته دون أن يوفر لها حماية بحرية[4]، ودون أن يضع لنفسه خطة مرسومة محددة الأهداف تؤمِّن ظهر قواته فى تقدمها ورجوعها، وترك جيوبًا كثيرة للأعداء يتحصنون بها خلف ظهره، تجمعت هذه الجيوب بعد ذلك وقضت عليه فى يسر وسهولة[5].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٣، ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ٣٠.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٤٨ـ ٤٩ النويرى: نهاية الأرب حـ٢٢، ق١ ورقة٦، السلاوى: الاستقصا ١/ ٣٨ مع اختلاف طفيف بين الروايات.
السّوس الأقصى: كورة مدينتها طَرْقلة.
ياقوت الحموى: معجم البلدان ٥/ ١٧١ ـ ١٧٢.
باغاية: الغين معجمة وألف وياء مدينة كبيرة فى أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة الهواء.. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٤١.. لميس: موضع بينه وبين مطماطة أمسكور على وادى ملوية مرحلة، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٤٧.
الزاب: بعد الألف باء موحدة.
ياقوت الحموى: معجم البلدان ٤/ ٣٦٣.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٤ ـ ٢٥، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٨٢ ـ ١٦٨٣ و١٨٩

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوى: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ٣٦.. سلسلة أعلام العرب العدد ٦٨.

(٥) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٠٢ ـ ٢٠٣... وعبارة المؤرخين القدامى توضح هذا الإهمال من جانب عقبة فقد كره أن يقيم على حصار الروم فى حصونهم التى كانوا يهربون إليها، فكان يترك هذه

اعتقد عقبة عندما وصل إلى شاطئ المحيط أن عملياته الحربية قد انتهت فارتد بسرعة إلى إفريقية، حتى إذا وصل إلى مدينة طنبة أحس بتواطؤ الروم مع البربر؛ حيث طمروا آبار المياه في طريق عودته، لذا أمر جنوده أن يتقدموا فوجًا بعد فوج إلى القيروان، وسار هو إلى تهوذة لحراسة مؤخرة جنده[1]. فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كسيلة الأوربى الذى كان ضمن قوات عقبة، وكان قد ضاق ذرعا بسوء معاملة عقبة له، يقول ابن خلدون: «وكان كسيلة ملك أوربة والبرانس مع البربر قد اضطغن عليه «عقبة بن نافع» بما كان يعامله به من الاختصار يقال إنه كان يحاصره كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذُبحت لمطبخه[2]، وكانت هذه فرصة عظيمة لكسيلة لينتقم من عقبة وها هو ذا يجد الروم يراسلونه، بعد أن وصلتهم إمدادات كثيرة عن طريق البحر، فاتفق كسيلة معهم، واعترضوا عقبة فى تهوذة وقتلوه هو وثلاثمائة من أصحابه من بينهم دينار أبى المهاجر سنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م[3].

وتطورت الأمور فى القيروان بسرعة فقد وصلتها أنباء مذبحة تهوذة فكان لها وقع سيئ على المسلمين وعظم البلاء عليهم، وكان الجند العائدون قد نالهم التعب والإرهاق ولذلك فضلوا العودة إلى المشرق وترك القيروان، وكان على رأسهم حنش الصنعانى قائد حامية جزيرة شريك[4]. وينقل ابن عذارى الحوار الذى دار بين زهير بن قيس وحنش الصنعانى حين قام زهير خطيبًا فى الناس يدعوهم إلى القتال دفاعًا عن القيروان، فقام زهير بن قيس خطيبًا فى الناس فقال: يا معشر المسلمين: إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم، ويفتح الله

الحصون ممتلئة بالعتاد والفرسان ويتقدم إلى غيرها دون تطهيرها. انظر: الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٤٨ ـ ٤٩، النويرى: نهاية الأرب: مخطوطة جـ٢٢، ق١، ورقة ٦ ـ ٧، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٤.

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ١٠٦.. طُبْنَة: بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة، بلدة فى طرف إفريقية على ضفة الزاب. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٦/ ٢٨.. تَهُوْذَة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو والذال معجمة اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف باسم «تهوذة».. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٤٣٨.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦/ ٣٩٩.

(٣) إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ٩٨، أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٩٨ ـ ترجمة أحمد محمد عيسى ـ القاهرة ١٩٦٦م.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٠٥.

لكم دون ذلك، فقال حنش الصنعانى: لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين: من أراد منكم القفول إلى مشرقه، فليتبعنى، فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته[١]، ووجد زهير نفسه فى موقف بالغ الحرج، ففضّل الانسحاب بعد أن رأى أن ما معه من الرجال لا يكفى للوقوف فى وجه كسيلة، ومضى زهير حتى وصل إلى برقة، بينما واصل كسيلة المنتصر زحفه إلى القيروان فاستولى عليها «وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمّنهم»[٢]، وظل كسيلة يحكم القيروان حتى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م[٣].

وعلى الرغم من فشل حملة عقبة فى تحقيق أهداف سياسية[٤]، فإنها كانت موجة من موجات المد الإسلامى حملت الإسلام إلى آفاق جديدة بدأت تدخل الإسلام شيئًا فشيئًا، ولا شك أنها تركت آثارها فى المغرب الأوسط، فقد ظهرت فيه عناصر إسلامية جديدة وبخاصة بين القبائل البدوية «البتر» التى أعلنت العصيان على كسيلة ورفضت الانصياع له. ولذلك آثر كسيلة ألا يتعرض لهذه القبائل لينعم بشىء من الاستقرار فى القيروان[٥].

زهير بن قيس البلوى ٦٩هـ / ٦٨٨م

وأقام كسيلة بالقيروان خمس سنوات، كانت الخلافة الأموية خلالها مثقلة بمشكلاتها الكثيرة، وخاصة ثورة عبدالله بن الزبير[٦] فى الحجاز، وحركة المختار

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٣١، السلاوى: الاستقصا ١/ ٣٩.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢، ق١ ورقة ٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١/ ١٧١ ـ ١٧٢.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٧؛ د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ٩٩.

(٦) هو عبدالله بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى أبو بكر فارس قريش فى زمنه، وأول مولود فى المدينة بعد الهجرة شهد فتح إفريقية زمن عثمان رضى الله عنه، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ عقيب موت يزيد ابن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سيروا إليه الحجاج الثقفى فى أيام عبد الملك بن مروان فانتقل إلى مكة وعسكر الحجاج فى الطائف ونشبت بينهما حروب أتى المؤرخون على تفصيلها انتهت بمقتل

بن أبي عبيد الثقفي[1] بالعراق. ولكن ما أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان سنة

ابن الزبير في مكة بعد أن خذله عامة أصحابه وقاتل قتال الأبطال وهو في عمر الثمانين وكان من خطباء قريش المعدودين يشبّه في ذلك بأبي بكر رضي الله عنه، مدة خلافته تسع سنين. وكان نقش الدراهم في أيامه بأحد الوجهين «محمد رسول الله» والآخر «أمر الله بالوفاء والعدل» وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، له في الصحيحين ٣٣ حديثًا وكانت في الأعمال البهنساوية بمصر طائفة من بنيه هم بنو بدر وبنو مصلح وبنو نصارة.. انظر المزيد في: الكامل ٤/ ١٣٥، فوات الوفيات ١/ ٢١٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠١، حلية الأولياء ١/ ٣٢٩، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢، صفة الصفوة ١/ ٣٢٢، تاريخ الطبري ٧/ ٢٠٢، تهذيب ابن عساكر ٧/ ٣٩٦، شذور العقود للمقريزي ٦، جمهرة أنساب العرب ١١٣ ـ ١١٤.

(١) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق من زعماء الثائرين على بني أمية وأحد الشجعان الأفذاذ من أهل الطائف انتقل منها إلى المدينة مع أبيه في زمن عمر وتوجه أبوه إلى العراق فاستشهد يوم الجسر وبقي المختار في المدينة منقطعًا إلى بني هاشم وتزوج عبدالله بن عمر بن الخطاب أخته صفية بنت أبي عبيد، ثم كان مع علي بالعراق وسكن البصرة بعد علي رضي الله عنه، ولما قتل الحسين رضي الله عنه سنة ٦١هـ انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد أمير البصرة فقبض عليه ابن زياد وجلده وحبسه ونفاه بشفاعة ابن عمر إلى الطائف، ولما مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ وقام عبدالله بن الزبير في المدينة يطلب الخلافة ذهب إليه المختار وعاهده وشهد معه بداية حرب الحصين ثم استأذنه في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته فوثق به، وأرسله ووصى عليه غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا «الحسين» وقتلوه فدعا إلى إمامة «محمد بن الحنفية»، وقال: إنه استخلفه فبايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سرًّا، فخرج بهم على والي الكوفة عبدالله بن مطيع فغلب عليها واستولى على الموصل وعظم شأنه وتتبع قتلة الحسين رضي الله عنه فقتل منهم شمر ذي الجوشن الذي باشر قتل الحسين رضي الله عنه وخولي بن يزيد الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي حاربه، وأرسل إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد الذي جهز الجيش لحرب الحسين، فقتل ابن زياد وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة، وكان يرسل بعض المال إلى صهره ابن عمر وإلى ابن عباس وإلى ابن الحنفية فيقبلونه، وشاعت في الناس أخبار عنه بأنه ادّعى النبوة ونزول الوحي عليه وأنه كان لا يوقف له على مذهب، ونقلوا عنه أسجاعًا، قيل: كان يزعم أنها من الإلهام، منها: «أما والذي شرع الأديان وحبب الإيمان، وكره العصيان، لأقتلن أزدعمان، وجل قيس عيلان وتميمًا أولياء الشيطان، حاشا النجيب بن ظبيان»، وقد يكون هذا من اختراع أصحاب القصص، وقد نقله الثعالبي، وعلم المختار بأن عبدالله بن الزبير اشتد على ابن الحنفية وابن عباس لامتناعهما عن بيعته في المدينة وأنه حصرهما ومن كان معهما في «الشعب» بمكة، فأرسل المختار عسكرًا هاجم مكة وأخرجهما من الشعب فانصرف إلى الطائف، وحمد الناس له عمله ورُويت عنه أبيات قالها في ذلك: تسربلت من همدان درعا حصينة.. ترد العوالي بالأنوف الرواغم وعمل مصعب بن الزبير وهو أمير البصرة بالنيابة عن أخيه عبدالله على خضد شوكة المختار فقاتله ونشبت وقائع انتهت بحصر المختار في قصر الكوفة وقتله ومن كان معه، ومدة إمارته ستة عشر شهرًا. وفي الإصابة وهو من غريب المصادفات أن عبد الملك بن عمر ذكر أنه رأى المختار وقد جيء برأس

٦٥هـ/ ٦٨٤م حتى كتب إليه زهير بن قيس البلوى يستنهضه لتخليص إفريقية وتحرير من بها من المسلمين من يد كسيلة[١]. ورأى عبد الملك بن مروان بثاقب فكره أن استرداد إفريقية أمر حيوى يعيد للجيوش الإسلامية هيبتها فى الجناح الغربى للدولة، فاستشار وزراءه واستقر رأى الجميع على اختيار زهير بن قيس نفسه، نظرًا لما يتمتع به من خبرة فى الميدان الإفريقى وشئونه، وأمدَّه عبد الملك بن مروان بجيش كثيف وأمره بالتوجه إلى إفريقية، فتقدم إليها زهير بقواته سنة ٦٩هـ[٢]. وبلغ كسيلة خبر تقدمه، فخشى البقاء فى القيروان؛ لأن بها خلقًا كثيرًا من المسلمين؛ كما أنها محاطة بطوائف من البربر الموالين للعرب وهؤلاء ولاشك سينقلبون عليه، فيكون قد أوقع نفسه بين شقى الرحى، لذلك فضل أن تكون أرض المعركة فى «ممس»[٣] التى تقع بحصنها على هضبة تتصل بجبال الأوراس، وهذا يسهل عليه الحصول على العتاد والمؤن والماء ولأن طبيعة المنطقة الجبلية تمكِّنه من الهروب إلى موطنه إذا هُزم أمام زهير[٤]وصل زهير إلى القيروان، وأقام بظاهرها ثلاثة أيام، فأراح جنده واستراح، وفى اليوم الرابع تقدم للقاء كسيلة، ودارت بينهما معركة عنيفة، أحكم فيها زهير حصار كسيلة، حتى أصبح فراره شيئًا مستحيلا فهُزم ولقى مصرعه، وأمعنت قوات زهير فى طلب الفارين من أتباع كسيلة ومطاردتهم حتى وادى ملوية[٥]. ويذكر المالكى وابن أبى دينار أن زهيرًا اتجه بعد قضائه على كسيلة إلى الشمال ففتح شقبنارية، وباجة وبعض القلاع الأخرى[٦].

عبيدالله بن زياد، ثم رأى مصعب بن الزبير وقد أتى برأس المختار، ثم رأى عبد الملك بن مروان وقد حُمل إليه رأس مصعب.

انظر المزيد فى: الإصابة ت: ٨٥٤٧، الفرق بين الفرق ٣١ ـ ٣٧، الكامل فى التاريخ ٤/ ٨٢ ـ ١٠٨، تاريخ الطبرى ٧/ ١٤٦، ثمار القلوب ٧٠، فرق الشيعة ٢٣، معجم الشعراء ٤٨، الأخبار الطوال ٢٨٢ ـ ٣٠٠، الذريعة ١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩، الفاطميون فى مصر ٣٤ ـ ٣٨.

(١) ابن عذارى البيان المغرب ١/ ٣١، ابن الأثير: الكامل ٤/ ١٠٨.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٥٧، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٣١.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ١٠٩.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٢١.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٣٢، السلاوى: الاستقصا ١/ ٤٢.

(٦) المالكى: رياض النفوس ٣٠٨، ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ٣٣، تحقيق: محمد شمام. شَقْبَنارية: بعد القاف باء موحدة وبعد الألف نون وبعد الألف الأخرى راء أماكن بإفريقية، ياقوت الحموى: معجم البلدان ٥/ ٢٨١.

وهكذا كان لجهود زهير نتائج خطيرة أثرت فى مجريات الأحداث بعد ذلك، فقد نجح العرب فى استرداد المغرب الأوسط وضمّه إلى حوزتهم، وكسروا شوكة أوربة البرانس حليفة الروم، فتركت أوربة المغرب الأوسط لتستقر حول مدينة وليلى بالمغرب الأقصى[1]. فكان ذلك ايذانا بخروج بربر البرانس من حلبة الصراع القائم فى المغرب.

ولم يهدأ الروم منذ وصلت أنباء انتصارات زهير بن قيس فى إفريقية والمغرب الأوسط إلى مسامعهم فى القسطنطينية، وأخذوا يدبرون شيئًا فى الخفاء، فأبحرت مراكبهم بأعداد كثيرة من قواعدها فى صقلية وشنّت سلسلة من الإغارات البحرية شملت المناطق الشرقية المتاخمة لبرقة، ورأى زهير ضرورة مطاردة هذه الغارات والقضاء عليها وعلى نشاطها وأن ذلك خير له من الإقامة فى القيروان، وعند وصوله إلى برقة استطاع الروم إيقاعه هو ونفر قليل من جنده فى كمين أعدوه له على الساحل وتكاثروا عليه فاستُشهد هو ومن معه فى ساحة النضال، وسجل الروم على أنفسهم غدرًا لا يقل شراسة عما فعلوه مع عقبة فى تهودة[2]. ولم تستطع الخلافة الأموية فى هذه الآونة أن تواصل اهتمامها بشئون المغرب، لأن جيوشها كانت تخوض المعارك الفاصلة مع عبدالله بن الزبير فى العراق والحجاز، ومع الخوارج فى فارس واليمامة[3]، وكان ذلك سببًا فى فترة من الشعور الحربى فى المغرب امتدت من سنة ٧١هـ/ ٦٩٠م إلى سنة ٧٦هـ/ ٦٩٦م انتهت حين استطاع عبد الملك بن مروان التغلب على ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، فأرسل حسان بن النعمان على رأس قوات ضخمة لإقرار الأوضاع بالمغرب واستكمال فتحه.

باجّة: بلد بإفريقية تعرف بباجة القمح، سميت بذلك لكثرة حنطتها، بينها وبين تنس يومان. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٢٥.

(١) السلاوى: الاستقصا ١/ ٤٢.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢، ق١ ورقة ٨، ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٠، د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٠٥.

Fowrnel, H. Etucle swrlo con quete de L'Afriefue parles Arobes. P. 28-29.

(٣) د. ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية ٢٣٠ - ٢٣١ أعلام العرب رقم ٢٥٣.

حسان بن النعمان ٧٦هـ / ٦٩٦م

حمل حسان بن النعمان عبء المرحلة الجديدة فى فتح بلاد المغرب، وقد عمل عبد الملك بن مروان على تجهيزه بجيش كبير، يذكر المؤرخون أن المسلمين لم يدخلوا إفريقية بمثله، فقد بلغ عدده أربعين ألفًا تحملت خزانة مصر تكاليف إعدادهم وتجهيزهم بأنواع الأسلحة والمعدات[(١)]. تقدم حسان بهذا الجيش فاخترق برقة وطرابلس ووصل إلى القيروان دون أى مقاومة، وتمكن حسان أن يحرز نصرًا كبيرًا على الروم فهزمهم فى قرطاجنة وصطفورة وبنزرت، وفرَّت بقاياهم إلى صقلية والأندلس[(٢)].

وبعد أن أحرز حسان بن النعمان هذه الانتصارات اضطر إلى خوض غمار معركة مع قبيلة جراوة التى قادتها امرأة تدعى الكاهنة تجمع بعض البربر حولها بعد مقتل كسيلة، وقد مُنى جيش حسان بالهزيمة عندما التقاها عند نهر نينى[(٣)]، وطاردته قوات الكاهنة حتى خرج من حدود قابس منسحبًا إلى برقة[(٤)]. وفى تلك الأثناء تمكن أسطول الروم بقيادة البطريق يوحنا من استعادة قرطاجنة مرة ثانية. ويظهر من هذا أن موجة الفتح انحسرت من جديد لتعود المناطق الساحلية إلى سيطرة الروم والمناطق الداخلية إلى

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٣٤، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢، ق١ ورقة ٨، ابن أبى دينار: المؤنس ٣٣ تحقيق: محمد شمام Fowrnel op cit, 38

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢: ق١ ورقة ٨، ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠١.

بَرْقَةُ: بفتح أوله والقاف اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية.

ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ١٣٣.

بَنْزَرتُ: بفتح الزاى وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان، مدينة بأفريقية بينها وبين تونس يومان.

ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٢٩٢.

صَطفُورةُ: بالفتح ثم السكون والفاء وبعده واو ساكنة وراء مهملة وهاء، بلدة من نواحى إفريقية ٥/ ٣٥٦.

ياقوت الحموى: معجم البلدان ٥/ ٣٥٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ٣٧٠.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١٨٥.

قابس: مدينة جليلة مسورة بالصخر من بنيان الأول وساحلها مرفأ للسفن من كل مكان وحولها قبائل من البربر لواته ولماية ونفوسة ومزاتة وزواغة وزوارة.

البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٧ – ١٨.

سيطرة البربر[1]، واتبعت الكاهنة سياسة تدل على عدم فهمها لمجريات الأحداث، والآثار الطيبة التى تركتها موجات الفتح الإسلامى المتعاقبة فى نفوس الأهالى، ذلك أنها أخذت فى تخريب المدن وقطع الأشجار وتبديد العمران، ظنًا منها أن ذلك يقطع أطماع العرب عن هذه البلاد. ولكن الذى حدث غير ذلك، فقد ثار البربر عليها ورفضوا الانصياع لها أو البقاء تحت سيطرتها، وقد استفاد حسان من هذا الوضع كثيرًا عندما استأنف الزحف على إفريقية وبلاد المغرب سنة ٨١هـ[2]، فاستطاع بمساعدة البربر ـ الذين ضاقوا ذرعًا بأعمال الكاهنة ـ أن يحرز نصرًا نهائيًا عليها ويقتلها سنة ٨٢هـ/ ٧٠١م عند بئر الكاهنة فى جبال الأوراس[3]، وطلب أصحابها الأمان فلم يقبل حسان أمانهم حتى أعطوه اثنى عشر ألف فارس من جميع قبائلهم، دخلوا بعد ذلك فى الإسلام فقسمهم حسان إلى فرقتين جعل على كل فرقة منهما ولدًا من ولدَىْ الكاهنة اللذين دخلا فى الإسلام واستأمنا لحسان على يد يزيد ابن خالد الذى كان أسيرًا عند الكاهنة[4]، وكانت هذه خطوة ضخمة فى مجال الاتصال الاجتماعى بين العرب والبربر لتحقيق الهدف الأسمى من الفتح وهو نشر الإسلام.

لم يبق أمام حسان سوى قرطاجنة فزحف إليها مستعينًا بأسطول إسلامى، كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت فى الساحل الإفريقى ودارت فى البر والبحر رحى معركة كبيرة أسفرت عن تدمير قرطاجنة وهزيمة الروم وخروجهم نهائيًا من إفريقية[5].

استقامت الأمور لحسان فى المغرب فعكف على تنظيمه وصبغه بالصبغة العربية الإسلامية مثله فى ذلك مثل كل الأقاليم التى فتحها العرب واستقروا بها، ولا شك أن المغرب الأوسط تأثر كثيرًا بهذه السياسة التى تهدف إلى إدماج العرب والبربر لخلق حالة من الاستقرار الدائم تستند إلى قاعدة شعبية من البربر، كما سعى حسان إلى ضم البربر إلى الجيش العربى وأخرجهم كما يقول المالكى «مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر»[6].

---

(١) د. شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى ١٧٤.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ٢٥٦.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ٢/ ٢٤٨.

(٤) المالكى: رياض النفوس ١/ ٣٦، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٣٨.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ٢٥٨، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٦٠.

(٦) المالكى رياض: النفوس ١/ ٣

وجعل لهم نصيبًا في الخطط فلكل قبيلة خطة تؤدي عنها المال، وقسم بينهم الفيء والأرض[1]، وعندما شرع حسان في بناء قاعدة تونس البحرية جعل البربر يسهمون بنصيب كبير في تأسيسها فكان عليهم جسر الخشب اللازم لبناء السفن[2]. وسوف يكون لدخول عنصر البربر في الجيش العربي أثره في امتداد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الأندلس بعد ذلك بقليل.

إلى جانب ذلك اتخذ حسان بعض التنظيمات الإدارية، فدوّن الدواوين ونظّم الخراج[3]، وجدد بناء المسجد الجامع في القيروان[4]، وبعث العمال إلى سائر الجهات، كما وزع الفقهاء ينشرون الإسلام واللغة العربية بين البربر[5].

شعر البربر إزاء هذه السياسة أن انضمامهم إلى العرب الفاتحين يعلي من شأنهم ويساويهم بهم في الحقوق والواجبات، فأقبلوا على الإسلام وبنوا المساجد واستعملوا المنابر فيها ولم تقف هذه الظاهرة عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط، بل امتدت لتشمل أجزاءً من المغرب الأقصى[6].

وهكذا استطاع حسان أن يخلق في المغرب وضعًا جديدًا يمكن أن نسميه مرحلة الاختلاط والاندماج بين العرب والبربر، ولكن والي مصر عبد العزيز بن مروان - الذي كان يتطلع إلى فتح شامل للمغرب - رأى أن حسانًا لم يحقق هذا الهدف، فبادر إلى عزله ودفع إلى المغرب بقائد جديد هو موسى بن نصير.

موسى بن نصير ٨٦هـ / ٧٠٥م

كان موسى بن نصير هو الرجل الذي أعده عبد العزيز بن مروان ليضع حدًّا لمسألة فتح العرب للمغرب التي طال عليها الأمد، والتي كان يرى عبد العزيز بن مروان

---

(١) المالكي المصدر السابق ١/ ٣٦.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٣٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٣٨، السلاوي: الاستقصا ١/ ٤٣.

(٤) المالكي: رياض النفوس ١/ ٣٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥١.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ١٩٨ - ١٩٩.

أنها تمثل عبئًا ليس بالقليل على خزانة مصر، وقد وُفق عبد العزيز بن مروان أكبر التوفيق في تولية القيادة في المغرب لموسى بن نصير، وهو رجل من أقدر وأذكى رجال الدولة الأموية[1].

قَدِمَ موسى بن نصير إلى المغرب في أواخر سنة ٨٥هـ/ ٧٠٤م[2]، وفي رأسه دراسة شاملة لكل تجارب قواد الفتح السابقين وخططهم والعقبات التي صادفتهم، مضافًا إليها خبراته الخاصة التي مارسها وعاش فيها، لذلك رأى أن يقوم أولًا بتطهير إفريقية وإقليم الزاب من الروم وعملائهم من البربر[3]. وقد أكد موسى بن نصير ذلك في خطبته حين قال: «فإن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوًا منه أدنى ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة ويكون عونًا عليه عند النكبة»[4].

اتبع موسى بن نصير خطة ترمي إلى ضرب هذه العناصر «الروم وعملائهم من البربر» في وقت واحد وبشدة تقضي على كل مقاومة لهم، فأرسل حملة بقيادة عبد الملك الخشيني إلى قلعة زغوان، وفي الوقت نفسه بعث ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحي القيروان، ووجه ابنه الثاني مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية[5]، وبلغ الخمس من سبي المعارك التي خاضوها يومئذ ستين ألف رأس من السبي[6].

وهكذا نجح هؤلاء القواد في تأمين إفريقية وتنظيفها من دسائس الروم وحلفائهم

---

(١) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٤٦ القاهرة ١٩٥٩م.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥١.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١٥. يرى الدكتور حسين مؤنس أن الفتح العربي للمغرب قد تم في عهد حسان بن النعمان وأنه لا يسمي أعمال موسى بن نصير في المغرب فتوحًا، وكيف يمكن القول بذلك، وولاية حسان بن النعمان انتهت وإقليم طنجة لم يُفتح بعد، ومناطق كثيرة من المغرب الأقصى، كما أن خطر الروم مازال قائمًا في الجزر القريبة من سواحل الشمال الإفريقي كما أن كثيرًا من القبائل خرجت بعد عودة حسان إلى المشرق واستهوتها دعاوى الروم؟ ولكن يمكن أن يقال: إن موسى أتم الحلقة الأخيرة من فتح المغرب. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٧٦، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٢، مجهول: الأخبار المجموعة ٤، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٦٠، د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ٤٨.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣، القاهرة ١٩٦٣م.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٠.

من البربر، وكفلوا بذلك حماية تامة لظهر القوات المتقدمة لفتح المغربين الأوسط والأقصى، وقد حظى المغرب الأوسط بأكثر أعمال موسى بن نصير الحربية؛ نظرًا لأن ميدانه كان محورًا للتحالف البيزنطى البربرى الذى كان سببًا فى إخفاق كثير من الجهود الحربية للمسلمين فى المغرب. وأوصى موسى بن نصير قائده عياش بن أخيل الذى أرسله لإخضاع بعض قبائل المغرب الأوسط - بانتهاج سياسة الاسترضاء مع القبائل الراغبة فى الصلح، وأن يعاملها معاملة كريمة ويترك تدبير أمورها بيد أناس من أهلها، مع إصراره على ضرورة أخذ الرهائن منهم؛ ضمانًا لاحترامهم العهود والمواثيق[1].

وتمكَّن عياش بن أخيل من إرغام قبائل هوارة وزنانة على الصلح بعد أن أغار عليهم وأسر أميرهم كمامون[2]. ولما رأت كتامة ذلك أسرعت فقَدِمَت على موسى ابن نصير برهائنها فولى عليهم رجلًا منهم[3]، وفى الوقت نفسه خرج موسى بنفسه لتطهير بعض مناطق المغرب الأوسط التى رأى أنها لا تزال موضع نشاط الروم وأعوانهم من البربر، فزحف بقواته إلى منطقة «سجوما» وتعقب عملاء الروم حتى وصل إلى نهر ملوية وهزمهم هناك هزيمة فادحة عاد بعدها إلى القيروان[4] بعد أن دانت له قبائل المغرب الأوسط تمامًا بالخضوع والولاء.

أما حملات موسى بن نصير فى المغرب الأقصى، فقد كانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية قام بها ابناه عبدالله ومروان والقائد زرعة بن أبى مدرك[5] واختط فيها للمسلمين[6]. ولم يبق أمامه غير سبتة التى استعصت عليه فتركها، لعدم خطورتها

---

(١) د. إبراهيم أحمد العدوى: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥٤.. ويذكر ابن عذارى أن اسمه طامول وأن موسى أرسله إلى عبد العزيز بن مروان فقتله.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤١.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١١٩.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربى ٢١٠.

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان ٢٧٢ - تحقيق صلاح الدين المنجد- القاهرة ١٩٦١م.
طَنْجَة: بالفتح ثم السكون والجيم زيادة هاء، مدينة على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء من البر الأعظم وبلاد البربر.
البغدادى: مراصد الاطلاع ٢/ ٨٩٣-٨٩٤.

ولأنها نافذة تمكن المسلمين من مراقبة الأحوال في بلاد الأندلس التي كان موسى يتطلع إلى فتحها والتغلب عليها.

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن ترك طارق بن زياد واليًا على طنجة وجعل مقر عمله في تلمسان[1]، وكانت هذه الخطوة تتويجًا لسياسة موسى بن نصير الرامية إلى استرضاء البربر وتحبيبهم في الإسلام والفاتحين، وسيضرب طارق بن زياد ومن معه من مسلمي البربر أروع الأمثلة لتضافر القوى الجديدة مع العرب في فتح بلاد الأندلس، بل إن الخلافة سوف لا تتحمل شيئًا من أعباء الفتح في هذا الميدان[2].

تأمين الفتوح الإسلامية في بلاد المغرب

تأكد لموسى بن نصير أن سلامة الفتوح الإسلامية في بلاد المغرب تتطلب تعزيز النشاط البحري في غرب البحر المتوسط، وأن حماية خطوط المواصلات البرية التي تحمل الإمدادات والتموين تقتضي القيام بعمليات بحرية واسعة[3] ضد القواعد الحصينة للروم في الجزر القريبة من الساحل المغربي، لذا اهتمَّ موسى بن نصير بعمران تونس وتوسيع دار صناعتها، وشق القناة التي توصل ميناءها بالمدينة، واستطاعت هذه القاعدة أن تبني مائة سفينة حربية انضمت إلى الأسطول[4] الأموي العامل في البحر المتوسط، فأصبح شمال إفريقيا مركزًا بحريًّا نجح في شلِّ تهديدات أسطول الروم وأصبح في يد المسلمين جزيرة قوصرة التي سيطر المسلمون منها على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية[5]، كما سيطروا على جزيرتي ميورقة

---

(1) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٢١ - ١٢٣.
سَبْتَة: بلفظ الفعلة المرة الواحدة من السبت، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، البغدادي: مراصد الاطلاع ٢/ ٦٨٨.

(2) حسين مؤنس فجر الأندلس ١٢٢.

(3) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٢٣.

(4) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١١٥.

(5) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ١٠١ - ١٠٢.
قَوْصَرَة: بالفتح ثم السكون والصاد مهملة: جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية. البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٣.. صِقِلِّيَة بثلاث كسرات وتشديد الياء: من جزائر بحر المغرب، مقابلة إفريقية مثلثة الشكل.. البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٨٤٧.

ومنورقة التابعين لملك إسبانيا القوطي[1]. وبهذا تأكد سلطان المسلمين وسيادتهم على الشمال الإفريقي، وساد تلك البلاد الهدوء والأمن بعد أن أمضى المسلمون قرابة السبعين عامًا فى فتح المغرب وهو ما يعتبر شيئًا فريدًا بين سائر الفتوحات الإسلامية. ولم تكن طبيعة المغرب الجغرافية والسياسية والاجتماعية هي السبب الوحيد فى طول مدة الفتح، وإنما ينضم إليها أسباب أخرى تتصل بالأحوال الداخلية للخلافة الأموية من حيث انشغالها بإخماد الفتن والثورات التى وجهتها في المشرق.

سياسة موسى بن نصير وأثرها فى المغرب الأوسط

استهدفت سياسة موسى بن نصير تثبيت سلطان الإدارة الإسلامية فى بلاد المغرب والقضاء على كل مظاهر الفوضى الباقية من العصر الروماني، فقرّب البربر إليه وحببهم في الحكومة الجديدة وأشركهم فى الأعمال وفى إدارة البلاد مع العرب[2]، وبطبيعة الحال فقد تأثر المغرب الأوسط بهذه السياسة الرامية إلى كسب ثقتهم ورضاهم. وزاد من نجاح هذه السياسة أن الإدارة الجديدة اعتبرت أرض الروم مفتوحة عنوة، واعتبرت من تبقى من الروم موالي تتصرف فى شئونهم كما تشاء، بينما اعتبرت الأراضي التابعة للبربر مفتوحة صلحًا، وتركتها في يد أصحابها على أن يؤدوا المال عنها للدولة، واعتبرت البربر المسلمين أحرارًا كالعرب، فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات[3]، كما أتاحت الإدارة الجديدة أمام البربر كل الفرص للاشتراك في الجيوش العربية والانضمام إليها، بل إن طارق بن زياد ـ وهو من البربر ـ تولى منصب القيادة في ولاية طنجة ومعه اثنا عشر ألفا من البربر[4]، يرافقهم عدد

---

(١) د. محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٢.
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م.
مَيُوْرَقة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو والراء يلتقى فيها ساكنان وقاف، جزيرة فى شواطئ الأندلس.
البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١٣٤٦.
مَنُوْرَقة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو وفتح الراء: جزيرة عامرة فى شرقي الأندلس قرب ميورقة.
البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١٣٢٥.

(٢) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ١/ ٩٨، القاهرة ١٩٧٤م.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوى موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي ٥٤. سلسلة أعلام العرب ٦٨.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٧٦، السلاوى: الاستقصا ٤٤، وقارن النويرى فى نهاية الأرب جـ٢٢، ق١ ورقة ١٠ «الذي يذكر أن عددهم كان تسعة عشر ألفًا».

من فقهاء المسلمين يعلّمونهم القرآن والفرائض، وهذا يُظهر لنا جانبًا آخر اهتمت به الإدارة الجديدة وهو نشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر الذين ظهرت بينهم همّة عالية لنشر هذا الدين بين قبائلهم فبنوا المساجد، وحوّلوا المساجد التى بناها المشركون قبل ذلك إلى القبلة، ولم يقف نشاطهم الدينى هذا عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط، بل تعداه ليشمل المغرب الأقصى أيضًا[1].

وينبغى أن نشير هنا إلى سياسة موسى بن نصير فى أخذ الرهائن والسبايا والغنائم والافراط فى جمعها، تلك السياسة التى أفاض المؤرخون القدماء فى الحديث عنها، يذكر القيروانى: أن سبى قلعة زغوان وحدها كان عشرة آلاف، وأن سبى السوس الأقصى بلغ أربعين ألفا، وهناك رواية لابن قتيبة فيها وصف دقيق لما حمله موسى ابن نصير معه عندما قفل عائدًا من المغرب إلى دمشق يقول: وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل فيهم بنو كسيلة وبنو قصدر، وبنو ملوك البربر وملك السوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورتق، وخرج بعشرين ملكًا من ملوك جزائر الروم وخرج معه مائة من ملوك الأندلس ومن الأفرنجيين ومن القرطبيين وغيرهم، وخرج معه أيضًا بأصناف ما فى كل بلد من بزها ودوابها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى، فأقبل يجرُّ الدنيا وراءه جرًّا لم يُسمع بمثله ولا بمثل ما قدم به[2]. ويبدو أن أرقام السبى التى ذكرها المؤرخون مبالَغٌ فيها كثيرًا بدليل التناقض الذى نجده فى روايات المؤرخين حول هذه الأرقام، فبينما يذكر ابن خلدون «أن خُمس السبى فى المعارك الأولى التى خاضها موسى بن نصير قبل فتح طنجة والمغرب الأقصى كان سبعين ألفًا»[3]، نجد النويرى يقول: إن الخُمس منها كان ستين ألفا[4]. بينما نرى ابن عذارى يقول بأن الخُمس من معارك إفريقية مستبعدًا المغرب الأوسط ـ كان ستين ألفًا[5] وحتى ابن عذارى نفسه يضطرب فى هذه الرواية الأخيرة حول سبى إفريقية، فإذا كان السبى من قلعة زغوان عشرة آلاف، والسبى الذى قَدِمَ به عبدالله من نواحى إفريقية مائة ألف،

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣ و٧١.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٨٢.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٢.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣ و٧١.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٢.

والذى جاء به مروان من النواحى الأخرى بإفريقية كان مائة ألف فكيف يكون خُمس هذا المجموع كما يذكر ابن عذارى ستين ألفا[1] ثم يذكر ابن عبد الحكم رواية تزيد الأمر تناقضًا وهى أن هذا الخُمس كان عشرين ألفًا[2]. على أى حال لا يمكننا أن ننكر كثرة السبى الذى جمعه موسى، فقد أجمع المؤرخون على كثرته ولكن ليس إلى هذا الحد الذى ذكروه؛ إذ كيف يمكن لجيوش تقاتل فى كل نواحى المغرب أن تسيطر على هذه الأعداد الضخمة من الأسرى؟ كما أن الاحتفاظ بهم شىء باهظ التكاليف، ويبدو أن المؤرخين خلطوا بين أعداد البربر الذين استأمنوا وانضموا إلى الإسلام عندما رأو سطوة الإدارة الجديدة وبين الذين أخذوا على أنهم أسرى أو رهائن.

وطبيعى أن جزءًا كبيرًا من هذا السبى بقى فى المغرب فكان له دور كبير فى حركة التعريب اللغوى[3] وانتشار الإسلام؛ لأنهم خالطوا المسلمين وتعاملوا معهم. أما الأعداد التى انتقلت من هذا السبى إلى المشرق فأثرها لا يجحد؛ فقد أعطى هذا السبى من البربر سكان المشرق صورة واضحة للحياة فى المغرب؛ فأصبح المغرب بأقاليمه المختلفة ملاذًا لأى مسلم تطارده الخلافة، وأصبح من السهل عليه أن يجد فى المغرب أمنه وبغيته[4].

وإذا كانت سياسة أخذ الرهن والسبى والغنائم التى ابتدعها حسان بن النعمان وتوسع فيها موسى بن نصير قد أدت إلى نمو حركة التعريب وانتشار الإسلام وأقرّت الأوضاع نهائيًا فى المغرب لصالح المسلمين، فقد كان لها آثار بالغة السوء فى نفوس البربر فأوغرت صدورهم وملأتها حقدًا على العرب وغرست فى نفوسهم بذور الثورة تلك البذور التى تعهدها كثير من الولاة بعد موسى من حيث لا يشعرون حين حرصوا على إرهاق البربر وابتزاز أموالهم وخيراتهم وقدموها للخلفاء طمعًا فى رضائهم[5]، فكان ذلك مهيئًا لانتشار المبادئ الخارجية فى المغرب تلك المبادئ

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٠.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٧٥.

(٣) د. شكرى فيصل: المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ١٨٦.
دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٦م.

(٤) د. حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ٣٩.
رسالة ماجستير - دار العلوم ١٩٦٧م.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥٢.

التي يمثل أصحابها حزب المعارضة للبيت الأموي، وسنرى عندما نستعرض عصر الولاة مدى ما لحق الإدارة الأموية ببلاد المغرب من اضطراب بسبب هذه السياسة، وأن نتيجتها الحتمية كانت انفجار الثورة في طنجة، وامتدادها إلى المغرب الأوسط ممهدة لانفصاله عن الخلافة الأموية.

(ب) عصر الولاة واضطراب أحوال المغرب

فترة هدوء في مطلع عصر الولاة

يُطلَق عصر الولاة في بلاد المغرب على الفترة الزمنية التي أعقبت استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك[1] لموسى بن نصير من الأندلس والمغرب ٩٦هـ/ ٧١٤م[2] حتى قيام الدول المستقلة بتلك الأرجاء، ولم يكن سليمان بن عبد الملك[3]. الذي تولى

---

(١) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان أبو العباس من ملوك الدولة الأموية في الشام ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ فوجّه القواد لفتح البلاد، وكان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وامتدت في زمنه حدود الدولة العربية إلى بلاد الهند فتركستان، فأطراف الصين شرقًا فبلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب والجنوب والشمال، وكان ولوعًا بالبناء والعمران فكتب إلى والي المدينة يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار وأن يعمل فوّارة، فعملها وأجرى ماءها وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار، ومنع المجذومين من مخالطة الناس وأجرى لهم الأرزاق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام وجعل لكل أعمى قائدًا يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادمًا ورتّب للفقراء أموالا وأرزاقًا. وأقام بيوتًا ومنازل يأوي إليها الغرباء، وهدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به، ثم بناه بناءً جديدًا وصفح الكعبة والميزاب والأساطين في مكة، وبنى المسجد الأقصى في القدس، وبنى مسجد دمشق الكبير المعروف بالجامع الأموي فكانت نفقات هذا الجامع ١١,٢٠٠,٠٠٠ دينار أي نحو ستة ملايين دينار ذهبي من نقود زماننا، بدأ فيه سنة ٨٨هـ وأتمه أخوه سليمان وكانت وفاته سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م من غوطة دمشق ودفن فيه ومدة خلافته ٩ سنين و٨ أشهر وكان نقش خاتمه «يا وليد إنك ميت؟؟؟» وولد سنة ٤٨هـ/ ٦٦٨م.

انظر المزيد في الكامل ٥/ ٣، تاريخ الطبري ٨/ ٩٧، بلغة الظرفاء ٢٣، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣١١ ـ ٣١٤، مروج الذهب ٢/ ١١٩ ـ ١٢٧، الذهب المسبوك ٢٩.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٦٤.

(٣) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان أبو أيوب الخليفة الأموي. وُلد في دمشق سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ وكان بالرملة فلم يتخلف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين وأحسن إلى الناس، وكان عاقلًا فصيحًا طموحًا إلى الفتح جهز جيشًا كبيرًا وسيّره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان وكانتا في أيدي الترك وتوفي في دابق من أرض قيسرين بين حلب ومعرة النعمان سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م، وكانت عاصمة دمشق، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أيامًا.

الخلافة بعد الوليد راضيًا عن موسى بن نصير[1] وسياسته فى المغرب، فعزله وولى مكانه محمد بن يزيد القرشى[2] سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م[3].

انظر المزيد فى: الكامل ٥/ ١٤، تاريخ الطبرى ٨/ ١٢٦، فوات الوفيات ١/ ١٧٧، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٣٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٧٤، مروج الذهب ٢/ ١٢٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣١٤ـ ٣١٥.

(١) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمى بالولاء أبو عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادى القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية ونشأ موسى فى دمشق وولى غزو البحر لمعاوية فغزا قبرص وبنى بها حصونًا. وخدم بنى مروان ونبه شأنه وولى لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة فى عهد الحجاج، وغزا إفريقية فى ولاية عبد العزيز بن مروان، ولما آلت الخلافة إلى الوليد ابن عبد الملك ولّاه إفريقية الشمالية وما وراءها من المغرب سنة ٨٨هـ فأقام فى القيروان ووجه ابنيه عبدالله ومروان فأخضعا له مَنْ بأطراف البلاد من البربر. واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثى على طنجة وكان قد فتحها وأسلم أهلها وأمره بغزو شواطئ أوربة، فزحف طارق بقوة قيل عددها ١٩٨٨ بربريًا ونحو ٣٠٠ عربى من حامية طنجة فاحتل سنة ٩٢هـ جبل كلبى Calpe الذى سُمِّى بعد ذلك جبل طارق وصد مقدمة الإسبانيين وكانوا بقيادة تدمير وعلم الملك روذريق بهزيمة تدمير فحشد جيشًا من القوط والإسبانيين الرومانيين يناهز عدده أربعين ألفًا وقابل طارقًا على ضفاف وادى لكة بقرب شرش فدامت المعركة ثمانية أيام وانتهت بمقتل روذريق بيد طارق وكتب طارق إلى موسى بما كان، فكتب إليه موسى يأمره بأن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ولم يعبأ طارق بأمره خوفًا من أن تتاح للإسبانيين فرصة يجمعون بها شتاتهم وقسم جيشه ثلاثة أقسام، وواصل احتلال البلاد فاستولى قواده فى أسابيع على استبحه ومالقة وقرطبة واحتل بنفسه طليطلة دار مملكة القواط واستخلف موسى على القيروان ولده عبدالله وأقبل نحو الأندلس فى ثمانية عشر ألفا من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر، فدخل إسبانية فى رمضان سنة ٩٣هـ، سالكًا غير طريق طارق فاحتل قرمونة وأشبيلية وعددًا من المدن بين الوادى الكبير ووادى أنس ولم يتوقف إلا أمام مدينة مارثة وكانت حصينة ففقد كثيرًا من رجاله فى حصارها ثم استولى عليها وتابع إلى أن بلغ طليطلة، ولما التقى طارقًا عنَّفه على مخالفته أمره وقيل سجنه مدة وأطلقه وسيَّره معه ثم وجهه لإخضاع شرقى شبة الجزيرة وزحف هو مغربًا واجتمعا أمام سرقسطة فاستوليا عليها بعد حصارها شهرًا وتقدم طارق فافتتح برشلونه وبلنسية ودانية وغيرها، بينما كانت جيوش موسى بن نصير تتوغل فى قلب شبه الجزيرة وغربها، وهكذا تم لموسى وطارق فتح ما بين جبل طارق وسفوح جبال البرانس فى أقل من سنة وجعل موسى يفكر فى مشروع عظيم هو أن يأتى المشرق من طريق القسطنطينية بحيث يكتسح أوربة كلها ويعود إلى سوريا عن طريق شواطئ البحر الأسود فما كاد يتصل خبر عزمه هذا بالخليفة حتى قلق على الجيش وخاف عواقب الإيغال فكتب إلى موسى يأمره بالعودة إلى دمشق وأطاع موسى الأمر فاستخلف ابنه عبدالعزيز على قرطبة دار إمارة الأندلس، واستصحب طارقًا معه، ووصل إلى القيروان سنة ٩٥هـ فولى ابنه عبدالله على إفريقية ووصل إلى المشرق بما اجتمع له من الغنائم، ومات بالمدينة سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م وكان مولده سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م. انظر المزيد فى: نفح الطيب ١/ ١٠٨ ـ ١٣٤، الحلة السيراء ٣٠، وفيات الأعيان ٢/ ١٣٤، جذوة المقتبس ٣١٧.

(٢) هو محمد بن يزيد القرشى بالولاء أمير إفريقية أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام سنة ٩٧هـ واليا عليها وكانت الأندلس تابعة لها، مات سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م.

انظر المزيد فى: النجوم الزاهرة ١/ ٢٣٥ ـ ٢٤٥، الكامل ٥/ ٨ و٣٨، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٨، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٧.

ولم يتوانَ محمد بن يزيد والي المغرب الجديد في تنفيذ تعليمات سليمان بن عبد الملك الصارمة بتتبُّع آل موسى بن نصير واستئصال أموالهم التي جمعوها من البربر، حتى إنه قبض على عبدالله بن موسى بن نصير وسجنه، وعهد إلى خالد بن أبي حبيب بقتله والتخلص منه[1].

ولعل هذه الخطوة من جانب محمد بن يزيد ـ الذي كان يتصف بالعدل وحسن السيرة ـ قد خلقت ارتياحًا عامًا لدى البربر ونعموا بالهدوء والأمن والعدل وحسن السياسة. ويذكر ابن عذارى أن محمد بن يزيد كان «يبعث السرية إلى ثغور إفريقية[2]، ويقسم ما تعود به من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئًا منها، ولابد أن ذلك أدى إلى كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام[3]. ولكن ولاية محمد بن يزيد لم تدم طويلا فبوفاة سليمان بن عبد الملك استعمل عمر بن عبد العزيز[4]» تابعيًا جليلًا هو إسماعيل بن عبدالله أبي المهاجر دينار[5] سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م[6]، وقد شهد المغرب جهودًا عظيمة لهذا الوالي الجديد، فقام بتطبيق سياسة عمربن عبد العزيز المالية التي كان هدفها تخفيف الأعباء المالية عن المسلمين من أهل البلاد، فميَّز أرض الصلح عن أرض العنوة، وألغى ما كان متبعًا من بيع أبناء لواته من البربر في

---

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٧.

(١) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٧.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٨٩.

(٤) هو أمير المؤمنين والإمام العادل روى عن أنس وصلى أنس خلفه، وقال: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى، وروى عن الربيع بن سبرة والسائب بن زيد وسعيد ابن المسيب وجماعة. وعنه ابناه عبدالله وعبد العزيز وأبو سلمة بن عبد الرحمن والزهري وهما من شيوخه. قال ابن سعد: كان ثقة مأمونًا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثًا كثيرًا، وكان إمام عدل، ملك سنتين وخمسة أشهر وخمسة عشر يومًا، ومات يوم الجمعة لعشر بقين من رجب سنة ١٠١هـ.
انظر المزيد في: النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٦، العبر ١/ ١٢٠، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٩٣، طبقات الفقهاء ٦٤، طبقات ابن سعد ٥/ ٢٤٢، صفوة الصفوة ٢/ ٦٣، شذرات الذهب ١/ ١١٩، خلاصة تذهيب الكمال ٢٤١، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨، تاريخ الخلفاء ٢٢٨.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٣٦.

(٦) الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٢٠٣.

خراجهم تحقيقًا لمبدأ المساواة بين المسلمين[1]. وإلى جانب ذلك حرص إسماعيل ابن عبدالله على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم على يديه عامة البربر[2]، وعاونه في ذلك عشرة فقهاء من التابعين منهم: عبد الرحمن بن نافع[3] وسعد بن مسعود التجيبي[4] وغيرهما[5].

وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم تعليم البربر وتثقيفهم بالثقافة العربية الإسلامية واستطاعوا بفضل جهودهم أن ينقلوا البربر جميعهم إلى الإسلام. ولكن فترة السلم والهدوء لم تدم طويلًا، فما لبث الأوضاع أن تبدلت عندما آلت الخلافة إلى يزيد ابن عبد الملك سنة ١٠١هـ/ ٧١٩م، وكان يزيد هذا لا يقر إصلاحات عمر بن عبد العزيز ويرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى إلى ضياع موردها من موارد الدولة وهو الجزية التي كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمة[6]، ولذا بادر بعزل إسماعيل بن عبدالله وولَّى على المغرب يزيد بن أبي مسلم[7] الذي قَدِمَ إلى المغرب سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م[8].

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٣٥.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٣٦.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٢٠٥.

(٤) الدباغ: المصدر السابق ١/ ٢٠٧.

(٥) المالكي: رياض النفوس ١/ ٦٤ ـ ٧٥، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٤٨.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٧) هو يزيد بن دينار الثقفي أبو العلاء والٍ من الدهاة في العصر الأموي، كان من موالي ثقيف وجعله الحجاج كاتبًا له فظهرت مزاياه، فلما احتضر الحجاج استخلفه على الخراج بالعراق وأقره الوليد بن عبد الملك بعد موت الحجاج سنة ٩٥هـ ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان سنة ٩٦هـ عزله وطلبه فجاء إلى الشام فحادثه سليمان فأعجبه عقله ومنطقه فاستبقاه عنده، ثم ولي إمارة إفريقية سنة ١٠١هـ، فانتقل إليها فائتمر به جماعة من أهلها فقتلوه واتُّهم بقتله عبدالله بن موسى بن نصير فقتله بشر بن صفوان الكلبي وبعث برأسه إلى يزيد بن عبد الملك فنصبت في الشام، وأبو مسلم كنية أبيه.
انظر: وفيات الأعيان ٢/ ٢٧٦، المحبر ٤٩٢، الاستقصا ١/ ٤٦، الكامل ٥/ ٣٨، النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٨، الوزراء والكتاب ١٦٩.

(٨) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٣٦، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٤٨.

سوء الإدارة العربية فى بلاد المغرب

اتخذ يزيد بن أبى مسلم فى المغرب خطوات جريئة تشبه تلك الخطوات التى اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفى[1] فى العراق، ولا عجب فى ذلك؛ فقد كان ابن أبى مسلم مولى للحجاج وصاحبًا لشرطته، بل إن ابن الأبار[2] يذكر أنه كان أخا للحجاج من الرضاعة[3] لذا فقد تشبه به فى سياسته، فأساء السيرة فى البربرة ووضع

---

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى أبو محمد قائد داهية سفاك، الخطيب وُلد سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م ونشأ فى الطائف بالحجاز وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان، فكان فى عديد شرطته ثم مازال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره وأمره بقتال عبدالله بن الزبير فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبدالله وفرّق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه فانصرف إلى بغداد فى ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط بينى الكوفة والبصرة. وكان سفاكًا سفاحًا باتفاق معظم المؤرخين، قال عبد بن شوذب: ما رُئى مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. وقال أبو عمرو ابن العلاء: ما رأيت أحدًا أفصح من الحسن البصرى والحجاج. وقال ياقوت فى معجم البلدان: ذُكر الحجاج عند عبد الوهاب الثقفى بسوء، فغضب وقال: إنما تذكرون المساوئ أو ما تعلمون أنه أول من ضرب درهمًا عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وأول من بنى مدينة بعد الصحابة فى الإسلام، وأول من اتخذ المحامل، وأن امرأة من المسلمين سُبيت فى الهند فنادت يا حجاجاه فاتصل به ذلك فجعل يقول: لبيك لبيك لبيك، وأنفق سبعة آلاف ألف درهم حتى أنقذ المرأة؟ واتخذ «المناظر» بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر متصلة بين قزوين وواسط، وأصبحت قزوين ثغرًا حينئذ، مات سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م.

انظر المزيد فى: معجم البلدان ٨/ ٣٨٢، وفيات الأعيان ١/ ١٢٣، مروج الذهب ٢/ ١٠٣ ـ ١١٩، تهذيب التهذيب ٢/ ٢١٠، تهذيب ابن عساكر ٤/ ٤٨، الكامل فى التاريخ ٤/ ٢٢٢، البدء والتاريخ ٦/ ٢٨.

(٢) هو محمد بن الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى أبو عبدالله ابن الأبار من أعيان المؤرخين، أديب من أهل بلنسية بالأندلس رحل عنها لما احتلها الإفرنجة واستقر بتونس فقرّبه صاحبها السلطان أبو زكرياء وولاه كتابة «علامته» فى صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها، وأعاده ومات أبو زكرياء وخلفه ابنه المستنصر فرفع هذا مكانته، ثم علم المستنصر أن ابن الأبار كان يزرعى عليه فى مجالسه وعزيت إليه أبيات فى هجائه فأمر به فقُتل «قعصًا بالرماح» فى تونس، له عدة مصنفات منها «التكملة لكتّاب الصلة» فى تراجم علماء الأندلس و«المعجم» فى التراجم و«الحلة السيراء» فى تاريخ أمراء المغرب و«اعتاب الكتاب» فى أخبار المنشئين و«إيماض البرق فى أدباء الشرق» وغيره، مات سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وكان مولده سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م.

انظر المزيد فى: فوات الوفيات ٢/ ٢٢٦، نفح الطيب ١/ ٦٣، أزهار الرياض ٣/ ٢٠٤.

(٣) د. حسين مؤنس: ثورات البربر فى إفريقية والأندلس ـ مجلة كلية الآداب ـ المجلد العاشر الجزء الأول ـ مايو ١٩٤٨م ص١٥١.

الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم[1]، ولم يكتف بذلك بل: «أقد موالى موسى بن نصير من البربر فوشم أيديهم وجعلهم أخماسًا، وأحصى أموالهم وأولادهم، ثم جعلهم حرسه وبطانته، وأخذ محمد بن يزيد القرشى فعذبه وجلده جلدًا وجيعًا»[2].

وقع ظلم يزيد بن أبى مسلم على البربر كالصاعقة، ومن ثم فكروا فى وضع حد لأعمال هذا الطاغية الظالم، ولم يجدوا أمامهم سبيلا غير الثورة للقضاء عليه، ويروى لنا ابن عذارى نهايته فيقول: فقام على المنبر خطيبًا فقال «يزيد بن أبى مسلم»: إنى رأيت أن أرسم اسم حرسى فى أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها فأرسم فى يمين الرجل اسمه، وفى يساره حرس ليُعرفوا بذلك من بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد، أسرع لما أمرت به، فلما سمعوا ذلك منه أعنى حرسه اتفقوا على قتله، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه فى مصلاة[3].

وحاول البربر الذين كانوا يتوقون إلى المساواة والعدل أن يخففوا من وقع الحادث على الخلافة فولوا عليهم محمد بن أوسى الأنصارى[4]، وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك يحدثونه عن دوافع ثورتهم وعن التزامهم بالطاعة قالوا: «إنَّا لم نخلع يدًا من الطاعة ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لا يرضى الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك، فكتب إليهم يزيد: إنى لم أرض ما صنع ابن أبى مسلم وأقر محمد بن أوسى على المغرب»[5]، ويبدو أن هذه الحادثة كانت سببًا فى وضع حد لحالة القلق التى كان البربر يشعرون بها، فأصبحوا يشعرون بعدها أن بإمكانهم فرض رأيهم على الخلافة ولو أدى هذا بهم إلى استعمال القوة، ولعل هذا كان سببًا فى أن بشر بن صفوان[6]

---

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٣.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٨٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٨-٤٩.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٨٩.

(٥) السلاوى: الاستقصا ١/ ٤٧.

(٦) هو بشر بن صفوان الكلبى، أمير المغرب وأحد الشجعان ذوى الرأى والحزم. ولى مصر أولاً سنة ١٠١ هـ من قِبل يزيد بن عبد الملك، ثم جاءه كتاب يزيد بتأميره على إفريقية سنة ١٠٢ هـ فخرج إليها وأقام فى القيروان وغزا صقلية وغيرها ومات بالقيروان سنة ١٠٩ هـ/ ٧٢٧.

انظر المزيد فى: الخلاصة النقية ١٣، البيان المغرب ١/ ٤٩، النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٤، تاريخ ابن عساكر ٣/ ٢٤٢، الاستقصا ١/ ٤٧، الولاة والقضاة ٦٩.

ـ الذى أقامه يزيد بن عبد الملك واليًا على المغرب بعد ذلك سنة ١٠٣هـ/ ٧٢١م ـ اصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب تهدئة لخواطرهم، وقام بمصادرة ما تبقى من أموال موسى بن نصير وعذب مواليه[١]. ونجح فى تهدئة المغرب، فسادته فترة من الهدوء لم يقطعها غير وفاته سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م عند عودته من غزو صقلية[٢].

وقد عاصر سوء الإدارة فى بلاد المغرب فى أواخر العصر الأموى انتشار التنافس البغيض بين سكانه للعرب من اليمنية والقيسية وكانت غلبة أى منهما على الآخر تتوقف على ميول الخلفاء أنفسهم. ولما كان أكثر عرب المغرب من أصل يكاد يكون يمنيًا خالصًا، فقد جرت عادتهم على التزام الهدوء حين يكون ولاتهم من اليمنيين، أما إذا كان الولاة من القيسية فإن المغرب يصبح مسرحًا لاضطرابات عنيفة مفزعة[٣]. وذلك ما حدث بعد وفاة بشر بن صفوان، إذ صادف ذلك تحول ميول الخليفة هشام بن عبد الملك عن اليمنية إلى القيسية، ومن ثم ولَّى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمى[٤] ـ وكان من غلاة القيسية ـ فقَدِمَ إلى المغرب فى ربيع الأول سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م[٥]، وما أن صارت الأمور إليه حتى اشتد فى معاملة

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٢٩٦.

(٣) رينهرت دوزى: تاريخ مسلمى إسبانيا.
ترجمة د. حسن حبشى جـ١، ١٣٤، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣م.

(٤) هو عبيدة بن عبد الرحمن بن أبى الأعز السلمى من بنى ثعلبة بن بهثة بن سليم والى إفريقية والأندلس وهو ابن أخى أبى الأعور السلمى صاحب خيل معاوية بصفين ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب بعد وفاة بشر بن صفوان فدخل القيروان سنة ١١٠هـ، ونظر فى أمر المغرب والأندلس معًا، واستمر أربع سنين وستة أشهر. قال ابن الأثير: «ثم إن عبيدة سار من إفريقية إلى الشام سنة ١١٤هـ ومعه من الهدايا والإماء والعبيد والدواب وغيرها شىء كثير واستعفى هشامًا فأجابه إلى ذلك، وعزله». وقال ابن عذارى ما خلاصته: لما دخل عبيدة إفريقية أخذ عمال بشر بن صفوان وأغرمهم وعذبهم، فأنشأ الحسام بن ضرار الكلبى أبياتًا بعث بها إلى هشام بن عبد الملك فعزله، ومات سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م. انظر المزيد فى: الاستقصا ١/ ٤٧، الكامل ٥/ ٥٤ ـ ٦٤، البيان المغرب ١/ ٥٠، النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٥.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥٠.

اليمنيين شدة لا مثيل لها فزجَّ بهم في السجون واغتصب منهم أموالا كثيرة[1]، ولقى البربر المعاملة السيئة نفسها، فسبى نساءهم، وأسرف في غزو قبائلهم، وكان لهذه السياسة الغاشمة أثرها في اعتناق البربر لمبادئ الخوارج وانتشارها بينهم[2]. بيد أن هذا الوالي غادر المغرب في شوال سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢م[3] متوجهًا إلى دمشق يحمل ما جمعه من أموال وهدايا ليقدمها إلى هشام بن عبد الملك[4]، وكان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية[5]، وهناك طلب من هشام أن يعفيه من ولاية المغرب فأعفاه[6].

عبيد الله بن الحبحاب ١١٦هـ/ ٧٣٤م

وأسند هشام ولاية المغرب إلى عبيدالله بن الحبحاب مولى بنى سلول بن قيس[7] الذى كان واليًا على مصر. فمضى إلى بلاد المغرب بعد أن استخلف على مصر ابنه

---

(١) دوزى: تاريخ مسلمى إسبانيا ١

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٩٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥١

(٤) هو هشام بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية فى الشام. وُلد فى دمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ، وخرج عليه زيد بن على بن الحسين سنة ١٢٠هـ بأربعة عشر ألفًا من أهل الكوفة فوجه إليه من قتله وفلّ جمعه ونشبت فى أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك فيما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان واستيلاء العرب على بعض بلاده. واجتمع فى خزائنه من المال ما لم يجتمع فى خزانة أحد من ملوك بنى أمية فى الشام، وبنى الرصافة على أربعة فراسخ من الرقة غربًا، وهى غير رصافتى بغداد والبصرة، وكان يسكنها فى الصيف وتوفى فيها سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م وكان مولده سنة ٧١هـ/ ٦٩٠م، وكان حسن السياسة، يقظًا فى أمره يباشر الأعمال بنفسه من كلامه «ما بقى علىَّ من لذات الدنيا إلا أخ أرفع مؤنة التحفظ بينى وبينه». انظر المزيد فى: الكامل ٥/ ٩٦، تاريخ الطبرى ٨/ ٢٨٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣١٨، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٥٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٨٠ ـ ١٣٨، مروج الذهب ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٥، الذهب المسبوك ٣٤، تاريخ الإسلام ٥/ ١٧٠ ـ ١٧٢.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٢.

(٦) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٣.

(٧) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ٤٠.

القاسم[1]، وقد تمتع هذا الوالي بثقافة عالية أشار إليها كثير من المؤرخين أمثال ابن عذارى الذي وصفه بقوله: «هو مولى بني سلول، وكان رئيسًا نبيلًا وأميرًا جليلًا بارعًا في الفصاحة والخطابة، حافظًا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها»[2]، وما أن تسلم ابن الحبحاب ولايته حتى قسمّها بين بنيه وأنصاره فاستعمل على الأندلس «عقبة بن الحجاج السلولي»[3] واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل ثم عمر بن عبدالله المرادي[4]. واتبع عبيد الله في المغرب سياسة قوية متشددة مع البربر ولم يكن هدف هذه السياسة بسط سلطان العرب وتقوية شأنهم في بلاد المغرب بقدر ما كان هدفها الرغبة في إرسال الأموال والهدايا والطرف إلى الخلافة التي كانت تواجه ارتباكًا ماليًا خطيرًا في ميزانيتها وقد أدت هذه السياسة بعبيد الله إلى منزلق خطير؛ حيث استباح لنفسه هو وعماله جمع الأموال من البربر بطرق غير مشروعة ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن والي طنجة عمر بن عبدالله المرادي كما يروي المؤرخون أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعُشر، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخُمسون من لم يُجب للإسلام[5].

وكان ذلك تطورًا خطيرًا في سياسة الإدارة العربية في بلاد المغرب، الأمر الذي دفع البربر إلى إرسال لجنة من شيوخ القبائل المغربية لتقصي الحقائق عند الخليفة الأموي في دمشق واستطلاع رأيه قبل أن يندفعوا في أي عمل من أعمال العنف التي

---

(1) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٤.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق ٤/ ٤٠٥.

(3) هو عقبة بن الحجاج السلولي أمير كان من أشراف بني سلول، دخل الأندلس سنة ١١٦ أو ١١٧ واليًا عليها من قِبل عبيد الله بن الحبحاب أمير مصر وإفريقية وما والاهما في أيام وهشام بن عبد الملك، فأقام مجاهدًا فاتحًا حتى بلغ أربونة وفتح معها جليقية وبنبلونة، وكان إذا أسر الأسير لا يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويقبح له عبادة الأصنام، فأسلم على يده بهذه الطريقة أكثر من ألف رجل: واختلف المؤرخون في نهاية عهده، فقيل استشهد ببلاط الشهداء، وقيل ثار به أهل الأندلس بتحريض عبد الملك بن قطن فخلعوه سنة ١٢٣هـ مات بعد سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م. انظر المزيد في: نفح الطيب ٢/ ٦٩٧، الكامل ٥/ ٩٢، جذوة المقتبس ٣٠١، البيان المغرب ٢/ ٢٩، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١١٩.

(4) المقري: نفح الطيب ٢/ ٦٩٧ ـ ٦٩٨.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥١ ـ ٥٢.

طالما زيَّنها لهم الخوارج الذين نشروا مبادئهم آنذاك فى أنحاء المغرب وألحُّوا فى إقناع البربر بأن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه وأن الخليفة هو الذى يكرههم على امتصاص دم الرعايا[1]. وقد شرح الطبرى هذه الحقيقة المهمة شرحًا وافيًا حيث قال «فما زال أهل المغرب من سمح أهل العراق «أى الخوارج» واستشاروهم، قالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، ولا نحمل ذلك عليهم فقالوا: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقالوا: لا نقبل هذا حتى نخبرهم، فخرج ميسرة المضغرى فى بضعة عشر إنسانًا حتى قَدِمَ على هشام، فطلبوا الإذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرشى ـ وزير هشام بن عبد الملك ـ فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين بأن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصبنا نقلهم دوننا، وقال: هم أحق به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا، وإذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخَّر جنده فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد للجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم.. ثم إنهم «أى الولاة» عمدوا إلى ماشيتنا، فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة فى جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة فنحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا. قال الأبرشى: نفعل. فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم فى رقاع ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا: هذه أسماؤنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه»[2]. وعلى أثر عودة الوفد اندلعت نيران الثورة المحلية فى بلاد المغرب حيث كان يدعو لها إذ ذاك جماعات الخوارج فى تلك البلاد.

(ج) انتشار المذاهب الخارجية بين البربر

واندلاع الثورات المحلية ضد الخلافة العباسية

فرَّ عدد من دعاة الخوارج إلى المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب هربًا من بطش الأمويين وضرباتهم، ووجدوا فى هذه البلاد مسرحًا بكرًا لنشاطهم وتربة

---

(١) يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ١٣٦ و١٦٨ – ١٦٩ و٣٣١، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٤ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠م.

صالحة لنشر مبادئهم وغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين، والثورة على الظلم فى جميع أشكاله، وحاول هؤلاء الدعاة تغيير أفكار البربر واتجاهاتهم السياسية والدينية، وكانت فرق الخوارج التى لجأت إلى المغرب من جماعات الصفرية والإباضية حيث كانت فرق الخوارج الأخرى المعروفة بالتشدد مثل الأزارقة قد تهاوت فى المشرق تحت ضربات الأمويين العنيفة.

وقد اختلف البربر فى مدى تقبلهم لهذه التعاليم فانتشرت الصفرية بين بربر القسم الجنوبى من المغرب الأقصى فى المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن، فى حين اعتنق بربر المغرب الأوسط والقسم الشمالى من المغرب الأقصى تعاليم الإباضية[1]، وإلى جانب الصفرية والإباضية كان هناك المتطرفون الغلاة من البربر الذين يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ولغتها البربرية، وظهرت هذه النزعة فى برغواطة عند أتباع صالح بن طريف الذى تسمى بصالح المؤمنين[2].

ومما ساعد على انتشار دعوة الخوارج على هذا النطاق الواسع أن دعاة الخوارج من إباضية وصفرية عندما نشروا دعوتهم ببلاد المغرب حرصوا على عدم ذكر مذهب من المذاهب وإنما نشروها تحت شعار المناداة باسم الإصلاح والعمل بالكتاب والسنة[3].

ونجح هؤلاء الدعاة فى تفجير الوضع فى بلاد المغرب فى صورة ثورات متتالية عمّت أرجاء المغرب وأنحاءه، وكانت أولى هذه الثورات ثورة ميسرة.

ثورة ميسرة

اشتهرت هذه الثورة فى التاريخ باسم قائدها ميسرة المدغرى نسبة إلى قبيلة

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٠١.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: السابق ٣٠١.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٦٧.

مدغرة التي ينتمي إليها[1]. وبعض المصادر تلقبه بالفقير[2]، أو الحقير[3]، وبعضها يلقبه بالسقاء؛ لأنه امتهن بيع الماء بسوق القيروان[4]؛ ولكن ابن خلدون يذكر أنه كان شيخًا لقبيلة مضغرة[5]، وهذا هو الأرجح؛ لأنه نجح في ضم كثير من القبائل إلى جانبه حين قام بالثورة، ويؤيد ذلك أيضًا أنه ترأس وفد شيوخ القبائل المغربية إلى الخليفة هشام بن عبد الملك[6]. ولما لم يجد وفد المغرب من الخلافة اهتمامًا ببحث مشكلات البربر ومتاعبهم، وكانوا قد تدارسوا في دمشق المنهاج الذي يسير عليه خوارج المشرق وطريقتهم، لذا فقد قرروا الخروج من المعارضة السلمية الصامتة إلى الثورة والصراع المسلح مع الخلافة وممثليها من العمال[7].

وجاء إعلان الثورة في أنسب الظروف حين خرج جيش الوالي في حملة بحرية لغزو صقلية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري[8] سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م، وعندها قامت الثورة وادّعى ميسرة الخلافة وتسمى بها وبايعه الثوار عليها[9].

وانضم إلى ميسرة في هذه الثورة "بربر مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف، كما انضم إليه الأفارقة في طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريج[10]، وانضمت إليه

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٣.

(٢) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٢.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ١٤، ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٩١.

(٥) ابن خلدون: العبر ٦/ ١١٨

(٦) ابن خلدون: العبر ٦/ ١١٩، د. حسين مؤنس: ثورات البربر في إفريقية والأندلس ١٥٦، حسن علي حسن: دولة الأدارسة بالمغرب، رسالة ما جستير ـ دار العلوم ـ ١٩٦٧؛ ص٥٠.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٥٦.

(٨) هو حبيب بن مرة أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري القرشي، قائد من الولاة ولد ونشأ بمصر، ودخل الأندلس مع موسى بن نصير وولي بها ولايات ووفد على سليمان بن عبد الملك مع جماعة يحملون رأس عبد العزيز بن موسى بن نصير ثم عاد إلى إفريقية، فولي قيادة الجيش في قتال العصاة من البربر وقُتل في إحدى معاركه سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢هـ. انظر المزيد في: تهذيب ابن عساكر ٤٠/ ٢٨، جذوة المقتبس ١٨٧.

(٩) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٥٦.

(١٠) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٠٤.

أيضًا أقوى قبائل المغرب الأوسط وهى زناتة[1]. وقد روى المؤرخون ضراوة هذه الثورة فيقول ابن عذارى «فخرج ميسرة المدغرى وقام على عمر بن عبدالله المرادى بطنجة فقتله»[2]. وتذكر الأخبار المجموعة أن الثوار «دخلوا مدينة طنجة فقتلوا أهلها ويقال أنهم قتلوا[3] الصبيان». وبعد أن سيطر ميسرة على الأمور فى طنجة ترك عليها أحد أعوانه وهو عبد الأعلى بن جريج الإفريقى واتجه إلى السوس، وهناك التقى إسماعيل بن عبيد الله[4] فهزمه وقتله[5]، وأمام هذه الانتصارات تأجج لهيب الثورة فعمت أنحاء المغرب، حيث وثب كل قوم من البربر على من يليهم فقُتلوا وطُردوا.

وأمام مفاجأة الثورة لعبيد الله بن الحبحاب حاول تجميع قواه لضرب هذه الثورة، فأرسل إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامله على الأندلس يطلب إليه مهاجمة مواقع الثوار فى طنجة؛ ولكن عقبة لم يستطع اتمام هذه المهمة وعاد أدراجه[6]، فأرسل ابن الحبحاب جيشًا بقيادة خالد بن حبيب الفهرى، وفى الوقت نفسه أرسل فى استدعاء حبيب بن أبى عبيدة الفهرى من صقلية وبعثه فى أثر خالد[7]، ولقى ميسرة خالدًا بناحية طنجة فاقتتلا قتالًا شديدًا ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتى[8] الذى التقى خالد بن حبيب ما بين وادي شلف إلى قرب طنجة[9]، وأنزل بالعرب هزيمة فادحة راح فيها كما يقول ابن

---

(١) د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر ١٧٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥٣.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) هو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى أبو عبد الحميد والٍ، كان فقيهًا فاضلاً ورعًا، وهو أحد العشرة التابعين، مخزومى قرشى بالولاء، استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويفقههم فى الدين سنة ٩٩هـ، فأسلم على يديه جمهور كبير من البربر ومات بالقيروان سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. انظر المزيد فى: معالم الإيمان ١/ ١٥٤، الاستقصا ١/ ٤٦، رياض النفوس ١/ ٧٥

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٣.

(٦) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ١٦٧.

(٧) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٥، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥٣، الكامل ٥/ ١٩٢.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٥، ابن الأثير ٥/ ١٩٢.

(٩) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥٣.

عذارى «حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها»[1]، لذا سميت هذه المعركة «غزوة الأشراف»[2]، وقد تأثر هشام بن عبد الملك لتدهور الأمور فى المغرب على هذا النحو وقال: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثنّ لهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندى»[3]. نجحت ثورة ميسرة فى فصل المغرب الأقصى عن الخلافة الأموية وأخذ سكانه من البربر يعتمدون على أنفسهم فى حل مشكلاتهم بحسب ما هم فيه من أوضاع سياسية واجتماعية ودينية، وبذا وضحت شخصية المغرب وضوحًا تامًا[4].

أما المغرب الأوسط فقد ظل مسرحًا للصراع الدامى بين قوات الخلافة التى تحاول استرداد نفوذها على أرضه بكل الوسائل، وبين ثوار البربر على اختلاف مذاهبهم.

جهود الخلافة لاسترجاع نفوذها فى المغرب

تولى أمر المغرب كلثوم بن عياض القشيرى وقَـدِمَ إلى المغرب سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م(٥) فى جيش جرار تضخم تضخمًا عظيمًا بمن انضم إليه من جند الشام ومصر وبرقة وطرابلس حتى بلغ عدده ٧٠ «سبعين ألف رجل»[6]، ولكن العصبية لعبت دورها التعس فى تحطيم صفوف هذا الجيش القوى، فالظاهر أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم على المناكيد من أهل إفريقية والمغرب الذين حطمهم البربر فى أكثر من موقعة[7]، علاوة على ذلك فإن قائد الجيش الإفريقى حبيب بن أبى عبيدة لقى الكثير من الإهانة من بلج بن بشر القيسى، ومن كلثوم بن عياض نفسه يقول ابن عبد الحكم «قَدِمَ كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضًا ثم خطب

---

(١) ابن عذارى: البيان، المغرب ١/ ٥٤.

(٢) ابن أبى: دينار المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ٤٠

(٣) ابن أبى: دينار المصدر السابق ٤٠.

(٤) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ٦٧. القاهرة ١٩٦٧م.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٦٢.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٦٢.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٦٣.

كلثوم الناس على ديدبان له، فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته»[1]. وإلى جانب هذه المعاملة السيئة التي لقيها العرب المقيمون في البلاد فإن كلثومًا استهان بقوة البربر ولم يستفد بخبرة من سبقوه بالقتال في هذا الميدان الوعر فقد أشار حبيب بن أبي عبيدة على كلثوم أن يقاتل البربر الرجالة بالرجالة والخيل بالخيل[2] فقال له كلثوم «ما أغنانا عن رأيك يا ابن أم حبيب»[3]، وهكذا أصبح جيش الخلافة على هذه الحالة من التمزق والانشقاق، فما أن دارت المعركة بينه وبين البربر عند وادي سبو حتى[4] مُني بالهزيمة الفادحة، ويصف ابن عذارى هذه المعركة وصفًا دقيقًا رائعًا فيقول: «ثم نشب القتال وقعدت البربر تحت الدرق، وناشبت الخيلُ الخيلَ وكشفت خيلُ العرب خيلَ البربر، ثم انكشفت خيلُ العرب والتقت الرجالة بالرجالة فكان صبر وقتال. وخالطت خيلُ البربر ورجالتهم كلثومًا وأصحابه فقُتل كلثوم، وحبيب بن أبي عبدة وسليمان بن أبي المهاجر ووجوه العرب، فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى إفريقية»[5]. ويذكر ابن القوطية أن خسائر العرب في هذه المعركة كانت عشرة آلاف كان من بينها كلثوم بن عياض[6].

ورغم الهزيمة التي مُني بها جيش الخلافة عند وادي سبو «بقدورة»، فقد تابعت الخلافة الأموية جهودها لوضع حد لثورة البربر الصفرية، فأرسلت حنظلة بن صفوان -والي مصر- لمباشرة هذه المهمة سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢[7]، وكان قد ظهر في هذه الآونة زعيمان من البربر هما أبو يوسف الهوارى وعكاشة بن أيوب الفزارى الصفرى، استطاع هذان الزعيمان أن ينقلا منطقة الصراع إلى بلاد المغرب الأوسط وبخاصة إقليم الزاب في شرق تلك البلاد، وكان كل منهما يتأهب للزحف على القيروان[8]،

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٥.

(٣) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٥.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٥٥.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق ١/ ٥٥.

(٦) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ٤١.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب ٢٧٢.

(٨) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣١٢.

فسار إليها عكاشة عن طريق مجانة، بينما اتجه عبد الواحد إليها عن طريق جبل باجة وتوقف عبد الواحد على بعد مرحلة من القيروان عند موضع يُعرف بالأصنام، فى حين عسكر عكاشة على بعد ستة أميال من القيروان عند موضع يُعرف بالقرن[1]. وأمام تكتل جهود الصفرية لاقتلاع القيروان من قبضة العرب رأى حنظلة أن يلقى كلًا منهما على حدة؛ لذا أرسل إلى عكاشة وأخذ يرغِّبه ويمنِّيه[2] حتى يكسب مزيدًا من الوقت يهاجم فيه عبد الواحد الذى يقف قريبًا منه عند الأصنام. وزحف حنظلة إلى عبد الواحد ومن معه «فلقيهم بالأصنام، فهزم الله عبد الواحد وجمعه، وقُتل ومن معه قتلًا ما يدرى ما هو، وهرب من هرب منهم»[3].

سار حنظلة بعد ذلك برجاله المظفرين نحو موضع القرن قبل أن يبلغ عكاشة الفزارى نبأ مصرع حليفه عبد الواحد، وانقضّ القيروانيون بكل ما عندهم من حماس النصر والقوة على عكاشة الذى أخذ من هول المفاجأة فانهزم وأصحابه[4]. ويقول ابن عبد الحكم: وهرب عكاشة حتى انتهى إلى بعض نواحى إفريقية فأخذه قوم من البربر أسيرًا حتى أتوا به إلى حنظلة فقتله[5].

وكانت الخلافة الأموية آنذاك قد دب فيها الضعف وأصابها الوهن وبدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ حيث كانت الدعوة إلى آل البيت على أشدها فى المشرق وانشغل الأمويون فى الصراع مع هذه الدعوة، وكان لذلك صداه فى بلاد المغرب التى أصبحت مرتعًا للمتغلبين عليها من الخوارج والمغامرين من ذوى النفوذ والسلطان[6]. وكان عبد الرحمن بن حبيب أحد هؤلاء المغامرين من القادة العسكريين الذين عملوا فى ميدان المغرب[7]، وقد هرب إلى الأندلس بعد أن هُزم فى بقدورة، وهناك حاول أن يصل إلى الإمارة ولكنه فشل فى مسعاه فركب سفينة حملته إلى تونس، وهناك قام

---

(١) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٧٤.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٢٩٩.

(٣) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٩.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٧٦.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٩.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٧٨.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٦٠.

بالدعوة لنفسه وعاونه فى ذلك العرب الأفارقة، والبربر الزناتيون، ويبدو أن الذى دفعه إلى ذلك أنه كان يشعر أنه زعيم العرب الأفارقة فهو ينتمى إلى أقدم بيوت العرب الفاتحين فجدُّه الأعلى عقبة بن نافع هو الذى أسس القيروان، كما ساهم أبوه حبيب وجدُّه أبو عبيدة بن عقبة بنصيب كبير فى الفتح الإسلامى للمغرب[1]. وأراد حنظلة أن يخرج لقتال عبد الرحمن بن حبيب ولكنه كره قتال المسلمين وكان رجلًا ذا ورع ودين[2] ولعله رأى أن الخلافة الأموية قد تدهورت أحوالها وأنها من الضعف بمكان يصعب معه أن تقوم بمساعدة حنظلة إن هو دخل فى صراع جديد فى المغرب، لذا قرر حنظلة أن يتنازل عن الإمارة ورحل عن القيروان إلى دمشق فى جمادى الأولى سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤[3]، وما أن صارت الأمور لمروان بن محمد واستقرت له الخلافة حتى أمَّر عبد الرحمن بن حبيب واليًا على المغرب تفاديًا للانقسامات والفتن[4]. وأصبح عبد الرحمن بن حبيب أول أمير استولى على ولاية المغرب.

واستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يظل[5] واليًا على بلاد المغرب برغم سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ وقيام الدولة العباسية؛ إذ اضطرت الخلافة العباسية إلى الاعتراف بهذا الوالى جريًا على قاعدة إمارة الاستيلاء؛ لأنها كانت فى المراحل الأولى لدعم كيانها فى المشرق[6].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٢٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٦٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٣٠١.

(٤) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٤٢ ـ بنغازى ١٩٦٧م.

(٥) رفعت فوزى عبد المطلب: الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ١١٧، القاهرة ـ ١٩٧٣.

(٦) بقيام العباسيين على عرش الخلافة الإسلامية حدث تطور مهم فى الإدارة فى المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب، وجاء هذا التطور وليد الأحداث السيئة التى سادت أواخر العصر الأموى، وقد ظهرت دلائل هذا التطور الجديد فى تطلع نفر من قادة الجيوش إلى السيطرة على مقاليد الحكم رغبة منهم فى تحقيق مطامعهم الشخصية والأسرية، وانقسم أولئك القادة إلى قسمين أحدهما جنح إلى الانفراد بالأمور دون رضاء الخلافة وهو النوع الذى أطلق عليه فقهاء المسلمين اسم «أمراء الاستيلاء» والآخر انفرد بإدارة البلاد بتفويض من الخلافة وهو ما سماه فقهاء المسلمين باسم «أمراء الاستكفاء». انظر المزيد فى: إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٧٤.

(د) انتقال مقاليد الصراع في المغرب من الصفرية إلى الإباضية

دخلت ظاهرة الثورات في بلاد المغرب في دور جديد من تاريخها عندما أخذت تنتقل مقاليد القيادة فيها من أيدى الصفرية من الخوارج إلى أيدى الإباضية من فرقة الخوارج نفسها، ويعزى السبب فى ذلك إلى أن أهل المغرب ضاقوا ذرعًا بعنف الصفرية. وظهرت بوادر ذلك التطور عندما عين عبد الرحمن بن حبيب أخاه إلياس ابن حبيب واليًا على طرابلس؛ إحساسًا منه بخطر الإباضية عليه بعد أن بايعوا عبدالله ابن مسعود التجيبى رئيس الإباضية فى طرابلس إمامًا لهم[1]. فما كان من إلياس إلا أن قتل عبدالله بن مسعود التجيبى[2]. وكان لهذا التصرف الأخرق من جانب إلياس عواقبه الوخيمة؛ إذ ثار الإباضية وأخذوا يحتشدون للثورة، وحاول عبد الرحمن بن حبيب تهدئة الأمور فعزل إلياس عن طرابلس؛ ولكن هذا الإجراء من جانب عبد الرحمن لم يَحُلْ دون ثورة الإباضية بقيادة إمامهم الجديد الحارث بن تليد الحضرمى وقاضيه ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادى[3]. واستطاع هذان الزعيمان الإباضيان أن يحرزا النصر تلو النصر على قوات عبد الرحمن بن حبيب[4]. إلا أن عبد الرحمن تمكن فى النهاية من قتلهما، ويروى ابن عبد الحكم أن خلافًا حدث بين الزعيمين الإباضيين وأنهما اقتتلا فقتل كل منهما الآخر[5]. وتولى إمامة الإباضية إسماعيل بن زيادة النفوسى، واستطاع عبد الرحمن بن حبيب القضاء عليه هو الآخر قبل أن يستفحل أمره، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم: «فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى إذا كان بقابس قَدِمَ ابن عمه شعيب بن عثمان فى خيل فلقيه إسماعيل، فقتل إسماعيل وأصحابه، وأسر من البربر أسارى كثير»[6].

---

(١) محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٢/ ٤١٠.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٣٠١.

(٣) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٤٣.

(٤) ابن عبد الحكم فتوح: مصر والمغرب ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥) يذكر محمد على ذبوز أن عبد الرحمن بن حبيب دسّ إليهما من قتلهما ثم أدخلوا فى كل واحد منهما سيفًا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليتوهم الناس أنهما تنازعا فاقتتلا فقتل كل منهما صاحبه، وقد ثار بين الإباضية خلاف شديد حول البراءة منهما أو الشك فى مقتلهما. انظر: محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٢/ ٤١٣.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٣٠٢.

ولم تهدأ الأحوال لعبد الرحمن؛ إذ واجه ثورات عديدة كان أكثر القائمين بها من بقايا الصفرية، وقد أجمل ابن عذارى هذه الثورات فى قوله «ولما ولى عبد الرحمن ثار عليه جماعة من العرب والبربر، ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصدفى فاستولى على تونس، وثار عليه عرب الساحل وقام عليه ابن عطاف الأزدى وثارت البربر فى الجبال وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها»[1]. وتمكن عبد الرحمن بن حبيب بعد جهود مضنية من قمع هذه الثورات، وساعده فى ذلك أخوه إلياس بن حبيب، وبمرور الوقت ازدادت أقدام عبد الرحمن بن حبيب رسوخًا فى إفريقية، فما أن جاءت سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٢م ـ ٧٥٣م حتى وجّه أنظاره نحو المغرب الأوسط[2]؛ إدراكًا منه أن المغرب الأوسط عصب الحياة لأى قوة سياسية تريد البقاء فى بلاد المغرب. لذا جهد عبد الرحمن فى أن يجعل هذا الإقليم المهم ضمن ولايته[3]، فغزا أرض زناتة بنواحي تلمسان[4]. وقام بعد ذلك بتأمين سواحل إمارته بغزو بحرى لكل من صقلية وسردانيه[5]. ولكن أحقاد إلياس بن حبيب دفعته إلى قتل أخيه عبد الرحمن ١٣٧هـ/ ٧٥٤م وسطا على الولاية فأخذها لنفسه[6] من حبيب بن عبد الرحمن صاحب الحق الشرعى فى هذه الولاية، وتردت الأسرة الفهرية فى صراع دموى قُتل فيه إلياس بن حبيب سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م[7].

ومضت الأمور فى البلاد من سيئ إلى أسوأ حيث لاذ إخوة إلياس ببطن من بطون بربر نفزه يقال لهم ورفجومه وكانوا من غلاة الصفرية، وهناك طلبوا من أميرها عاصم ابن جميل مساعدتهم ضد منافسهم حبيب بن عبد الرحمن، وكانت هذه فرصة عظيمة للصفرية لتحقيق أهدافهم السياسية بالاستيلاء على القيروان، وقد تم لهم ذلك فعلًا فاستولوا على القيروان سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م[8] وتمكن عبد الملك بن أبى الجعد من

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٦١.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٩٣.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٧.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٩٣.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٠٠.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٦٩.

(٨) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٣٧.

قتل حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب في المحرم من سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م[١]. وقد استفاد دعاة الإباضية من هذه الأحوال المضطربة فنشروا مذهبهم على نطاق واسع، وساعدهم على ذلك أن كثيرًا من عامة البربر رفضوا سلوك الصفرية ولم يرضوا عن التطرف الشديد الذي ترددوا فيه، فقد كانت ثورات الصفرية شرًّا مستطيرًا على البربر ومصالحهم، وقد بلغ هذا الشر مداه عندما استولت ورفجومه على القيروان بقيادة أميرها عاصم بن جميل وكان قد ادّعى النبوة والكهانة، فبدّل الدين وزاد في الصلاة، وأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الأذان[٢]. وزادت فظائع الصفرية في القيروان فاستحلّت ورفجومه المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه[٣].

وتلك ظاهرة خطيرة استغلها دعاة الإباضية في التقليل من شأن منافسيهم من الصفرية، ومن ناحية أخرى في نشر مذهبهم حتى أصبحوا القوة السياسية الوحيدة التي لا يمكن لأهل القيروان وغيرهم من البربر أن يستغيثوا إلا بها ضد أعمال الصفرية ومفاسدهم بعد أن قُضي على القوة العربية المتمثلة في آل الفهري ونجح هؤلاء الإباضية في إعادة تنظيم صفوفهم من جديد، وتولى أمر هذه المهمة حملة العلم الخمسة الذين درسوا أصول المذهب الإباضي في البصرة على يد داعية الإباضية الأكبر أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة[٤]. ويذكر الشماخي أن رجال الإباضية تشاوروا بموضع يقال له صياد في غربي مدينة طرابلس واستقر رأيهم على تولية أبي الخطاب المعافري إمامًا لهم[٥].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٣٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٠، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣١٦.

(٤) هو مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء البصري أبو عبيدة، فقيه من علماء الإباضية. أخذ المذهب عن جابر بن زيد ثم صار مرجعًا فيه تشد إليه الرحال، وكان أعور، ويقال له القفاف وكان يحرّض على الخروج وذكر شخصيًا فقال: «إن أراد الدين كما يزعم فليلحق بصاحبنا بحضرموت عبدالله بن يحيى فليقاتل بين يديه حتى يموت» وقيل له: ما يمنعك من الخروج ولو خرجت ما تخلف عنك أحد؟ فقال: ما أحب ذلك، ولو أني فعلت ما أحببت أن قيم ما بين الظهر والعصر مخافة الأحكام. انظر المزيد في: السير ٨٣، لسان الميزان ٦/ ٣٢.

(٥) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج ١٦٧

اتجه أبو الخطاب المعافري بعد مبايعته إلى طرابلس فاستولى عليها وطرد عاملها عمر بن عثمان القرشي سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م[١]، واتخذها مقرًا له، وما أن انتهى من تنظيم شئونها حتى وصلته أنباء الفظائع التي ترتكبها ورفجومه في القيروان، فقد روى ابن الأثير «أن رجلًا من الإباضية دخل القيروان لحاجة له فرأى ناسًا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهرًا والناس ينظرون فأدخلوها الجامع فترك الإباضي حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك فخرج أبو الخطاب وهو يقول: بيتك اللهم بيتك»[٢].

خرج أبو الخطاب لتحرير القيروان من ربقة الصفرية، فاستولى في طريقه على قابس وترك عليها عاملًا من قِبله[٣]، ثم توجه نحو القيروان، فالتقى الصفرية في موضع قرب القيروان يذكر البكري أن اسمه رقاده[٤]. وهناك دارت رحى معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية وفرارهم أمام أبي الخطاب الذي دخل القيروان سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م[٥] فنظم شئونها وترك عليها شخصية من أبرز الشخصيات الإباضية من حملة العلم وهي شخصية عبد الرحمن بن رستم[٦] الذي تألق نجمه في الأفق السياسي منذ ذلك الوقت فحمل لواء الفكر السياسي في المغرب الأوسط ومناطق كثيرة من أرجاء المغرب الواسعة، ونقل هذه هذا الفكر من مرحلة الدعوة والنظريات إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ في إطار أكد وجوده في بلاد المغرب تحت اسم الدولة الرستمية[٧]. وفي الوقت الذي رشحت فيه أحداث الإباضية شخصية عبد الرحمن بن رستم لتولية شئون القيروان، كانت الخلافة العباسية تدلي بدلوها في توجيه تلك الأحداث؛ إذ وجّه الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي اهتمامه لاسترداد سلطان الخلافة الإسلامية على بلاد المغرب[٨].

---

(١) الشماخي السير ١٢٦.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٦، الشماخي: السير ١٢٧.

(٣) الشماخي: السير ١٢٧ – ١٢٨.

(٤) سميت رقادة لكثرة جثث القتلى ورقادها بعضها فوق بعض. البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٢٨.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧١، العبر ٤/ ٤١٠؛ ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣١٦ – ٣١٧.

(٦) الشماخي: السير ١٢٩.

(٧) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٧٦.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤١١، وذكر النويري: أن جماعة خرجت إلى أبي جعفر المنصور منهم: عبد الرحمن

وأصدر أبو جعفر المنصور أوامره إلى محمد بن الأشعث - والى مصر - بتحريك الجيوش إلى المغرب، ويبدو أن ابن الأشعث استهان بقوة الحركة الإباضية في إفريقية؛ حيث أرسل قوة من ناحية برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلى فخرج إليها أبو الخطاب، وما أن وصل ورداسه حتى وجّه إلى هذه الحملة صحران الهوارى فلقى العوام وهزمه بأرض سرت[1].

فجهّز محمد بن الأشعث جيشًا آخر جعل عليه أبا الأحوص عمر بن الأحوص العجلى فلقيه أبو الخطاب بمغمداس ١٢٤هـ/ ٧٥٩م، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة أبى الأحوص وانسحابه إلى مصر[2]. أمام هذه الهزائم المتلاحقة أمر أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث بالتوجه إلى المغرب بنفسه بعد أن أسند إليه ولاية إفريقية[3]. ولم يكتف بذلك بل أمدَّه بالجيوش، يذكر النويرى أن عددها كان أربعين ألفًا منهم ثلاثون ألف فارس من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام[4]. ويبدو أن هذا الجيش قد تضخم حين خروجه من مصر حتى بلغ خمسين ألفًا من الجنود[5]، كان عليهم ثمانية وعشرون قائدًا[6]، منهم: الأغلب بن سالم[7]

بن زياد بن أنعم، ونافع بن عبد الرحمن السلمى، وأبو البهلول بن عبيدة، وأبو العرياض فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر، ووصفوا عظيم ما لقوه، النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٢، ق١، ورقة ١٩.

(١) الشماخى: السير ١٣٠.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧١، الكامل ٥/ ٣١٧، الكندى: الولاة والقضاة ١٠٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣١٧.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٢، ق١ ورقة ١٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣١٧.

(٦) ابن الأبار: الحلة السيراء ١/ ٦٩، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٢.

(٧) هو الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاقة التميمى، أمير من الشجعان القادة وهو جد «الأغالبة» ملوك إفريقية، وأول من وليها منهم، كان مع أبى مسلم الخراسانى حين قيامه بالدعوة العباسية، ورحل إلى إفريقية مع محمد بن الأشعث ثم ولّاه المنصور العباسى الإمارة بإفريقية سنة ١٤٨هـ فأقام فى القيروان ووطد الأمور وانصرف يريد قتال الصفرية، فبايع أهل تونس للحسن بن حرب الكندى ودخل بهم القيروان، فعاد إليه الأغلب فقاتله واستمرت الحرب بينهما إلى أن أصاب الأغلب سهم قتله بقرب تونس سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م.انظر المزيد فى: الاستقصا ١/ ٥٧، الكامل ٥/ ٢١٧، البيان المغرب ١/ ٧٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٣٩.

التميمي ومحارب بن هلال الفارسي، والمخارق بن غفار الطائي وهم نواب ابن الأشعث في القيادة.

مضى ابن الأشعث بهذا الجيش الكثيف، وكان أبو الخطاب قد تهيأ لحرب ابن الأشعث فأرسل في استدعاء عبد الرحمن بن رستم من القيروان[1]. وتذكر معظم المصادر أن خلافًا كبيرًا نشب بين جماعات الإباضية؛ حيث تنازعت زناتة وهوارة، واتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إلى هوارة وفارق بعضهم أرض المعركة[2]. يقول ابن عذاري: «ثم إن زناتة وهوارة تنازعت فيما بينهما، واتهمت زناتة أبا الخطاب في ميله مع هوارة ففارقه جماعة منهم»[3]، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضعف جبهة الإباضية رغم كثرة عددهم، فالتقى ابن الأشعث مَنْ تبقى مع أبي الخطاب واقتتلوا قتالًا شديدًا هُزمت فيه الإباضية وانتهت المعركة بمقتل أبي الخطاب سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م[4].

والشماخي المؤرخ الإباضي لا يذكر شيئًا من هذا الخلاف بين زناتة وهوارة وإنما يروى أن انصراف الجموع عن أبي الخطاب كان بسبب خدعة حربية أحكمها ابن الأشعث حول الإباضية؛ حيث تظاهر بالعودة إلى مصر، وكان الوقت وقت زرع فتفرق الناس عن أبي الخطاب إلى زروعهم وأوطانهم، فدهم ابن الأشعث الإباضية وهم على هذه الحال فهزمهم عند تورغا[5].

وصلت أنباء الكارثة التي حلَّت بالإباضية إلى مسامع عبد الرحمن بن رستم فسار بأهله إلى المغرب الأوسط، وقد حمل معه ما خفَّ من ماله تاركًا خلفه القيروان[6] التي وصلها محمد بن الأشعث في جمادى الأولى سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م[7].

---

(١) النويري: نهاية الأرب جـ٢٢، ق١ ورقة ١٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٢، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣١٧ ويبدو أن قبيلة زناتة قد تركت أرض المعركة جملة ولم تشترك في القتال، فالشماخي يروى أن القبائل التي اشتركت مع أبي الخطاب في القتال هي نفوسة وهوارة وطريشة.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٧.

(٥) الشماخي: السير ١٣١ ـ ١٣٢.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٢.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣١٥.

وتأكد لعبد الرحمن بن رستم أن نجاح الإباضية فى منطقة يسود فيها المذهب السنى، وتقاتل عنها جيوش الخلافة العباسية بضراوة شديدة أمر غير مكفول النتائج[1]، ولذلك أصبحت منطقة تاهرت فى المغرب الأوسط هى المكان الطبيعى الذى تضمن ظروفه الطبيعية والسياسية إقامة الدولة الإباضية.

(1) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٤٨.

الفصل الثانى
تأسيس الدولة

أصل الرستميين

كان انتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط إيذانًا بظهور الدولة الرستمية التى أصبحت قوة جديدة لها أثرها البالغ فى تشكيل أحداث المغرب كله، إلى نهاية القرن الثالث الهجرى. والكلام عن الدولة الرستمية[١] يقتضينا ومن الكلام عن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذى أثبت المصادر أنه فارسى الأصل، وإن اختلفت هذه المصادر فيما بينها فى تحديد طبيعة هذا الأصل الفارسى.

فالبكرى يرتفع بنسب عبد الرحمن بن رستم إلى أصل ملكى يرتبط بأكاسرة الفرس الساسانيين، فجُدُّه هو: بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بابكان بن سابور ذى الأكتاف الملك الفارسى[٢] والرواية نفسها نجدها عند ياقوت الحموى مع مزيد من الإيضاح فى الوصول بهذا النسب إلى الأصل الملكى الفارسى فهو: بهرام بن بهرام جورين شابور بن باذكان بن شابور ذى الأكتاف ملك الفرس[٣].

---

(١) يذكر السمعانى فى ضبط الاسم رستم الذى تُنسب إليه الدولة الرستمية الرُسْتَمى: بضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وفى آخرها الميم، هذه النسبة إلى رُسْتم وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه، والمشهور بهذا الانتساب جماعة من أهل أصبهان قديمًا وحديثًا. وقد ذكر الطبرى الاسم رستم بفتح التاء، ويؤيد الطبرى والسمعانى فى ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خرداذبه يقول: وفى يدى الرَّسْتَمى وهو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس. انظر المزيد فى: البلدان ٣٥٣، ابن خرداذبه: المسالك والممالك ٨٧، مروج الذهب ١/ ١٨٦، ابن عذارى: البيان المغرب ٦/ ٢٢٥ ـ ٢٤٦، السمعانى: الأنساب ٢٥٢، الطبرى: تاريخه ٤/ ٢٩٤.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٨.

أما ابن خلدون فيجعل عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس في موقعة القادسية، وقد عبر عن ذلك بقوله: وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح، وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية[1].

وعند ابن حزم الأندلسي أن بني رستم ينتمون إلى الملك الفارسي جاماسب ابن فيروز، وجاماسب هذا هو عم أنوشروان يقول «بنو رستم ملوك تاهرت من ولد جاماسب»[2].

ولا يُعقل أن يكون عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس في موقعة القادسية؛ إذ إن الأقرب إلى المعتاد من الأعمار يجعل في قبول ذلك كثيرًا من الشك؛ لأن رستم قُتل سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧م وتوفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١ هـ/ ٧٧م. فيكون عبد الرحمن قد عمَّر مائة وبضعًا وخمسين سنة ولم يذكر هذا أحد من المؤرخين[3]. أما نسبة عبد الرحمن بن رستم إلى بهرام «مولى عثمان بن عفان» فليس فيه ما يُستبعد[4] لأن يزدجرد آخر ملوك فارس كان له ابنان هما بهرام وفيروز وثلاث بنات هن: أدرك، وسها ومرادوزيد[5].

وينفرد المسعودي من بين المؤرخين برواية تقول بأن هناك من يرى أن الرستميين من بقايا الإشبان حيث يقول: «وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي وهو إباضي المذهب، وهو الذي أنشأ في ذلك البلد مذهب الخوارج وقيل إنهم الرستميون من بقايا الإشبان[6]. وقد اختلف المؤرخون في حقيقة الأشبان فيرى المسعودي أنهم من الفرس الذين انتقلوا إلى المغرب من بلاد أصبهان[7]. وله رأي آخر في هذا الشأن ذكره في كتابه «أخبار الزمان». فهم من ولد سودان بن كنعان

---

(١) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٦.

(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٥١١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ القاهرة ١٩٦٢م.

(٣) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٥. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ المجلد ٥، العدد ١ ـ ٢، ١٩٥٧م.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ١/ ١٧٧.

(٦) المسعودي: المصدر السابق ١/ ١٨٦، طبعة بيروت.

(٧) المسعودي: مروج الذهب ١/ ١٨٦.

الذين تناسلوا بالمغرب[1]. وفي ضوء هذين الرأيين للمسعودي يصبح الرستميون من سكان المغرب الأصليين الذين كانوا موجودين قبل الفتح الإسلامي للمغرب.

وقد أشار المقري في كتابه نفح الطيب إلى رأي ثالث في حقيقة الإشبان، فهم نسبة إلى ملك الأندلس إشبان بن طيطش الذي تُنسب إليه مدينة إشبيلية، وقد قيل إن إشبان هذا من عجم رومة أو إنه من أصبهان التي وُلد بها[2]، وهذا الطرف الأخير من الرواية يعني أن الإشبان من الفرس وأن الرستميين بالتالي من أصل فارسي، كما تعني هذه الرواية أيضًا أن البيت الرستمي وافد إلى المغرب من الأندلس، وقد يكون هذا صحيحًا، إلا أن ذلك يعوزه الدليل ولكن الذي يتضح من الروايات السالفة على اختلاف مصادرها أن الرستميين يُنسبون إلى أصل فارسي.

البيت الرستمي

أسفرت حركة الفتح الإسلامي في بلاد فارس، عن انتقال عدد كبير من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية، ليعيشوا ضمن المجتمع الإسلامي تحت اسم الموالي، وكان بهرام جد عبد الرحمن بن رستم من هؤلاء الموالي، إذ كان مولى لعثمان بن عفان[3] وطبيعي أن تتدخل علاقة عثمان ببهرام على هذا النحو في تحديد المدينة مكانًا طبيعيًا لإقامة بهرام، حيث يكون قريبًا من مولاه عثمان بن عفان، وبالتالي فإن رستم ولد بهرام أقام في المدينة، وتعتبر إقامة البيت الرستمي على هذا النحو في المدينة دعمًا لأركانه الإسلامية؛ حيث يحتمل أنه درج في بيت الخلافة، فنهل من فيضها الإسلامي الرفيع وغدا ذلك مهيئًا عظيمًا لشخصية عبد الرحمن بن رستم[4].

طلائع صلة البيت الرستمي بالمغرب

سلك البيت الرستمي طريقه إلى المغرب ممثلا في شخص عبد الرحمن بن

---

(١) المسعودي: أخبار الزمان ٨٧، بيروت - ١٩٦٦م.

(٢) الحميري: صفة جزيرة الأندلس ١٩ - ٢٧ تحقيق: ليفي بروفنسال، المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ١٣٤ تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٦٨م.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٨ بيروت - بدون تاريخ.

رستم، وقد حدد ابن خلدون طلائع علاقة البيت الرستمى بالمغرب بطوالع الفتح الإسلامى لهذه البلاد حين قال: قَدِمَ عبد الرحمن بن رستم إلى إفريقية مع طوالع الفتح فكان بها[1]، والمعروف أن الطوالع تتحدد تاريخيًا ببداية الفتح وتنتهى بالطوالع التى قَدِمَ بها موسى بن نصير لإتمام فتح المغرب نهائيًا وضمّه إلى الدولة الإسلامية.

وللشماخى رواية توضح الإجمال فى رواية ابن خلدون، حول طلائع علاقة البيت الرستمى ببلاد المغرب يقول: «وكان عبد الرحمن بن رستم بمدينة القيروان، وسبب وصوله إليها أن أباه رستم بن بهرام.. قَدِمَ مكة حاجًا بزوجته وابنه عبد الرحمن فمات، فتزوجت زوجته رجلًا من القيروان فأقبل مع أمه»[2].

ولم يكن عبد الرحمن بن رستم حين وصل إلى القيروان قد شبَّ عن الطوق، إذ كان فى طفولته المبكرة، والقرائن التاريخية تؤكد ذلك، فإذا عرفنا أن عبد الرحمن رحل إلى البصرة وهو شاب حدث السن[3]، بعد أن تلقى المذهب الإباضى على يد سلمة بن سعيد فى أول القرن الثانى الهجرى[4] وقارنَّا هذه الفترة بطوالع الفتح الأخيرة التى جاء فيها عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب، وصلنا بسهولة ويسر إلى أنه كان طفلًا صغيرًا حين انتقل من الحجاز إلى القيروان.

الموطن الجديد

أصبحت القيروان موطنًا جديدًا لعبد الرحمن بن رستم؛ حيث تفتحت مواهبه فى رحابها على يد فقهائها وعلمائها، فقد كانت القيروان إذ ذاك مصرًا من الأمصار الإسلامية المهمة[5] التى كانت تقف مصدرًا وحيدًا يشعُّ بالعلم والمعرفة فى بلاد المغرب كلها. وتمثل عبد الرحمن بن رستم ما استطاع تمثله من ثقافة القيروان، ولكنه مال إلى تعاليم الخوارج كما يقول ابن خلدون: «وأخذ عبد الرحمن بن رستم بدين

(١) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٦.

(٢) الشماخى: السير ١٢٤.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٩، مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية.

(٤) الشماخى: السير ١٢٣.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٨٧.

الخارجية والإباضية منهم»[1]، وكان ذلك بتأثير من سلمة بن سعيد داعية الإباضية الذى كان يجتهد آنذاك فى نشر المذهب الإباضى فى ربوع المغرب[2]، وقد حفظ الدرجينى فى طبقاته نصًا جاء على لسان عبد الرحمن بن رستم نفسه يؤكد العلاقة الوطيدة بينه وبين هذا الداعية الإباضى؛ فقد قال عبد الرحمن بن رستم: أول من جاء بطلب مذهب «الإباضية» ونحن بقيروان إفريقية سلامة بن سعيد. قال عبد الرحمن بن رستم: قَدِمَ علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس معتقين على بعير وسلامة يدعو إلى مذهب الإباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية وسمعت سلامة يقول: وددت أن لو ظهر هذا الأمر يعنى مذهب الإباضية يومًا واحدًا أو النهار إلى آخره فلا أسف على الحياة بعده فقام عبد الرحمن مجتهدًا فى طلب ذلك الأمر[3].

ويلاحَظ أن عبد الرحمن بن رستم عندما اعتنق المذهب الإباضى كما قال ابن خلدون، كان ذلك المذهب قد تطور تطورًا جعله قريبًا من مذهب أهل السنة[4]. وهو أمر كانت له دلالته فى الأسس التى شيد عليها عبد الرحمن بن رستم دولته. فهذا المذهب ينتسب إلى عبدالله بن إباض المرّى التميمى الذى يصفه الدرجينى بأنه كان إمامًا لأهل الطريق ورئيسًا لإباضية البصرة وغيرها من الأقطار[5]، ويمثل المذهب الإباضى آخر تطورات الفكر الخارجى[6]؛ لأن حركة الخوارج أخذت تلفظ بين صفوفها دعاة التطرف وتجنح إلى كثير من الاعتدال، وتجلى ذلك فى مدينة البصرة مركز هذه الحركة بالعراق. فقد تضامن أهل هذه المدينة ضد الخوارج وأخرجوا منها كل متطرف مثل نافع بن الأزرق ولم يبق بالمدينة غير اثنين هما ابن إباض وابن الصفار، وعلى ذلك انقسم الخوارج إلى قسمين، نادى أحدهما بالجهاد وهو القسم الأول المتطرف الذى انهار أمام طرقات الأمويين العنيفة، على حين ظل القسم الآخر المعتدل يتابع نشاطه فى خطى وئيدة ومضطردة، وانقسم الفريق المعتدل بدوره إلى

---

(١) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٦.

(٢) الشماخى: السير ١٢٣.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٦، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢ أ.

(٤) البغدادى: الفَرْق بين الفِرَق ١٠٣، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٠م.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٨٧.

(٦) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٦٤ ـ ١٦٥.

قسمين، مال أحدهما بقيادة ابن إباضى إلى مزيد من التسامح مع المخالفين، والآخر إلى التزامه بنوع من عدم التساهل مع المخالفين.

وتتضح أهم معالم الفكر الإباضى فى المبادئ التى نادى بها شيوخ هذا المذهب والتى شرحها البغدادى والشهرستانى على النحو التالى: فالإباضية اعتبروا أن مخالفيهم من هذه الأمة ليسوا مؤمنين ولا مشركين وإنما هم كفار بالنعم، ولذلك أجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم، واستحلوا من أموالهم والسلاح فى حالة الحرب[1]. كما اعتبروا أن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان[2] بمعنى أنها «دار المخالفين لهم» ليست أرض أعداء وإنما هى وطن للجميع من الخوارج وغير الخوارج دون تمييز، كما اعتبر علماء الإباضية مرتكبى الكبائر وجميع المقصرين فى الشئون الدينية موحدين لا مؤمنين، وقد كان هذا التمييز حدثًا مهمًا فى الحركة الخارجية؛ لأن الأزارقة اعتبروا الشرك واحدًا وطبقوه على جميع المخالفين لهم فى تطرف شديد[3]. وقد ترتب على هذه المبادئ القول بالقعود عند الإباضية وعدم محاربتهم للمخالفين والاشتراك معهم فى الحياة العامة، وبذلك أصبحت جماعة الإباضية مسالمة إلى أقصى حد وأصبح مذهبها أقرب المذاهب إلى مذهب أهل السنة[4].

على أن جماعة الإباضية لقيت الكثير من العنت والاضطهاد من جانب الأمويين فى أواخر القرن الأول الهجرى على يد الحجاج بن يوسف الثقفى[5] مما جعل أبوعبيدة مسلم بن أبى كريمة - الذى كان شيخًا للمذهب الإباضى فى أطراف الدولة الإسلامية، وعلى الأخص فى بلاد المغرب - يختار رجلا من أنشط تلاميذه وهو

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ١/ ١٣٤ - القاهرة ١٩٦٨م - تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، البغدادى: الفرق بين الفرق ١٠٣.

(٢) البغدادى: المصدر السابق ١٠٣، الشهر ستانى: المصدر السابق ١/ ١٣٤

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٦٥.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١/ ٣٠٩، د. محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى ١٣١ - القاهرة ١٩٦٠م.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٣٤.

سلمة ابن سعيد، وكان ذلك استغلالا ذكيًا من أبى عبيدة؛ فالمغرب بعيد عن مقر الخلافة الأموية فى دمشق، وهذا يهيئ للدعاة الأمان من ضربات الحكومة المركزية، كما أن أرض المغرب مازالت ميدانًا بكرًا تستطيع أفكارهم أن تصول وتجول فيه؛ لأن البربر مازالوا قريبى عهد بالإسلام، وأصبح من السهل على الدعاة أن يوجهوا سكانه إلى حيث يريدون، ومما ساعد الدعاة على التقدم فى مهمتهم سوء الإدارة العربية واضطرابها نتيجة سياسة بعض ولاة المغرب.

وأمام كل هذه الظروف نجحت الدعوة للمذهب الإباضى فى بلاد المغرب على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان[1] مما جعل البربر يتوقون إلى التعمق فى دراسة المذهب من أصوله المشرقية فكونوا بعثة علمية رحلت إلى البصرة، لقَّبوا أصحابها «حملة العلم» وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم.

حملة العلم

كانت البعثة العلمية التى سُمِّى أصحابها «حملة العلم» هى أولى الثمار الحقيقية التى جناها دعاة الإباضية فى المغرب؛ إذ إن هذه البعثة تمثل مرحلة الإعداد الفكرى للأشخاص الذين سيقومون بالتطبيق العملى لمبادئ الفكر الإباضى فى بلاد المغرب. ومن ثم كان حرص مسلمة بن سعيد على أن تُعد هذه البعثة إعدادًا خاصًا على يد أئمة المذهب فى البصرة.

واختار سلمة بن سعيد لهذه المهمة أربعة من تلاميذه المخلصين هم: عبد الرحمن ابن رستم وعاصم السدراتى وإسماعيل بن ضرار الغدامسى وأبو داود القبلى النفزاوى[2]، وراعى سلمة فى هذا الاختيار أن يكونوا من أماكن متفرقة حتى يتيحوا للدعوة الإباضية فرصة الانتشار فى أكبر مساحة ممكنة من بلاد المغرب بعد عودتهم[3]؛ فعبد الرحمن بن رستم كان من القيروان، وعاصم السدراتى من سدراتة من غرب الأوراس والمغرب الأوسط، وأبو داود القبلى النفزاوى كان ينتمى إلى

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٥٣٥.

(٢) الشماخى: السير ٩٨ و١٢٤.

(٣) على بن يحيى معمر: الإباضية فى موكب التاريخ ٢٦.

نفزاوة فى جنوب إفريقية، أما إسماعيل بن ضرار الغدامسى فهو من غدامس فى جنوب طرابلس[1]. وعندما وصلت هذه البعثة إلى البصرة انضمَّ إليها أحد دعاة الإباضية العاملين فى اليمن وحضرموت وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح[2]. ويبدو أن حملة العلم وصلوا إلى البصرة فى ظروف سياسية اقتضت من الإمام أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة أن يلقنهم العلم فى سرب على فمه سلسلة فإذا أقبل أحد حُركت فيسكنون وإذا انصرف حُركت فيأخذون فى القراءة[3]. عكفت هذه الجماعة مدة امتدت إلى خمس سنين[4]، درست خلالها المذهب الإباضى كما درس أفرادها أحوال المغرب السياسية وأنسب الأوضاع لإقامة دولة إباضية، وانتهت هذه الدراسة بترشيح أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى رئيسًا لهذه الدولة المنتظرة، يقول الدرجينى «فقالوا: يا شيخنا أرأيت لو كانت لنا فى المغرب قوة ووجدنا فى أنفسنا طاقة فنولى علينا رجلا منا؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم فإن يكن من أهل دعوتكم من العدد والعُدد ما يجب معه التولية عليكم فولوا على أنفسكم رجلًا منكم فإن أبا فاقتلوه، وأشار إلى أبى الخطاب»[5].

وأصبح حملة العلم بعد عودتهم إلى بلاد المغرب من البصرة يمثلون طلائع الرابطة الجديدة التى غدت تربط بين المغرب العربى والمشرق العربى، ورمزًا للتجاوب بين التيارات الفكرية السائدة بينهما[6].

ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الأحداث

عاد عبد الرحمن بن رستم مع زملائه حملة العلم من البصرة وأصبح أقوى مساعدى أبى الخطاب، فقد ولّاه منصب القضاء فى طرابلس[7]. وبعد استيلاء أبى

---

(١) محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ١٨٨.

(٢) الشماخى: المصدر السابق ١٢٤.

(٣) محمد على ذبوز: المرجع السابق ٣/ ١٩٥.

(٤) الشماخى: السير ١٤٢.

(٥) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٦أ.

(٦) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٦٦.

(٧) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٤.

الخطاب على القيروان سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م أسند إلى عبد الرحمن بن رستم إدارة شئونها[١] بالإضافة إلى قسم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الإباضية، يمتد من جزائر بنى مزغنه إلى وهران[٢].

ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كثب، وأن يغذى المذهب الإباضى بالكثير من الأنصار والأتباع؛ إذ رأى فى المغرب الأوسط امتدادًا يحمى الدولة الناشئة فى طرابلس، ويؤكد نظرة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وبين قبيلة لماية البترية التى كانت تسكن ذلك الإقليم[٣]. ولكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلًا فى القيروان؛ ذلك أن الخليفة العباسى المنصور أرسل قائده محمد بن الأشعث لضرب الإباضية فى المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاب، وقد تمكن هذا القائد العباسى من القضاء على أبى الخطاب سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م ودخل القيروان، ورأى هذا القائد العباسى فى عبد الرحمن بن رستم أكبر الخطر على وجود العباسيين فى بلاد المغرب، وكان عبد الرحمن بن رستم قد خرج فى جيش عظيم لدعم قوات أبى الخطاب التى زحفت لمقاومة جند ابن الأشعث، وما أن وصل هذا الجيش إلى قابس حتى بلغته أنباء بمقتل أبى الخطاب وهزيمته[٤]، فعاد مسرعًا إلى القيروان، فوجد أن الأمور قد ازدادت سوءًا فيها وأخذ أهل القيروان عامله عليه فأوثقوه فى الحديد، وولُّوا على أنفسهم عمر بن عثمان القرشى[٥]، وهكذا تبددت آمال عبد الرحمن بن رستم، ولم يكن أمامه إلا أن يفرَّ بنفسه وأهله إلى المغرب الأوسط.

---

(١) البكرى: المغرب من ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ابن عذارى البيان المغرب ١/ ٧١، ياقوت الحموى: معجم البلدان ١/ ٨١٥. ويذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان أن عبد الرحمن بن رستم كان يتولى أمر إفريقية كلها وليست القيروان وحدها.

(٢) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٦أ، د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٣٧.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/ ٢٤٧.

(٤) الشماخى: السير ١٣٢.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٢.

التجاء عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط

وجد عبد الرحمن بن رستم أن من الأسلم له ولأتباعه النجاة إلى المغرب الأوسط؛ فهناك يستطيع بفضل أنصاره وأتباعه أن يقيم دولة على المذهب الإباضي على غرار دولة أبي الخطاب في طرابلس، فخرج مستخفيًا قاصدًا المغرب الأوسط[1]، وقد أحاط كتّاب الإباضية فرار عبد الرحمن بن رستم بهالة قصصية فيها شيء من البطولة وقوة الإرادة، فقد وقع عبد الرحمن بن رستم قبل فراره من القيروان في يد عبد الرحمن بن حبيب ولكنه أطلقه بعد أن تشفع له أحد القيروانيين من ذوي المكانة عند عبد الرحمن بن حبيب[2]، ويبرر الشماخي سوء العلاقة بين عبد الرحمن بن رستم وعبد الرحمن بن حبيب بأن: ابن رستم حين أراد المسلمون تولية عبد الرحمن ابن حبيب لبعض أمورهم قال ابن حبيب إبليس أو شيطان في صورة إنسان» فحقدها عليه ابن حبيب[3]. وأيًا ما كان الأمر فقد أفلت عبد الرحمن بن رستم من قبضة عبد الرحمن بن حبيب وخرج من القيروان جادًا في المسير سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م[4]. ولم يكن معه شيء إلا ما خفّ من ماله وابنه عبد الوهاب ومملوكه وفرسه[5]. وما سار هذا الركب غير قليل حتى ماتت الفرس فدفنوها حتى لا يتبع آثارهم أحد ممن يجدُّون في طلبهم، ولما تعب عبد الرحمن من السير وأدركه الأعياء والملل صار ابنه عبد الوهاب وغلامه يحملانه بالتناوب[6] وغدًا كل منهما يقول لصاحبه: «إن ادركنا العدو فما دون الخمسمائة لا تضع الشيخ لجلدهما وشجاعتهما[7].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٣٩.

(٢) يروى الشماخي ذلك بشيء من التفصيل فيقول: «قَدِمَ ابن الأشعث وقام عبد الرحمن بن حبيب يلتمس عبد الرحمن بن رستم وفر رحمه الله إلى المغرب قال أبو يحيى: ظفر به عبد الرحمن بن حبيب فتشفع فيه رجل من أهل القيروان فقال له ابن حبيب كل حاجة لك عندي مقضية إلا ابن رستم، فقال: إن لم أسألك ابن رستم فمن ذا أسألك؟ فأطلقه له، وعبد الرحمن بن حبيب هذا حفيد عبد الرحمن بن حبيب. انظر الشماخي: السير ١٣٣، د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٣٠.

(٣) الشماخي: السير ١٣٣.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٥) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ١٥.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ٥٤٠.

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٥٤٠.

وقد سلك عبد الرحمن بن رستم فى سيره الطريق الجنوبية المارة بقسطيلية[1] إذ واصل عبد الرجمن بن رستم طريقة من جنوب نفطة محترفًا شمال وادى سوف متجهًا إلى الغرب على شمال تيفورت ومدينتى القراره وبيرريان من وادى ميزاب إلى مدينة الأغواط، ومن غرب هذه المدينة اخترق جبال بنى راشد فذهب شمالًا على شرق مدينة «آفلو» وغرب وادى شلف حتى انتهى به الطريق إلى وادى «سوفجج» وعين سوفجج التى تنبع من سفح جبل سوفجج[2]. ويؤيد هذا ما ذهب إليه الدرجينى من أن عبد الرحمن بن رستم دفن فرسته التى ماتت فى خارج جهة قسطيلية، وأن هذا الموضع سُمِّى قبر الفرس[3].

وتعتبر منطقة سوفجج التى لجأ إليها عبد الرحمن بن رستم من أمنع المناطق الجبلية فى المغرب الأوسط، فسوفجج هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال التى تمتد من مدينة «السوفر» فى الجنوب الشرقى منها[4]، وحول هذا الجبل كانت مواطن لماية ولواته وهوارة[5]، وهى قبائل كانت قوية الصلة بالمذهب الإباضى، بل إن لماية منها كانت على صلة قوية بعبد الرحمن بن رستم، لذا فقد آثر أن ينزل بين أبناء هذه القبيلة، وقد حفظ لنا ابن خلدون نصًا يؤكد هذه الحقيقة المهمة يقول ابن خلدون: «وقُتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته فى القيروان، فاحتمل أهله وولده، ولحق بإباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم»[6].

وما أن وصل عبد الرحمن بن رستم إلى سوفجج حتى سمع به وجوه الإباضية وعلماؤهم فقصدوه من كل النواحى حتى اجتمع عنده من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء، فسقط ما يزيد على ستين من أكابر العلماء وأهل الفضل والرأى[7].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٤٠.

(٢) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٢٥٦.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ١٦.

(٤) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٢٥٧.

(٥) محمد على دبوز: المرجع السابق ٣/ ٢٥٨.

(٦) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٧

(٧) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٣.

أخذت أخبار عبد الرحمن بن رستم تملأ الآفاق في المغرب الأوسط حتى وصلت إلى مسامع محمد بن الأشعث في القيروان، فجهز جيشًا سار به نحو سوفجج ونزل في سفحه وحفر خندقًا حول معسكره خوفًا من هجوم عبد الرحمن ابن رستم ومن معه عليه، وظل محاصرًا للجبل مدة طويلة حاول خلالها اقتحام الجبل بكل الوسائل ولكنه فشل[1]، واضطر إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان بعد أن تفشى داء الحمى والجدري بين جنده ومات منهم خلق كثير[2]، وانسحب إلى القيروان قائلا: «إن سوفجج لا يدخله إلا دارع ومدجج»[3].

أخذت فلول الإباضية تتجمع وتتكاثر على جبل سوفجج الذى اتخذوه مكانًا يتدربون فيه على القتال، ويستعدون لخوض المعارك التى ستواجههم[4]، واستطاع عبد الرحمن بن رستم أن يقف على قدميه أمام الأحداث ويسير بخطى ثابتة فى المغرب الأوسط، في الوقت الذى عاد بن الأشعث إلى القيروان محاولًا تثبيت أقدام العباسيين فى إفريقية، ولم يكن ذلك بالأمر الهين عليه؛ فما لبث أن واجهته ثورة الجند الخلافة ولم تنته هذه الثورة إلا بإخراجه من المغرب سنة ١٤٨هـ[5]. وخلفه الأغلب بن سالم الذى لم يسلم هو الآخر من ثورات جند الخلافة عليه، فراح ضحية سهم طائش أصيب به حينما كان يُخضع أحد الجند الثائرين وهو الحسن بن حرب الكندى[6] سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م[7].

التحالف الإباضي الصفري

ولما بلغ أبا جعفر المنصور نبأ قتل الأغلب بن سالم بعث إلى إفريقية عمر بن حفص الذى وصلها سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م، وعُرف عمر هذا بشجاعته الفائقة

(١) الشماخي: السير ١٣٣.

(٢) الشماخي: المرجع السابق.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٣.

(٤) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٨.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٣.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق ١/ ٧٣.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء ١/ ٦٩، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٥، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥٨٧.

فى ميادين الحرب والقتال حتى أنه لُقّب بهزارمرد وهى كلمة فارسية معناها ألف رجل[1]. وهدأت الأحوال فى عهده واستقامت الأمور طيلة ثلاث سنوات[2]، وقد أغرى ذلك السكون أبا جعفر فتطلع إلى بسط سلطان الخلافة على المغرب الأوسط فأمر عمر بن حفص بالتوجه إلى طبنة قاعدة إقليم الزاب لتحصينها وبناء سورها[3]. وقد أشار النويرى وابن أبى دينار إلى الكتاب الذى أرسله أبو جعفر إلى عمر بن حفص فى هذا الشأن[4] وتعتبر قاعدة طبنة المفتاح الذى يجب الاحتفاظ به للتحكم فى المغرب الأوسط، فضلًا عن أنها السبيل لاسترداد القيروان نفسها إذا ما سقطت فى أيدى الأعداء[5]. وأحس عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الإباضية بخطورة العمل الذى أقدم عليه عمر بن حفص «فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتفاض ومحاربة العباسيين»[6]. ويدل ذلك على أن الأمور كانت تسير بتنسيق تام بين جماعات الخوارج فى بلاد المغرب على اختلاف مذاهبها ومواطنها. استخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى[7]، وخرج هو إلى طبنة لتنفيذ المهمة التى كُلف بها، حينئذ ثار البربر بإفريقية وزحفوا نحو القيروان، فخرج إليهم حبيب بن حبيب المهلبى فقتلوه[8]، وفى الوقت نفسه اجتمع البربر الإباضية فى طرابلس وولّوا عليهم أباحاتهم يعقوب بن حبيب الإباضى[9] الذى ألحق الهزيمة بالجنيد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس. ولم يكتف أبو حاتم بذلك، بل تقدم وحاصرت قواته القيروان، واشترك أيضًا فى حصار عمر بن حفص المقيم بطبنة[10]. واشتعلت نيران الفتنة بإفريقية

---

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤١٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥٩٨.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٥٠

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢، ق١، ورقة ٢٠ - ٢١.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٧٨.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ٣٥١.

(٧) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤٩٨.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤١٢، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥٩٨.

(٩) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤١٢.

(١٠) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢، ق، ورقة ٢١.

وجاءتها جيوش الإباضية والصفرية من كل فج، ويُجمع معظم المؤرخين على أن هذه الجيوش بلغت اثنى عشر عسكرًا[1] «ورؤساؤهم: أبو قرة الصفرى فى أربعين ألفًا، وعبد الرحمن بن رستم الإباضى فى خمسة عشر ألفًا، وأبو حاتم فى عدد كثير وعاصم السدراتى فى عدد كثير قيل فى ستة آلاف، والزناتى فى عشرة آلاف، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجى الصفرى فى ألفين، سوى جماعات آخر»[2].

اتجهت هذه الجيوش كلها نحو الزاب لتحاصر عمر بن حفص الذى كان فى خمسة عشر ألف وخمسمائة، وانجلى الموقف عن نتائج خطيرة، فالقيروان تحاصرها القوات الإباضية وعمر بن حفص تحاصره قوات التحالف الإباضى الصفرى، وإزاء هذا جمع عمر بن حفص قواده واستشارهم فيما يفعله فأشاروا عليه بالبقاء فى طنبة وقالوا: «أخرج منا من أردت إلى عدوك ولا تخرج أنت، فإنك إن أصبت تلف المغرب وفسد[3]». ولم يكن أمام عمر بن حفص إلا أن يعمل الحيلة لتفريق هذه الجموع فأرسل إلى أبى قرة رسولًا يغريه برشوة من المال تقدر بستين ألف درهم ليرجع عن حصار طنبة، ولكن أباقرة رفض ذلك بشدة قائلا «بعد أن سلم على الخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا»[4].

فانصرف رسول عمر بن حفص إلى أخى أبى قرة، ونجح فى مهمته وقدم إليه أربعة آلاف درهم وثيابًا ليعمل فى صرف أخيه عن حصار طنبة فأجابهم وارتحل فى الليلة نفسها عن طنبه وتبعه العسكر منصرفين إلى بلادهم، فلم يجد أبو قرة بدًّا عن اتباعهم وانسحب مضطرًا من أرض الحصار[5]. وبعد نجاح هذه الحيلة لم يعد أمام عمر بن حفص إلا أن يحطم قوة الإباضية الذين كانوا يحتفظون بقواتهم الرئيسة عند نهودة بقيادة عبد الرحمن بن رستم الذى يظهر من الروايات التى ذكرها المؤرخون[6] أن عبد الرحمن بن رستم فوجئ بقوات عمر بن حفص تهاجمه بقيادة معمر بن

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٥، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥٩

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٥.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٥ - ٧٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥٩٩.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٦، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥٩٩.

(٦) الرقيق القيروانى: تاريخ إفريقية والمغرب ١٤٣.

عيسى العبدى، ورغم صغر حجم هذه القوات المهاجمة التى ذكر الرقيق القيروانى أنها كانت ألفًا وخمسمائة جندى، بينما كان عبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفًا، فقد استطاعت هذه القوة الصغيرة إلحاق الهزيمة بجيش عبد الرحمن بن رستم الكثيف، وهذا ما يؤكد تحقق عنصر المفاجأة التامة، الأمر الذى جعل خسائر ابن رستم كثيرة جدًّا، إذ قدَّرها ابن عذارى بثلاثة آلاف جندى[1]. تراجع عبد الرحمن بن رستم منهزمًا إلى إقليم تاهرت[2]، وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول بارزة فى تاريخ قيام الدولة الرستمية، فقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن ينسلخ عن قوى الصفرية المتضاربة التى لا تجمعها أهداف واحدة، وفضَّل أن يعمل بمفرده معتمدًا على نفسه وعلى التجمعات الإباضية التى تقف حوله فى المغرب الأوسط، وهكذا حمل الإباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم أعباء الصراع فى المغرب الأوسط بعد أن تراجعت قوى الصفرية.. تلك القوى التى وجدت نفسها فى مأمن هناك فى المغرب الأقصى.

مبايعة عبد الرحمن بن رستم الإمامة

كان عبد الرحمن بن رستم يحمل شخصية الداعية القوى التى تستطيع أن تستقطب حولها المؤيدين بسرعة، وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئًا عن عبد الرحمن ابن رستم فى الفترة ما بين انهزامه أمام قوات عمر بن حفص وبين مبايعته بالإمامة سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م[3]، فالذى يظهر أن عبد الرحمن قضى هذه الفترة فى تنظيم وتدعيم صفوف الإباضية، وفى الوقت نفسه قام بدعاية واسعة شملت المغرب الأوسط كله. وقد كان للموضع الجغرافى للمنطقة التى تمركز فيها عبد الرحمن بن رستم أثره فى نماء قوته، ونجاح الدعاية الواسعة التى قام بها لنشر تعاليم المذهب الإباضى؛ إذ ساعد على نجاح دعوة ابن رستم أن المنطقة التى نزلها تعتبر امتدادًا لبلاد الزاب، وأن كثيرًا من قبائلها من لواته وهوارة وزواغة ومطماطة، أصلها من أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد ـ مهد الدعوة الإباضية ـ ولقد سهَّل هذا

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٦.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٤.

(٣) الشماخى: السير ١٣٩.

الأمر مسير كثير من إباضية تلك الأقاليم إلى ابن رستم حيث أقاموا بين بنى جلدتهم فى المغرب الأوسط[1]. نجحت هذه الدعاية التى قام بها عبد الرحمن بن رستم على نحو جاوز كل تقدير، إذ كانت الركيزة المهمة التى اعتمد عليها فى دعايته هى تحقيق المساواة الكاملة والتسامح الدينى، وقد جعل ذلك الكثير من سكان المغرب الأوسط يلتفُّون حول عبد الرحمن بن رستم ويرحبون بدعوته[2]. وكان من بين هؤلاء من يعتنقون مذاهب أخرى، فقد انضمَّ إليه كثير من الخوارج الصفرية، وجماعات تسمى بالواصلية الذين اعتبرهم البكرى من الإباضية[3]، فقد كان للواصلية مجمع قريب من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفًا[4]، ورغم أن الواصلية فرقة من فرق المعتزلة فالظاهر «أن الفرقتين تحالفتا نتيجة أخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبى الكبائر «موقف المنزلة بين المنزلتين»، وأنه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الإباضية[5].

ومما دعم موقف ابن رستم أيضًا أن الإباضية فى شرق المغرب الأوسط لم يضعوا السلاح ومازالوا يناضلون فى حلبة الجهاد، يدافعون عن مبادئهم فى صبر وبلاء. وقد أدرك عبد الرحمن بن رستم أهمية استمرار النضال فى شرق المغرب الأوسط؛ إذ إن ذلك يصرف الأنظار عن جهوده التى يقوم بها لإقامة دولة إباضية، وكذلك أدركت هذه التجمعات الإباضية فى شرق المغرب الأوسط بقيادة أبى حاتم الإباضى إمام الدفاع[6]، هذه الحقيقة المهمة فأخذت ترسل المساعدات المالية لعبد الرحمن بن رستم. فكان أبو حاتم هذا يرسل ما زاد على ما يحتاج إليه مما جمع من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور[7]. ويبدو أن الأمور ظلت تسير على هذا النحو إلى أن اتسع سلطان عبد الرحمن بن رستم على نحو دفع الجميع إلى التفكير فى مبايعته وإعلان قيام الدولة الجديدة.

---

(١) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٥.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٩١ - ١٩٢.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٩.

(٤) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٩.

(٦) البرادى: الجواهر المنتقاة ورقة ١٦.

(٧) الشماخى: السير ١٣٨.

وفى موضع تاهرت القديمة[1]، انعقد مجلس ضمَّ رؤساء الإباضية وقالوا فى حوار دار بينهم «قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا الإمام نرجع إليه فى أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدى إليه زكاتنا ويقسم فيئنا» فقلَّبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة، فقال بعضهم: أنتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته؛ ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف ويقل الائتلاف[2].

من هذا الحوار تتضح الظروف التى بويع فيها عبد الرحمن بن رستم؛ إذ كان رؤساء الإباضية يتطلعون إلى شخصية فريدة بين البربر لا قبيلة تحميها إذا ما ظهر عدم صلاحيتها للحكم فيصبح من السهل عليهم تنحيتها[3]. وكان عبد الرحمن بن رستم هو تلك الشخصية التى يتطلعون إليها فقالوا: هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه، وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضيًا وناظرًا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذى أردتم وإن سار فيكم بغير العدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه[4].

وللشماخى رواية تحدد المبادئ الأساسية التى روعيت فى اختيار عبد الرحمن ابن رستم يقول فيها: فاتفق رأيهم «رؤساء الإباضية» على عبد الرحمن لفضله وكونه من حملة العلم، ولكونه عامل أبى الخطاب على إفريقية وما والاها؛ ولأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل[5].

اتجهت أنظار الجميع إلى عبد الرحمن بن رستم لهذه الأسباب مجتمعة فنهضوا

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٩.

يقول ابن الصغير: «لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم». والذى يُفهم من عبارة ابن الصغير أن تاهرت هى القديمة وأن التى استحدثها عبد الرحمن بن رستم لم تكن قد أنشئت بعد. ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٧.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٩.

(٣) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٨. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٩.

(٥) الشماخى: السير ١٤٠.

إليه بأجمعهم وقالوا: «يا عبد الرحمن رضيك الإمام فى ابتدائنا، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه فى أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا. فقال لهم: إن أعطيتمونى عهد الله وميثاقه لتستطيبوا إليّ ولتطيعونى فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم. فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم[1].

وهكذا تمت مراسم البيعة وأُعلن قيام الدولة الإباضية الجديدة، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إمامًا لها. ويسجل الدرجينى والشماخى سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م تاريخًا لهذه البيعة ثم يعودان مرة أخرى فيذكران أنها كانت سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٨م[2]، ولكن التاريخ الأول هو الأرجح؛ لأن ابن عذارى يجعل تأسيس تاهرت فى سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م[3]، والمعروف من المؤرخين أن بناء تاهرت كان بعد تقديم عبد الرحمن ومبايعته بالإمامة كما يذكر البكرى[4]، وابن الصغير[5].

بناء تاهرت

رأى عبد الرحمن بن رستم بعد أن بويع بالإمامة أن يتخذ لنفسه عاصمة يباشر منها مهام الحكم، وكان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الأمن والرخاء، لذا فقد استعان بأهل العلم والخبرة بالأرض وانضمَّ إليهم أيضًا فى هذه المهمة رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين[6]. وطافوا بجميع أنحاء البلاد يبحثون عن مكان يصلح لبناء العاصمة حتى استحسنوا موضع تاهرت، وهو على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة[7]، وجاء اختيار موقع تاهرت وليد الظروف التى واجهت الدولة الرستمية فى

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٩ ـ ١٠.

(٢) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ١٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٩٦، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٤) البكرى: المصدر السابق ٦٨.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٩، الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ١٨.

(٦) الشماخى: السير ١٣٩، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٦، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٧) Gautier, E.F., Le Posse de L'Afrique du Nord, pp. 3-6.

مطلع تأسيسها، فكان لموقعها مميزات ذات كفاءة عالية جعلتها تنهض بمسئولياتها على أمثل وجّه وتتضح مميزات تاهرت فى:

أولًا: هى بعيدة عن خطر العباسيين؛ حيث تقع فى منطقة داخلية منطوية على نفسها فى السفح الجنوبى لجبل كزول؛ لذا فهى تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل، وهذا يمثل موقعًا استراتيجيًا لحماية دولة ناشئة يحيط بها الأعداء من كل جانب[1].

ثانيًا: تقع تاهرت فى منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورون بانتمائهم القوى للمذهب الإباضى، وقد حدد البكرى على نحو دقيق هذه القبائل فقال ويقابلها «أى تاهرت» لواطه وهوارة فى قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوفيها مطماطة وزناتة ومكناسة[2]، يضاف إلى ذلك أن موقع تاهرت يعتبر امتدادًا لبلاد الزاب، وهذا يتيح لعبد الرحمن بن رستم سرعة الاتصال بالجماعات الإباضية فى أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد، مما يساعد على اتساع رقعة الدولة دون وجود عوائق طبيعية تمنع ذلك الاتساع[3].

ثالثًا: وإلى جانب الموقع الاستراتيجى، فتاهرت تقع فى منطقة غنية اقتصاديًا فهى تشتهر بمراعيها الواسعة، وثرواتها الزراعية المتنوعة، ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياة وتنوعها فى المنطقة[4]، فتجرى فيها أنهار عظيمة كنهر مينة ونهر تانس[5]، وكان لذلك أثره فى دعم اقتصاديات الدولة، وجعل من تاهرت عاصمة تجارية مهمة بين مدن المغرب الكبرى. وقد تحدث ابن حوقل عن الغنى الاقتصادى الذى تتمتع به منطقة تاهرت فقال: «وهى أحد معاون الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات[6]». وذكر

---

(١) مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار ١٧٨ تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد ـ الإسكندرية ١٩٦٨م.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧ ؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢ / ٨.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٥.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٧.

(٥) مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار ١٧٨ ، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ٨٦.

الاصطخرى أيضًا ثراء تاهرت فقال: «وهى مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه»[1].

رابعًا: تقع تاهرت في مكان يتوسط التل والصحراء[2]، وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوبية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربًا إلى المغرب الأقصى وجنوبًا إلى قلب إفريقيا عبر الصحراء الكبرى. ثم هى تشرف من موقعها هذا أيضًا على الطريق المار من منطقة التلول إلى أسفل وادى شلف المؤدى إلى البحر[3]. وأصبحت تاهرت بذلك نموذجًا للحياة التجارية القوية في بلاد المغرب.

وكشف عبد الرحمن بن رستم باختياره موقع تاهرت عن المهارة الفائقة التى تحلى بها الإباضية فى اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن، وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصاديًا وحربيًا وسياسيًا[4]. ويروى البكرى أن موضع تاهرت كان يمتلكه قوم مستضعفون من قبيلتَىْ مراسة وصنهاجة، وقد راودهم عبد الرحمن بن رستم على بيع المكان لبناء تاهرت عليه، فرفضوا ذلك الأمر ولكنهم قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على شريطة أن يؤدى إليهم خراج أسباقًا[5]، وعلى الفور شرع عبد الرحمن ابن رستم فى بناء المدينة واختار من أرض المنطقة موضعًا مربعًا لا شعراء فيه ولذلك قالت البربر نزل «تاقدمت» وتفسيره الدف ـ شبهوه بالدف لتربيعة[6].

وأضفى كتَّاب الإباضية على بناء تاهرت لونًا قصصيًا مثيرًا، فهم يروون لبنائها قصة عجيبة أشبه بقصة عقبة وبنائه للقيروان، فبعد أن اتفق الجميع على موضع تاهرت أمروا مناديًا: فنادى بأعلى صوته من بها من الوحش أن أخرجوا وارتحلوا فأنَّا مريدون عمارتها ونازلين بها وأجلوا ثلاثة أيام. قال أبو زكرياء إنهم رأو بها وحشًا تحمل أولادها فى أفواهها يعنى سباعًا والله أعلم وهى خارجة من تلك الأشجار

---

(١) الاصطخرى: المسالك والممالك ٣٤.

(٢) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٢٦٥.

(٣) إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٩٢.

(٥) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، الشماخى: السير ١٤٦، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٦.

(٦) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

والخياطيل فرغهم ذلك فيها وزادهم بصيرة فى عمارتها، فلما تم الأجل أرسلوا فيها نارًا فأحرقت ما ظهر من الأشجار[1]. ويبدو أن الأمر لم يكن يعدو أكثر من عملية تطهير للمنطقة من الأشجار بحرقها لإزالتها بسرعة، وقد دفع ذلك الحيوان إلى أن تهرع من المنطقة خوفًا من الحريق فتطرق خيال الكتاب إلى نسج هذه القصص لإحاطة المدينة بهالة من الكرامة والتبريك.

ولم يسلم البكرى من رواية مثل هذه القصص، فعبد الرحمن بن رستم والإباضية عندما نزلوا تاهرت أدركتهم صلاة الجمعة «فصلى بهم هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد فأُخذ حيًا وأُتى به إلى الموضع الذى صلّوا فيه وقُتل هناك، فقال عبد الرحمن بن رستم هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدًا»[2]، وفى موضع آخر يروى البكرى أنهم «لما أرادوا بناء تاهرت كانوا يبنون النهار، فإذا جنَّ الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدَّم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة»[3].

أما تخطيط تاهرت فقد جرى على النحو الذى اتُّبع فى بناء المدن الإسلامية الكبرى؛ بحيث تساعد على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم[4]. فاختطَّ الإباضية المسجد الجامع من أربع بلاطات واستعانوا فى بنائه بأخشاب شجر الشعراء المنتشر فى المنطقة[5]. وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والأسواق والحمامات والفنادق، وتفنن أهل تاهرت تدريجيًا فى عمارتها وتنظيمها[6]، وأحاطوا المدينة بعد ذلك بسور محكم شُيد من الصخر[7].

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ بناء تاهرت، فابن خلدون يجعل تأسيسها سنة

---

(١) الشماخى: السير ١٣٩.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٩.

(٣) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٩٣.

(٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢/ ٩ ويوضح لنا الشماخى أن اختيار المسجد الجامع تم بطريق القرعة بين أربعة أماكن استقر الرأى على أحدها. انظر: الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ١٨، الشماخى: السير ١٣٩.

(٦) البكرى: المصدر السابق ٦٧.

(٧) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٩٣.

١٤٤هـ/ ٧٦١م أي في السنة نفسها التي فرَّ فيها عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى المغرب الأوسط، يقول ابن خلدون: فأسسها «أي تاهرت» عبد الرحمن بن رستم واختطَّها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن[1]. أما ابن عذارى فقد روى ابن القطان أن بناء تاهرت الحديثة كان بعد سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م[2]، ثم عاد ابن عذارى في موضع آخر إلى تحديد تاريخ بنائها بشيء من الدقة فقال: فرَّ عبد الرحمن إلى المغرب بما خفَّ من أهله وماله، فاجتمعت إليه الإباضية وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تاهرت وهي غيضة بين ثلاثة أنهار، فبنوا مسجدًا من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم وذلك سنة ١٦١هـ[3]. وبمناقشة هذه التواريخ المختلفة نجد أن سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م التي حددها ابن خلدون لا تنسجم مع واقع الأحداث، فالمعروف أن عبد الرحمن بن رستم فرَّ إلى المغرب الأوسط في صفر سنة ١٤٤هـ[4]، وفي خلال هذه السنة وقع تحت حصار[5] محمد بن الأشعث مدة طويلة في جبل سوفجج[6] ورغم أن مدة الحصار غير معروفة فإن المتبقي من السنة لا يكفي لتجميع قوى الإباضية بحيث تفكر في بناء عاصمة تجمعهم. أما رواية ابن عذارى التي نقلها عن ابن القطان والتي قالت إن إحداث تاهرت كان بعد سنة ١٤٠هـ، ففي هذه السنة حتى سنة ١٤٤هـ كان عبد الرحمن بن رستم قاضيا في طرابلس، وعاملًا لأبي الخطاب على القيروان[7]. تبقى بعد ذلك رواية ابن عذارى الثانية وهي أن بناء تاهرت كان في سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م وهي الرواية الأرجح؛ لأنها تتفق مع سير الأحداث.

أولًا: لأن أقدم نص عن بناء تاهرت وهو عند البكري يؤكد أن بناء تاهرت كان في

---

(١) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ١٧٨ ـ تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٨.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٢٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ١٩٦.

(٥) البكري: المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ٦٨.

(٦) الشماخي: السير ١٣٣، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٣.

(٧) اليعقوبي: البلدان ٣٥٣، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧١.

أعقاب مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة. يقول البكرى: «إنه بعد اتفاق الجماعة الإباضية على إمامة عبد الرحمن بن رستم وبنيان مدينة تجمعهم نزلوا موضع تاهرت وهو غيضة على خمسة أميال غربى المدينة أى تاهرت القديمة: واختار ابن رستم موضعًا لا شعراء فيه»[1]. وإذا كانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة قد تمّت قبل بناء تاهرت تبعًا لرواية البكرى، وعلى وجه التحديد فى سنة ١٦٠هـ: وفقًا لرواية الشماخى[2]، فرواية ابن عذارى الثانية التى تقول بأن بناء تاهرت كان فى سنة ١٦١هـ هى أرجح هذه الروايات.

ثانيًا: أن عبد الرحمن بن رستم لم يكن ليربط مصيره ومصير أتباعه بالمغرب الأوسط إلا بعد أن يستنفد كل محاولاته فى العودة إلى إفريقية، وبعد أن يكون قد نظّم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الإباضى بين قبائل المنطقة، وهذا أمر طبيعى تطلب تنفيذة أكثر من خمسة عشر عامًا[3]. وقد يكون عبد الرحمن بن رستم قد ارتاد موضع تاهرت قبل تأسيسها أو أنه اتخذ من موضعها هذا معسكرًا للجماعة الإباضية، وهذا ما أدى إلى اختلاف الروايات حول تاريخ تأسيسها، وعند البكرى إشارة تدل على أن صفة المعسكر هذه ظلت لاصقة بالمدينة فترة طويلة من الزمان[4]، يقول البكرى «وسمى الموضع «أى تاهرت» معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم»[5].

مساعدة إباضية المشرق للدولة الجديدة

انتشرت أنباء الدولة الجديدة وأخبار العدل الذى سادها بفضل إمامها عبد الرحمن بن رستم الذى أحسن السيرة فى الناس وجلس فى مسجده كما يقول ابن الصغير «للأرملة والضعيف لا يخاف فى الله لومة لائم»[6] حتى صارت الإباضية تقصد إلى

---

(١) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٢) الشماخى: السير ١٣٩، البارونى: مختصر تاريخ الإباضية ٣٢.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٥.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٣٨٢ آ ٣٨٣.

(٥) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٠، الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٠.

رحاب هذه الدولة من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر حيث يطاردهم إرهاب العباسيين[1]. أما الذين لم يستطيعوا الرحيل إلى أراضى الدولة الجديدة فقد جمعوا أموالاً كثيرة خرجت من البصرة مركز الدعوة الإباضية في المشرق مع نفر من ثقات الإباضية، وقال لهم إخوانهم من أهل الدعوة في البصرة «قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلًا، وسوف يملك المشرق ويملأه عدلًا، فانهضوا إليه بما معكم من هذه الأموال حتى تردوا المدينة التي سكنها فإن كان على ما نُقل من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوها إليه وإن كان على غير ذلك فانظروا إلى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم أتونا بذلك كله»[2].

وصل وفد البصرة إلى تاهرت ودخلها من بابها المعروف بباب الصفا، وسألوا عن دار الإمام لمقابلته فلما اقتربوا منها وجدوا «عند بابها غلامًا يعجن طينًا ورجلًا على سطح يصلح شقاقًا فيه والغلام يناوله ما يصلح به فسلموا على الغلام فرد السلام ثم قالوا: هذه دار الإمام؟ فقال: نعم فقالوا له: استأذن لنا منه وأعلمه أنا رسل إخوانه إليه من البصرة، فرفع الغلام رأسه إلى سيده وقد علم أنه سمع كلامهم فقال: قل للقوم يصبرون قليلًا، ثم أقبل على ما كان عليه من إصلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون إليه وهم شاكُّون فيه هل هو صاحبهم أم لا، حتى نزل عن سطحه إلى داره فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلًا جالسًا على حصيره فوقه جلد، وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل إخوان إليه فأمر غلامه بإحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح فأمر بتلك القرص فهُشمت وأمر بالسمن فلُثّت به ثم قال: على اسم الله أدنوا وكلوا، ثم أكل معهم بأكلهم»[3].

فلما انقضى طعامهم قال: ما مرادكم؟ وما جاءكم؟ فقالوا له: نحب أن تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك. فقال: افعلوا فجلسوا نجيًّا، فقال: بعضهم لبعض: يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه

(١) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٩. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٠ ـ ١١.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١١.

وحلية بيته فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ولا نشاور أحدًا فيه وكان الذى معهم من المال ثلاثة أحمال فأجمع رأيهم على حمل المال إليه ورجعوا إليه ثم أقبلوا عليه فقالوا: «أعزَّك الله معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتنفق بها زمانك وتصلح بها شأنك»[1] وكان الوقت وقت صلاة فذهب الجميع إلى المسجد وبعد انتهاء الصلاة عقد عبد الرحمن بن رستم مجلس الشورى الذى كان يضم رؤساء القبائل لبحث أمر هذه المعونة وأنسب السبيل لإنفاقها وتوزيعها، وقرر الجميع أن يقسم هذا المال إلى ثلاثة أقسام: ثلث على الكراع وثلث السلاح، وثلث يوزع على الفقراء والضعفاء، وظل الوفد فى تاهرت حتى قسم المال وتم توزيعه على النحو الذى اتُّفق عليه[2]. وقد كان لهذه المعونة المادية أثرها الكبير فى نماء الدولة الرستمية وتقدمها؛ فقد آمنت الدولة على نفسها بما اشترته للقوم من الكراع والسلاح، وقوى الضعيف وانتعش الفقير، وأمن الجميع ممن كان يغزوهم من عدوهم لذلك «اشرعوا فى العمارة والبناء وإحياء البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك واتسعوا فى البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصى الأقطار[3]. ولم يكتف إباضية البصرة بما قدموه من أموال للدولة الناشئة: فلم تمضِ ثلاث سنوات على المساعدة الأولى حتى وصلت إلى تاهرت قافلة أخرى تتكون من عشرة أحمال من الأموال[4]، ولكن الوفد المشرقى فى هذه المرة بهرته صورة تاهرت؛ إذ خطت خطوات سريعة فى مضمار الحضارة والتقدم، فانتشرت القصور وغُرست البساتين ونُصبت الأرحاء على الأنهار، وظهرت آثار الغنى على أهلها فاتخذوا الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة، وتنوعت ألبستهم وتعددت اللغات والأزياء[5]. اجتمع الوفد بعبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى فى المسجد بعد صلاة الظهر، وكان رأى عبد الرحمن بن رستم هذه المرة أن تعاد الأموال لأن الدولة أصبحت قوية وليست فى حاجة إليها، وقال للوفد «ارجعوا بمالكم فأربابه أحوج إليه منا؛ لأنا فى

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١١ - ١٢.

(٢) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٠.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٢ - ١٣.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ١٣.

(٥) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٠.

أرض قد استولى عليها العدل وهم في بلد غلب عليهم الجور يداورون به على أنفسهم ومالهم ودينهم»[1].

وهذا يدل على أن عبد الرحمن بن رستم لم يكتف بما تحقق من استغلال أهل المذهب في تاهرت وأعمالها، بل كان يطمح إلى تحرير الجماعة الإباضية في المشرق من الحكم العباسي، وإلى انتشار المذهب الإباضي في كل دولة الخلافة[2]. وهذا ما يشير إليه كتّاب إباضية في قولهم «واعترف كل إباضي بإمامته ووصلوه بكتبهم ووصاياهم»[3]، بل إن ابن الصغير يذكر أن إباضية المشرق قد اعتبروا أن إمامة عبد الرحمن بن رستم أصبحت فرضًا عليهم منذ رد الأموال إليهم ليتقووا بها، وفي ذلك يقول: «فعند ذلك رغب القوم في إمامته ورأوا أنها فرض عليهم»[4] ويقول الدرجيني «وأقروا الإباضية بإمامته وواصلوه بكتبهم فكانت تاهرت حرزًا وحصنًا لجماعة أهل الدعوة وسُمِّيت المعسكر المبارك»[5] بل أن عدل عبد الرحمن بن رستم وما ساد دولته من الأمن والرخاء لم يجذب أهل المذهب الإباضي فقط من البلدان الأخرى، وإنما جذب أيضًا التجار وأصحاب رءوس الأموال الذين قصدوا تاهرت وحلُّوا بها من مصر وإفريقية وسائر بلاد المغرب الأخرى[6].

نجاح عبد الرحمن بن رستم في إدارة دولته

أصبح عبد الرحمن بن رستم ممثلًا لنظام حكم مثالي عملي لا نظري ملتزم بقواعد الدين الإسلامي، فالإباضية سواء في المشرق أو في المغرب لم يجدوا من خلفاء بغداد ـ رغم تمسكهم بالنسب إلى البيت النبوي ـ المثل الأعلى للحكم، ونفروا من انغماس هؤلاء الخلفاء في مظاهر الترف الفارسي وتقليد الأبهة والبلاط الفارسي[7]

---

(١) الشماخي: السير ١٤١.

(٢) الشماخي: السير ١٤١، ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين ١٣، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٢.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٨٧.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق في تاهرت ١٥.

(٥) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٠.

(٦) محمد بن تاويت: سيرة الرستميين في تاهرت ١٠٩.

(٧) د. إبراهيم أحمد العدوي بلاد الجزائر ١٩٧. Julien op. cit. p. ٢٥-٣٦.

وقد شرح ابن الصغير المالكي الذى عاصر الرستميين ملامح هذا الحكم الإسلامى المثالى في الدولة الرستمية على نحو تفصيلى فقال عنه: «وقضاته أى عبد الرحمن بن رستم مختارة وبيوت أمواله ممتلئة، وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون فى أوانى الطعام فيقبضون أعشارهم... من أهل الشاة والبعير، يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يُظلمون ولا يَظلمون. فإذا حضر جميع ذلك صُرف الطعام إلى الفقراء وبيعت الشاة والبعير، فإذا صارت أموالًا دُفع منها إلى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم، ثم نُظر فى باقى سائر المال فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من فى البلد وفيما حول البلد، ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين، فإذا علم عددهم أمر بإحصاء ما فى الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفًا وجبابًا صوفًا وفراء وزيتًا ثم دفع فى كل أهل بيت بقدر ذلك ويأتى بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه، ثم ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين، وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم فى سنتهم، ثم إن فضل فضل صرفه فى مصالح المسلمين»[1]. وكما كان عبد الرحمن بن رستم رجل إدارة على هذا النحو المثالى الذى أشاع العدل فى دولته فإنه كان رجل سياسة من طراز فريد، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته، بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولًا أن يكسب لها كل دواعى الأمن والاستقرار فاتجه عبد الرحمن بن رستم بنظره نحو سجلماسة عاصمة دولة بنى المدرار وأقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين اليسع بن أبى القاسم الذى تولى أمر الصفرية فى سجلماسة سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م[2]. ويعتبر اليسع هذا المؤسس الحقيقى لدولة بنى مدرار بسجلماسة[3]. فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن رستم مدرار بن اليسع[4]. وكان لهذا الزواج أثره فى تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفى دعم علاقة حسن الجوار بين الدولتين. وقد ذهب عبد الرحمن بن رستم فى مجال تأمين دولته إلى أبعد الحدود حيث رغب

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٥ ـ ١٦.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٥٦.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٨٤.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٤، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٥٧.

فى تقوية فرص السلام مع ألد أعداء دولته وهو الوالى العباسى فى القيروان روح ابن حاتم، فكاتبه عبد الرحمن بن رستم يطلب موادعته، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م[1] وإن كانت شروطها غير معروفة. وقد أشار ابن خلدون إلى أحداث هذه الموادعة بقوله: «ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة ١٧١هـ فى موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب فوادعه»[2]. وقد كان لهذه الاتفاقية أهميتها؛ إذ حرص روح بن حاتم على تجديدها بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم. ويقول ابن خلدون فى هذا أيضًا: «ورغب يعنى روحًا فى موادعة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبية فوادعه»[3]. واستطاع عبد الرحمن بن رستم بذلك أن يخلق حالة من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وسائر القوى السياسية الأخرى فى بلاد المغرب، فكان لذلك أثره فى تدعيم أوتاد الدولة الرستمية فأصبحت دولة قوية هابها جيرانها، وهاجر إليها الكثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس، وقصدها التجار والعلماء والكتاب ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف من كل مكان، فكان لذلك كله أثره فى ازدهار الدولة ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية، لذا فقد نَعِمَ المغرب الأوسط فى عهد عبد الرحمن بن رستم بالهدوء والأمن اللذين لم يعرفهما من قبل[4].

ويبدو أن عبد الرحمن بن رستم فى أواخر أيامه قد أصيب بمرض أحسَّ منه بدنو أجله فاقتدى بالخليفة عمر بن الخطاب فجعل الإمامة شورى بين سبعة من رجال الدولة الرستمية ممن توسم فيهم الصلاح والعلم والتقوى والورع وهم: عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسى وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنى وعمران بن مروان الأندلسى وأبو الموفق سعدوسى بن عطية وشكر بن صالح الكتامى ومصعب بن سدمان[5]، وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء السبعة بالاجتماع

---

(١) ابن خلدون: العبر ٦/ ١١٣، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٣.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ٦/ ١١٣، البارونى: المصدر السابق ٢/ ٩٣

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٩٤، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠١.

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥١.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٠، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٩، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٤ ب.

والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم[1]. ثم توفى عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١ هـ/ ٧٨٧م[2] أما ابن عذارى فيجعل تاريخ وفاته سنة ١٦٨ هـ/ ٧٨٤م[3] وارتضى هذا التاريخ الأخير زامباور فى معجمه[4]. والتاريخ الأول أولى بالصحة؛ لأنه يوافق تاريخ الموادعة بين عبد الرحمن بن رستم وروح بن حاتم الذى ذكر ابن خلدون أنه كان فى سنة ١٧١ هـ/ ٧٨٧م[5] ولأن مبايعة عبد الوهاب تمت فى السنة نفسها أيضًا.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٠.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٩٦.

(٤) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ١٠٠.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٩٤.

الفصل الثالث
تقوية الدولة الرستمية وازدهارها

١ ـ عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم موطد الدولة الرستمية ١٧١/٢١١هـ ـ ٧٨٧/٨٢٦م

(أ) مبايعته بالإمامة:

تعتبر الفترة التي أعقبت وفاة عبد الرحمن بن رستم من أحرج الفترات التي مرّت بها الدولة الرستمية؛ ولا أدل على ذلك من أن المرشحين السبعة للإمامة لم ينتهوا في فترة وجيزة من عملهم الذى كلّفهم به الإمام الراحل عبد الرحمن بن رستم وهو اختيار واحد منهم للإمامة؛ فقد استمرت اجتماعاتهم شهرًا كاملًا دون أن يتخذوا قرارًا في هذا الشأن[١]. وطالت اجتماعات القوم وكان كل منهم يُظهر عزوفه عن منصب الإمامة كما يقول الشماخي، حتى أجمعوا رأيهم على اختيار أحد اثنين: مسعود الأندلسي أو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثم مال أكثر المرشحين للإمامة والعامة معهم إلى تولية مسعود الأندلسي[٢]، ويبدو أن الذى دفعهم إلى ذلك أحد أمرين:

أحدهما: أن مبدأ الإباضية كان يقضي الالتزام بالشورى دون الوراثة. والآخر: أن مسعود الأندلسي كان أعلم من عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم[٣].

غير أن مسعود الأندلسي اختفى عن الأنظار يوم البيعة؛ زهدًا منه في تولى هذا

---

(١) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٤ ب، الشماخي: السير ١٤٥.

(٢) الشماخي: المصدر السابق ١٤٥.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥١.

المنصب الخطير، وقد زاد ذلك من فرصة تولي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم للإمامة. لأنه كان الشخصية الثانية بعد مسعود الأندلسي في نظر الجميع. يضاف إلى ذلك أنه كان يتمتع بأنصار أقوياء يدعمون موقفه في هذه المعركة الانتخابية، فقد انحازت قبيلة زناتة إلى عبد الوهاب؛ لأنه أمه كانت من يفرن وهي فرع من زناتة[1] كما انحازت إليه أيضًا جماعات الفرس الذين كانوا يكونون جالية قوية لا بأس بها في دولة الرستميين[2]. ولما يئس الجميع من البحث عن مسعود ابتدروا عبد الوهاب لمبايعته بالإمامة، وما أن سمع مسعود بذلك حتى ظهر إلى مجتمع الناس ليكون في مقدمة المبايعين لعبد الوهاب. ولكن جدلًا خفيفًا حدث في أثناء البيعة، فقد قام أبو قدامة يزيد بن فندين خطيبًا فقال: «إنَّا نقدم إليك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو ألا تقطع أمرًا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه»[3]، وكان يزيد يطمع من وراء ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الجماعة بعد أن فشل في الحصول على منصب الإمامة وسارع مسعود الأندلسي بالرد عليه قائلا: «ما سمعنا بهذا، وما علمنا أن في الإمامة شرطًا غير أن يحكم الإمام بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين قبله»[4]، وكان الجميع يؤيدون رأي مسعود ويقفون ضد يزيد بن فندين وجماعته التي أيدت رأيه، وفي ذلك يقول الشماخي: «فسكت يزيد عن ذكر الشرط حين رد عليهم المسلمون»[5].

وكان مسعود الأندلسي أول من بايع عبد الوهاب وتتابع من ورائه الحاضرون، ثم بايعه المسلمون بعد ذلك بيعة عامة حملوه بعدها إلى دار الإمامة في موكب حافل امتلأت به طرقات تاهرت، وهكذا تمت البيعة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بموافقة الجميع، حتى هؤلاء الذين أرادوا وضع شرط للإمامة[6].

---

(١) الشماخي: السيرة ١٤٥، محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٣ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد.

(٢) محمد بن تاويت: الصحيفة السابقة ١١٣.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٠، الشماخي: السير ١٤٥.

(٤) الشماخي: السير ١٤٥.

(٥) أبو زكريا: السيرة أخبار الأئمة ورقة ١٤ ب.

(٦) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٠.

(ب) شخصية الإمام الجديد:

تولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منصب الإمامة سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م وكان آنذاك في الثانية والخمسين من عمره[1]، وقد قضى عبد الوهاب أغلب هذه السنين إلى جوار والده عبد الرحمن بن رستم يقاسمه فيها حلو الحياة ومرَّها. ورغم أن المصادر لم تذكر الكثير من التفاصيل عن حياة عبد الوهاب قبل توليه منصب الإمامة فإن الذي لا شك فيه أنه كان إلى جانب والده في كل جهوده السياسية والحربية التي قام بها لتأسيس دولة إباضية، وأنه عاش مع والده عبد الرحمن بن رستم في القيروان أيام ولايته عليها من قِبل أبي الخطاب. ومما يؤيد ذلك ويدعمه أن عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان إلى المغرب الأوسط لم يكن معه غير ولده عبد الوهاب وغلام لهما، وضرب عبد الوهاب في أثناء هذه الرحلة الشاقة المضنية مثلًا رائعًا في القوة والشجاعة، للمحافظة على والده عبد الرحمن بن رستم حتى وصل هذا الركب الصغير إلى جبل سوفجج، وكان عبد الوهاب ضمن من حوصروا في الجبل وذاقوا مرارة الحصار وأعبائه.

جمع عبد الوهاب من كل هذه السنين خبرة واسعة بفنون السياسية والإدارة والحرب، واكتسب من والده: قوة الشخصية، متانة الشكيمة، فهو شخصية صقلتها ونمَّتها الأحداث حتى إذا جاء دورها انطلقت تساهم في صنع هذه الأحداث على نحو هو أحسن ما يُقبل منها. وفوق هذا وذاك، تمتع بين سائر أقرانه بمكانة علمية تكوَّن رصيدها الهائل لديه على يد اثنين من حملة العلم، أحدهما والده عبد الرحمن بن رستم والثاني أبو داود القبلي[2]. ويضاف إلى ذلك أنه تمتع ببعض الصفات الجسمية التي تكسب صاحبها الهيبة وتُضفي عليه الكثير من قوة الشخصية فقد كان ضخما ممتد القامة، وقد عبر عن ذلك الشماخي فيما نقله عن أبي زكرياء من أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كانت له مصلى «بتلالت، وفي موضع من المصلى هذه بلاطة كان الإمام عبد الوهاب يتكيء عليها إذا قعد مساويًا بها رأسه، وهذه البلاطة اليوم تحاذي رأس الواقف[3]. استطاع عبد الوهاب بفضل هذه المميزات المتعددة لشخصيته أن يحتفظ بمركزه إمامًا يقود دفة الأحداث في الدولة الرستمية التي كانت

---

(١) الشماخي: السير ١٥٩.

(٢، ٣) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢٣أ.

الجبهة الداخلية فيها تغلي بأزمات انفجرت تباعًا، وحتى يتفرغ عبد الوهاب لتأمين هذه الجبهة الداخلية في دولته رأى أن يجدد فورًا وبسرعة اتفاقية الموادعة التي تمت بين والده عبد الرحمن بن رستم وروح بن حاتم أمير القيروان، والتي رغب روح بن حاتم نفسه في استمرارها[1].

(جـ) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وتأمينه الجبهة الداخلية

أولًا: تزعم يزيد بن فندين - وهو أحد الذين رشحهم عبد الرحمن بن رستم لمنصب الإمامة - تيار المعارضة ضد الإمام عبد الوهاب، وذلك سنة ١٧١ هـ/ ٧٨٧م، وهي السنة نفسها التي تولى فيها عبد الوهاب منصب الإمامة برضا العامة والخاصة، ويزيد ابن فندين هذا ينتمي إلى بني يفرن وهم فرع قوي من قبيلة زناتة البترية، ويُرجع بعض كتَّاب الإباضية[2] أسباب خروج يزيد بن فندين على الإمام عبد الوهاب إلى أسباب شخصية، فيزيد أخفق في وصول إلى منصب الإمامة رغم أن عبد الرحمن بن رستم جعله من بين المرشحين السبعة لهذا المنصب، ومما زاد الأمر سوءًا أن عبد الوهاب لم يُسند إليه بعد توليه الإمامة منصبًا من مناصب الدولة كان يزيد يتطلع إلى توليتها. ومما ساعد يزيد على ذلك تلك الخلافات التي ظهرت في مطلع عهد عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم والتي ترجع إلى أن بعض زعماء الإباضية راعهم تحوُّل إمامتهم إلى ملك وراثي في أبناء عبد الرحمن بن رستم[3].

ولكن الذي يبدو أن سياسة الإمام عبد الوهاب ومبادئه الصارمة في الحكم وتمسكه بها إلى درجة التشدد، دفعته إلى أن يعهد بالمناصب إلى من يعرف فيه العزوف عنها، ويُبعد عن تلك المناصب الطامحين إليها، وهو الأمر الذي سيثير عليه سخط أصحاب المطامع. وقد أوضح الدرجيني هذه الحقيقة حين قال: فأما سبب افتراق الإباضية فيما ذكر غير واحد من أصحابنا فهو أن عبد الوهاب - رحمه الله

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٩٤، القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب ١٧٣، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠١.. GAutier, op. Cit, p. 303

(٢) أبو الربيع الباروني: مختصر تاريخ الإباضية ٣٤، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٢، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٥ أ.

(٣) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الحركات السرية في الإسلام - رؤية ٢٦ عصرية - دار العلم - بيروت ١٩٧٣م.

ـ لما ولي المسلمين استعمل على ولايته كلها أهل الورع والزهد، وكل من علم أنه ليست له رغبة في الولاية، واستعان على ما قلده الله من أمور المسلمين بأهل العلم والبصاير في الدين»[1]. عملت هذه السياسة على اتساع الهوة بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والطامعين في السلطان من خصومه[2]، وخاصة يزيد بن فندين الذي نهض مثيرًا للفتنة بتاهرت، وأخذ يجمع حوله الأنصار والمؤيدين، واتخذ لذلك شتى الوسائل لإقناعهم بوجهة نظره، فأشاع أن عمال الإمام ليسوا على قدر كبير من الكفاءة والدراية لتدبير شئون الدولة، وأنه هو وأتباعه أولى بهذه المناصب[3]. وجدد ابن فندين وأتباعه الدعوة إلى وجود جماعة معلومة لا يقطع الإمام أمرًا دون الرجوع إليها[4].

وتدرج ابن فندين من ذلك إلى إنكار إمامة عبد الوهاب وإعلان فساد البيعة من مبدئها بدعوى أن في المسلمين من هو أكثر منه علمًا. ويحدثنا الشماخي عن الطريقة التي كان يتبعها يزيد بن فندين وأتباعه لإقناع الناس برأيهم فيقول عنهم: «وخادعوا الناس بأقوالهم واضطربوا فإذا لقوا من لا بصيرة له في الدين قالوا: شرطنا أن لا يقطع أمرًا ولا يقضي دون جماعة معلومة، وإذا خلوا بإخوانهم قالوا: قدم علينا من نحن أولى منه بالتقديم وقد ولّيناه الأمر على أن يقدمنا ويرفع درجتنا فأخّرنا، وإذا لقوا الضعفاء قالوا: لا تجوز إمامة رجل إذا كان في المسلمين من هو أعلم منه، فأفشوا القيل والقال وارتحلوا خارج المدينة وإلى الجبال ليمكنوا من قارب الضعفاء ومن لا بصيرة له ولتتم كلمتهم»[5].

أدت هذه الأحداث إلى انقسام مذهبي خطير داخل الجماعة الإباضية في المغرب الأوسط فأصبح هناك النُكّار وهم أتباع يزيد بن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب، أما جمهور الإباضية بالمغرب الأوسط وهم مؤيدو عبد الوهاب فسُمُّوا

---

(١) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢١ أ.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٨٩.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢١ أ، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٢.

(٤) الشماخي: السير ١٤٦، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢١.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٦.

بالوهابية نسبة إلى الإمام عبد الوهاب[1]، وانسلخ النُّكار عن مجتمع تاهرت وأصبح لهم مكان خاص بهم خارج تاهرت عُرف بـ«كُدية النُّكَّار»[2].

ظل عبد الوهاب يراقب خصومه بحذر شديد، وفي تلك الأثناء دبر يزيد بن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، والتخلص منه نهائيًا، فعمد ابن فندين وأتباعه إلى وضع رجل مسلح داخل صندوق مغلق، وتظاهر رجلان من أتباع ابن فندين بأن بينهما خلافًا حول هذا الصندوق وأن كلًّا منهما لا يأمن صاحبه عليه وأنهما يريدان الاحتفاظ به عند الإمام حتى ينتهي ما بينهما من خلاف، واتفق القوم مع صاحبهم الذى بداخل الصندوق على أن ينهض فى الليل فيقتل عبد الوهاب، وعندما يتمكن من ذلك يؤذن لصلاة الصبح فتكون هذه شرارة ينطلق بعدها أتباع ابن فندين فيضعون السلاح فى أهل المدينة ويستولون على السلطة بالقوة[3].

وثارت الشكوك فى نفس الإمام؛ فالصندوق ثقيل، وقفله من داخله؛ لذا وضع الإمام فى فراشه زقًّا منفوخًا وألقى عليه رداء أبيض، وفى المساء تحققت شكوك الإمام حيث خرج الرجل من الصندوق، وظن الزِّق هو الإمام فضربه بسيفه، وهنا عاجله الإمام بضربة قاتلة ووضعه في صندوقه وظل القوم حتى الصباح ولم يسمعوا شيئًا من صاحبهم، فاجتمعوا إلى الإمام وقالوا اتفقنا ونريد الصندوق وحملوه إلى مأمنهم فوجدوا صاحبهم قتيلًا[4]. وبفشل المؤامرة توقع النُّكَّار فتك الإمام بهم فخرجوا من تاهرت وعادوا إليها فى جموع تحمل السلاح فنهاهم الإمام عن ذلك بواسطة بعض خواصه، فقالوا لهم: ما فى إمساك السلاح معصية، ولا فى حمله من بأس والمؤمن بسلاحه، وإن رأى الإمام أن فى ذلك معصية فليقنعنا بالحجة[5]، فأصدر الإمام أوامره بالاستعداد للحرب، فازداد الناس خوفًا واشتدت وطأة النُّكَّار فأكثروا من التعدى حتى اشتعلت الحرب بينهم وبين الإمام وسُفكت فى هذه الحرب

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٢.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٢، ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٦.

(٣) الشماخي: السير ١٤٩، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٧ أ، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٣ و٢٤.

(٤) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) الباروني: المصدر السابق ١٠٦.

دماء كثيرة، الأمر الذى جعل الإمام وأنصاره من الإباضية يطلبون الهدنة مع النُكَّار، على أن تكون هذه الهدنة فترة يجرى فيها التحكيم بينهم وبين الإمام، ويتولى هذا التحكيم علماء الإباضية المشارقة وذلك عن طريق رسل يمثلون الأطراف المتنازعة تكون مهمتهم الذهاب إلى المشرق والحصول على رأى زعمائه من الإباضية فى هذه القضية[٦]. وانطلق رسل الإباضية نحو المشرق يحملون قضية الخلاف إلى علماء الإباضية المشارقة، ويدور الخلاف فى هذه القضية حول موضوعين أساسيين أثارهما يزيد بن فندين وجماعته:

أحدهما: أن على الإمام عبد الوهاب ألا يقطع برأى فى مسألة من المسائل، إلا إذا رجع إلى جماعة معلومة تكون بمثابة هيئة استشارية له، وهذا ما رفضه عبد الوهاب حين بويع بالإمامة.

ثانيهما: أن إمامة عبد الوهاب باطلة من أصلها؛ لأن فى المسلمين من هو أكثر منه علمًا.

والذى تذكره بعض المصادر الإباضية أن رسل الإباضية مرُّوا على مصر وأنهم قابلوا هناك من علماء الإباضية أبا المعروف شعيبًا وغيره من علماء الإباضية، وهناك قاموا بعرض الأمور عليهم[٧]. ثم توجهوا بعد ذلك إلى مكة حيث التقوا هناك عددًا من علماء الإباضية، منهم: أبو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب المسند فى الحديث، وأبو غسان مخلد بن معمر الغسانى ووائل بن أيوب[٨]، وأمام هؤلاء جميعًا طُرحت القضية ثانية وجاء رأى أولئك العلماء من إباضية مكة مؤيدًا لموقف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبعثوا برسالة مطولة تضمنت فساد تعليق الإمامة على شرط وجود جماعة تحكم مع الإمام لأن ذلك فيه إيقافًا لحدود الله وتعطيلًا لها، كما ذكرت الرسالة أنه تجوز تولية رجل من المسلمين وبينهم من هو أعلم منه؛ لأن أبا بكر تولى أمر المسلمين وبينهم من هو أعلم منه[٩].

---

(٦) الشماخي: السير ١٥٢، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٧) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٢، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٦، البرادي: الجواهر المنتقاة مخطوط ورقة ٨٨.

(٨) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٢.

(٩) الدرجيني طبقات الإباضية ورقة ٢٢.

وفى الوقت الذى كان فيه رسل إباضية مكة فى طريقهم إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان أبو المعروف شعيب العالم الإباضى المصرى قد خرج من مصر متوجهًا نحو تاهرت كى يستفيد من هذا التوتر الذى أصاب الدولة. فالتقى أولًا الإمام عبد الوهاب وأوضح له أن إمامته صحيحة وأن الشرط الذى وضعه النُكَّار باطل، وأن الإمامة تجوز لأى شخص ولو كان فى المسلمين من هو أعلم منه[1]، ثم حين قابل أبو المعروف يزيد بن فندين زعيم النُكَّار أوضح له ضعف موقفه، وأن عليه أن يستأنف حرب الإمام ثانية قبل أن تعود الرسل من المشرق، فيقوى ذلك من مركز عبد الوهاب[2].

أخذ ابن فندين ومن معه من النُكَّار ينتهزون الفرصة المناسبة للانقضاض على العاصمة تاهرت، وفى يوم كان الإمام عبد الوهاب غائبًا فيه عن المدينة لقضاء بعض حوائجه هجم ابن فندين بجيشه على المدينة، «وكان أفلح بن عبد الوهاب يمشِّط رأسه وقد ظفر منه نحو الشطر وبقى الشطر فأخذ سلاحه وترسه فوقف على باب المدينة وقد كادوا يدخلونها ونشب إحدى رجليه على العتبة السفلى من باب المدينة فانسلخت رجلاه إلى العرقوب وجالدهم حتى لم يبق فى مدرقته ما يصلح أن يكون وقاية، فأخذ أحد مصرعَىْ باب المدينة فاتقى به وابن فندين بين يديه يضرب الناس يمينًا وشمالا وعلى رأسه بيضتان فضربه فقسمه نصفين فنشب السيف فى الصفا من شدة الضربة، فلما مات ابن فندين انهزمت أصحابه[3]. ويذكر كتاب الإباضية أن عدد القتلى بلغ اثنى عشر ألف قتيل، وجد الإمام عبد الوهَّاب أكثرهم عند باب تاهرت حين عودته إليها، فصلَّى عليهم جميعًا؛ رغبة منه فى اجتماع كلمة المسلمين فى دولته[4]. ولم تتوقف أعمال النُكَّار عند هذا الحد، ففى أعقاب وصول رسل الإباضية من المشرق بصحة إمامة عبد الوهاب، غضبوا وعبروا عن ذلك الغضب بقتل ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومثَّلوا بجثته[5]. ولكن أحد أبناء ميمون تعرف على قتلة أبيه حين كان يقوم بجباية الخراج من بعض نواحى الدولة الرستمية. وبعض كتاب الإباضية يرون أن عبد الوهاب تصرف بطريقة مثالية إزاء الجناة حيث

---

(١) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٢.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية جـ٢، ١٠٨ – ١١٠.

(٣) الشماخى: السير ١٥٠.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١١١، الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

عمد إلى البحث عنهم حتى اتضح ارتكابهم هذه الجريمة بالحجة القوية، فأرسل في طلبهم فرفضوا الامتثال لأوامره واحتموا بمن كان معهم من بقايا ابن فندين من النُكَّار. ولذلك اتخذ الإمام عبد الوهاب من هذه الحادثة ذريعة لتقليم أظافر النُكَّار وكسر شوكتهم فأرسل إليهم جيشًا بقيادة ابن ميمون، فقتل الجناة وقتل من النُكَّار عددًا كبيرًا فضعف أمرهم ولم تعد لهم تلك الخطورة التي تهدد مركز عبد الوهاب[1]. إلا أن الذي يلاحَظ أن حركة النُكَّار خلقت وضعًا جديدًا في الدولة الرستمية، فقد أعطت حركة النُكَّار الفرصة لجماعات الواصلية من المعتزلة من أهل المغرب أن يناقشوا مسألة الإمامة في الدولة الرستمية باعتبارهم من رعايا هذه الدولة وهذا ما جعل بقايا النُكَّار ينضمون إلى هؤلاء الواصلية في حركتهم، وأصبحت حركة الواصلية المشكلة الثانية التي تهدد الجبهة الداخلية في الدولة الرستمية بعد ثورة يزيد بن فندين.

ثورة الواصلية

كانت جماعات الواصلية تؤلف حزبًا قويًا في الدولة الرستمية؛ فهم ينتسبون إلى واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة، ويقدر عددهم في الدولة الرستمية بثلاثين ألفًا يعيشون في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها[2] وقد انتشر مذهبهم إلى الشمال من تاهرت ما بين مدينة مستغانم ووهران وإلى الجنوب من تاهرت في تِيْلَغْمت وفي بعض المناطق الصحراوية وفي وادي ميزاب، كما انتشرت هذه الجماعات من الواصلية أيضًا وبأعداد كبيرة في شمال المغرب الأقصى في وليلي، وكان رئيسهم هناك إسحاق بن محمد الأوربي[3]، وكانت هذه الجماعات تتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية في ظل الدولة الرستمية، فاستطاعوا بذلك أن يدعوا لمذهبهم وأن يحتجُّوا له وأن يناظروا من يريدون حتى ولو كان إمام الدولة نفسه[4]. ويُعزى خروج الواصلية على الإمام عبد الوهاب إلى أنهم غضبوا المقتل يزيد بن فندين[5] باعتباره من بني يفرن التي هي فرع من زناتة التي ينتمي إليها معظم الواصلية، ويؤكد ذلك انضمام بقايا النُكَّار بعد مقتل يزيد بن فندين إلى هؤلاء الواصلية وخاصة الموجودين

---

(١) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٣) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٤٨٠.

(٤) الشماخي: السير ١٥٥ ـ ١٥٦، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١١٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٣.

منهم في شمال تاهرت[1] ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لثورة الواصلية على الإمام عبد الوهاب؛ فقد كانت هناك مؤثرات خارجية دفعت الواصلية إلى الثورة، وتظهر هذه المؤثرات واضحة عندما اتجه الإمام إدريس الأكبر بجيوشه نحو تلمسان سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م[2]، وهي إذ ذاك قاعدة المغرب الأوسط[3] وبها من القبائل مغراوة وبني يفرن[4]. وتمكن إدريس الأكبر من إخضاع أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الذي طلب من إدريس الأكبر الأمان واعتر بإمامته[5]. وقد قام أمراء تلمسان من مغراوة وبني يفرن بعد خضوعهم لسلطان الأدارسة بمحاولات لضمِّ أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الأدارسة التابعين لها. وعند ابن خلدون نص يؤيد هذا، يقول ابن خلدون: «ولم يزل المُلك في بني رستم هؤلاء بتاهرت، وحازتهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة[6]. وقد تكاثفت الجهود في هذا الشأن مع زعيم الواصلية في المغرب الأقصى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي لإثارة واصلية المغرب الأوسط على حكامهم من الرستميين، وقد حدثت مكاتبات بين إسحاق الأوربي وبين هؤلاء الواصلية بالمغرب الأوسط[7] وجاء مقتل يزيد بن فندين فرصة لتدخل الواصلية وإثارة الجدل مرة ثانية حول إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم ولم يقف الأمر بهم عند حد الجدل بل جمعوا جيوشًا عظيمة اقتربت من تاهرت ودارت بين الفريقين معارك كانت الحرب فيها سجالًا بين الطرفين[8]. وفي ضوء هذه الأحداث رأى عبد الوهاب أن يطلب المساعدة من إباضية جبل نفوسة[9]. وكان الإباضية بجبل نفوسة يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي عن نفوذ الدولة العباسية منذ أبيه عبد الرحمن بن رستم، وفي عهد عبد

---

(١) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٤٨٤؛ طبقات الإباضية ورقة ٢٥

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ٢٢، حسن علي حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ١١٨.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧٦.

(٤) ابن أبي زرع الأنيس: المطرب ٢٢.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ٧.

(٦) ابن خلدون: العبر ٦/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٧) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١١٦ ـ ١١٧.

(٨) الباروني: المصدر السابق ٢/ ٧١١

(٩) الشماخي: السير ٢/ ١٥٤.

الوهاب ازدادت الصلات بينه وبين إباضية هذا الجبل قوة[1]. وتقول رواية الشماخي إن عبد الوهاب طلب من أهل الجبل أربعمائة نفر «مائة من الفرسان للمبارزة ومائة مفسر، ومائة متكلم، ومائة فقيه عالم بفنون الحلال والحرام»؛ لأن الواصلية معهم عالم بارع من هناك في الكلام وفيهم شاب لا يبارزه أحد إلا قتله»[2]، والغريب في هذه الرواية أن هذه الأعداد المطلوبة لا تنسجم مع ما أرسلته إباضية نفوسة فعلًا لمساعدة عبد الوهاب؛ إذ أرسلت له نفوسة أربعة أفراد بدلا من أربعمائة وهم: محمد بن يانس ومهدي النفوسي وأبو الحسن الأبدلاني وأيوب بن العباس[3]؛ ولكن يبدو أن هذه الرواية أرادت أن تضفي الثناء على هؤلاء الأربعة وتقول إن الواحد منهم كان يعدل مائة[4]. وعند الدرجيني رواية تخفف من حده هذه المبالغة في رواية الشماخي يقول الدرجيني: «فلما رأى الإمام عبد الوهاب ما نزل به منهم الواصلية وأن حربهم مستمرة وأرسل إلى أهل جبل نفوسة يستمدهم طالبًا منهم جيشًا نجيبًا يكون فيهم رجل مناظر، عالم بفنون الرد على المخالفين ورجل عالم بفنون التفاسير ورجل شجاع يستعد لمبارزة الشاب الواصلي[5]. وكان الإمام عبد الوهاب ينتظر قدومهم بفارغ من الصبر حتى أنه وعد غلمانه أن من أتاه بخبر وصولهم أعتقه وأخرجه حرًّا: وكان من بين الغلمان غلام أعرج، فلما رأى الغلمان يتسابقون يومًا إلى الإمام، فعلم أن ذلك من قدوم نفوسة فأخبر الإمام بقدومهم فخرج حرًّا، فلما بشر الغلمان الإمام عبد الوهاب، قال لهم فاز بها الأعرج، وأرسلت مثلًا[6].

وعلى الفور اجتمع عبد الوهاب بوفد نفوسه وقال لعالمهم الملقب بمهدي النفوسي: «وقع بيني وبين المعتزلي في مناظرتي له كذا وكذا فذكر ما وقع بينهما من الحديث، فكلما زاغ المعتزلي عن الحق وجاد عن الصواب قال مهدي: ها هنا عن الالتزام وها هنا ليس بالشبهة حتى أطلعه على مكامنه وما ليس به[7].

---

(١) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٦٥.

(٢) الشماخي: السير ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) الشماخي: السير ١٥٥.

(٤) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٦٦.

(٥) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٦) الشماخي: السير ١٥٥.

(٧) الشماخي: المصدر السابق ١٥٥ ـ ١٥٦.

ولما تأكد الإمام عبد الوهاب من تمام استعداداته للقاء الواصلية دعاهم إلى المناظرة، فاستعد الفريقان وجمع كل منهما جموعه، وتقدم الإمام عبد الوهاب من بين الصفوف ومعه جماعة من بينهم مهدى النفوسى ومحمد بن يانس فتناظر مهدى النفوسى مع عالم الواصلية حتى غاصا فى كلام لم يفهمه الحاضرون، وتمادى بهما الحديث والمناظرة حتى أفحم مهدى عالم الواصلية فكبَّر الحاضرون من أتباع عبد الوهاب، وعلى أثر ذلك نشب قتال ضارٍ بن الإباضية والواصلية استطاع فيه أيوب بن العباس أن يقتل فارس الواصلية، وبمقتله انهزمت جماعات الواصلية وعاد بعضهم إلى طاعة الإمام والبقاء داخل نطاق الحكم الرستمى[1]. والبعض الآخر كوَّنوا لهم بعض الإمارات مثل إمارة ايزرج بجانب تاهرت، كما كان منهم من توجه إلى المغرب الأقصى والتفَّ هناك حول زعيمه المعتزلى إسحاق بن محمد الأوربى الذى امتد نفوذه ما بين طنجة إلى وليلى بجبل زرهون[2] ويمثل القضاء على حركة الواصلية خطوة مهمة للمحافظة على حدود الدولة الرستمية العربية فقد أوقف الأدارسة عند حدود تلمسان، وأكد سلطان الدولة الرستمية على ما يلى تلمسان شرقًا من أراضى المغرب الأوسط.

ثورة مزاته وسدراته

لم تكن هذه الأحداث السابقة هي كل ما واجه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فالنُكَّار مازالت بقاياهم تحاول إثارة الشغب فى الدولة عن طريق الدعوة السرية التى قاموا بها بعد هزيمتهم أمام عبد الوهاب؛ لأنهم لم يكونوا من القوة بحيث يمارسون ذلك علنًا خوفًا من بطش الإمام بهم، ورأى النُكَّار فى أشهر الربيع فرصة عظيمة لكسب الأنصار والمؤيدين لهم، ففى أشهر الربيع تكون تاهرت وما حولها مناطق رعوية مليئة بالعشب، وإلى هذه المناطق تأتى قبائل مزاته وسدراته وغيرها للانتجاع والرعى، وبعد انتهاء موسم رعيهم يدخل وجوههم ورؤساؤهم مدينة تاهرت، فيبرُّهم أهلها ويكرمونهم، ويقضون حوائجهم ثم يرتحلون بعد ذلك

---

(١) الشماخى: السير ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٤ - ١١٥. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

إلى بلادهم[1]. وإلى هذه الحقائق المهمة أشار ابن الصغير بقوله: «أن قبائل مزاته وسدراته وغيرهم كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها؛ لما حولها من الكلأ وغيره.... وكانوا إذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤساؤهم المدينة فيبرون ويكرمون ثم يخرجون إلى شياههم وبعيرهم فيقيمون بها إلى طعنهم»[2].

استغل النُكَّار هذه الفرصة لتأليب هذه القبائل الوافدة على تاهرت وقاموا بدعوة سرية وعلى نطاق واسع بين رؤساء هذه القبائل وأفرادها فقالوا لهم «إن الأمور قد تغيرت والأحوال قد تبدلت فقاضينا جائر وصاحب بيت مالنا خائن وصاحب شرطتنا فاسق وإمامنا لا يغير من ذلك شيئًا وقد جاء الله بكم فادخلوا إلى هذا الإمام واسألوه عن قاضيه وصاحب بيت مالنا وصاحب شرطتنا وأن يولي علينا خيارنا فأجابوهم إلى ما يسألون»[3].

فذهب وفد من رؤساء هذه القبائل إلى عبد الوهاب وقالوا له: «إن رعيتك قد ضجَّت من قاضيك وصاحب بيت مالك والقائم بشرطتك فاعزلهم عنهم ولِّ عنهم خيارهم، فقال عبد الوهاب: جزاكم الله من وفد خيرًا.. الأمر إليكم قدموا من رأيتم وأخروا من رأيتم»[4] وبعد خروجهم من عنده استشار عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته في هذا الأمر فقالوا له: وإنك لو استجبت إلى مطالبهم فلا بأس أن يطلبوا منك ما هو أكثر من ذلك فيقولون لك: «إن المسلمين قد نقموا عليك أشياء أو على ولديك. فإن أجبتهم إلى ذلك شكروك وحمدوك وإن أبيت لهم من ذلك خلعوك ونبذوك ثم لا تأمن لو أجبتهم إلى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولون لك إن المسلمين في ابتداء أمرك لم يجتمعوا عليك فانخلع وأردد إليهم أمرهم»[5].

وأحسَّ الإمام بحرج موقفه فقد وعد رؤساء سدراته ومزاته بعزل القاضي

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٧، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٢٦

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٧.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ١٨.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ١٨.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ١٨.

وصاحب بيت المال والقائم بأعمال الشرطة وتولية غيرهم، ولكنه استطاع التخلص من هذا المأزق في اليوم التالي، فقال لهم هو ومن معه من خاصته: «إنه لا يجب عزل قاضٍ ولا صاحب بيت مال إلا بجرحة تظهر عليه، ولا يجب عزل القضاة ببغى البغاة وسعى السعاة»[1] فقالوا للإمام: لم يكن هذا اتفاقنا بالأمس وخرجوا من عنده متوجهين إلى الكدية المعروفة بكدية النُّكَّار وأقسموا على ضرورة عزل من سألوا عزلهم ومحاكمة عبد الوهاب[2]. ولم يجد عبد الوهاب بدًّا من محاربتهم والقضاء على حركتهم، خاصة أن الصلة أصبحت قوية بينهم وبين النُّكَّار أعدائه القدامى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قبيلة مزاته كما يقول ابن حوقل كان لها انتماء قوى لمذهب الاعتزال على رأى واصل بن عطاء[3].

وجَّه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الإنذار إلى تجمعات مزاته وسدراته ومن معهم من النُّكَّار بالالتزام بالطاعة فلم يستجيبوا له، فخرج إليهم عبد الوهاب فى قوات ضخمة قضت على حركتهم. أما من بقى من هذه القبائل فقد فر إلى مواطنهم[4] أما النُّكَّار فإن معظمهم انحاز إلى جبال الأوراس حيث ظلوا معتصمين بها حتى نهاية الدولة الرستمية[5]. ونجح عبد الوهاب فى القضاء على هذه الحركة وتوطدت دعائم دولته، الأمر الذى جعل ابن الصغير يقول: «ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوى عليه وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك»[6].

عصيان قبيلة هوارة

كانت سياسة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الحيلولة بين المصاهرات التى تقوم بين القبائل الكبرى فى دولته وذلك باعتباره جزءًا من سياسته فى تأمين الجبهة الداخلية للدولة، وقد حارب عبد الوهاب مثل هذه التحالفات بالأسلوب نفسه الذى

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين ١٩.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ١٩ ـ ٢٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٩٤.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة فى تاهرت ٢٠.

(٥) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٤. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد.

(٦) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٠.

اتبعته هذه القبائل. ومما يذكر في هذا الشأن أن قبائل هوارة التي كانت تقيم بإزاء تاهرت كان لهم رؤساء مقدمون، يقال لهم الأوس ويُعرفون أيضًا ببني مسألة، وكان لدى أحد رؤساء قبيلة لواته ابنة جميلة فأراد مقدم بني مسألة أو رئيسهم أن يصاهر لواته، وبهذا تصبح مصالح القبيلتين واحدة وينعقد التحالف بينهما[1].

وقد فطن عبد الوهاب إلى خطورة هذه المصاهرة «فأرسل عبد الوهاب إلى الرجل فأحضره فأجلسه وخطب إليه ابنته فزوّجه إياها فاتصل ذلك بالأوس فقال: عمل عليّ في جارية خطبتها ورضى إلى بتزويجها فانتزعها مني بسلطانه»[2]. وغضب مقدم الأوس وغضبت معه عشيرته وأقسم ألا يقيم بتاهرت فارتحل عنها حتى نزل بوادي هوارة بينه وبين تاهرت نحوًا من عشرة أميال أو أكثر، وانضم إليهم كثير من الخارجين على الإمام، وبدأت هذه الجماعات من هوارة تقوم ببعض أعمال العنف ضد مواطني الدولة: فقتلوا ولدًا للبغال عند موضع يقال له دشرات بالقرب من نهر أبي سعيد[3]، وقام أتباع عبد الوهاب بتفقد القتيل وذلك تبعًا لمبادئهم التي تنص على عدم محاربة خصومهم إلا إذا ثبت أنهم استحلّوا الأموال، وقد وجدوا خاتم ولد البغال مفقودًا، هنا كبّروا وقالوا: «قد استحلوا الأموال وحلّ قتالهم بنو ماله ومن معهم ثم أخذوا في التهيؤ للحرب والخروج إلى عدوهم فاجتمع إلى عبد الوهاب أمم كثيرة وخلق عظيم»[4].

والتقى الفريقان عند نهر أسلان وقد أبلى أفلح بن عبد الوهاب في هذه الحرب بلاءً عظيمًا، فكان عبد الوهاب كلما نظر في اتجاه وجد فارسًا يقاتل بشجاعة فيسأل عن الفارس «فيقال له ابنك أفلح، قال: لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة»[5]. وانتهت المعركة وهُزمت جموع الأوس هزيمة فادحة ورحلت بقاياهم إلى جبل ينجان[6]، وهكذا بذل عبد الوهاب بن عبد الرحمن رستم جهودًا مضنية

---

(1) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٣٣.

(2) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢١.

(3) ابن الصغير: المصدر السابق ٢١، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٣٣.

(4) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين ٢٢.

(5) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٢.

(6) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٣.

للاحتفاظ بوحدة الدولة الرستمية وتوطيد دعائمها، وتمكن بفضل هذه الجهود من القضاء على الفتن والثورات الداخلية.

خروج الإمام للحج

يذكر الشماخي أن الإمام عبد الوهاب بعد أن استقرت أوضاع الدولة الرستمية اعتزم السفر لأداء فريضة الحج[1]، فاستخلف ابنه أفلح على تاهرت وخرج مستصحبًا زوجته وجمعًا كبيرًا من رجال دولته ومضى بهم نحو المشرق[2]، متخذًا الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من مدينة قابس وإلى الشمال الغربي من جبل نفوسة[3]. ولكن الإباضية في شرق الدولة منعوا الإمام من مواصلة السفر للحج خوفًا من أن يقبض العباسيون عليه وطلبوا منه أن يستشير علماء الإباضية المشارقة في هذا الأمر. فأرسل عبد الوهاب رجلًا نفوسيًا من أهل تمزد إلى أبي عمر الربيع بن حبيب وإلى ابن عباد من علماء الإباضية المشارقة في مكة يطلب رأيهم في أمر ذهابه إلى الحج «فأجابه الربيع من كان مثلك في العناية بأمور المسلمين وحمل أماناتهم وخاف على نفسه من المسودة أن يبعث بحجة وهو حيّ، وأجابه ابن عباد أن من كان على هذه الصفة فلا حج عليه، لأن من شرط الحج أمان الطريق. فلما قدمت عليه رسله أخذ يقول الربيع فأرسل رجلًا من أهل تمزد «ايحج عنه»[4].

ويشكّ البعض في أن يكون هدف الإمام من هذه الرحلة هو الحج بدعوى أن الإمام أقام في بني زمور مدة امتدت إلى سبع سنوات، وأن أحداثًا مهمة حدثت خلال وجود عبد الوهاب في هذه المناطق، وأنه شارك فيها بنفسه[5]. وقد آثر عبد الوهاب أن يبقى في أقاليم الدولة الشرقية لينظِّم الأوضاع بها، خاصة أن مناطق جديدة بأكملها قد انضمَّت إلى الدولة الرستمية.

---

(١) الشماخي: السير ١٥٩.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٣٧، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٤ – ٥٥٥.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٥٥٥.

(٤) الشماخي: السير ١٥٩.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٩١.

(أ) انضمام جبل دمر للدولة الرستمية

كان جبل دمر هو أول المناطق التي نزل بها الإمام عبد الوهاب، وتسكن هذا الجبل قبائل دمر الزناتية ومع أنهم من الإباضية، إلا أن استقرارهم بالقرب من إفريقية ـ ركيزة النفوذ العباسي في المغرب ـ جعلهم يفضلون حياة الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين[١].

نزل الإمام في ضيافة أهل الجبل أيامًا، وفي أثناء ذلك دعاهم الإمام عبد الوهاب إلى الانضمام إلى دولته، فبايعوه وانضمُّوا إليه واعترفوا بإمامته عليهم وقدَّموا له البيعة مباشرة، فولَّى عليهم شيخًا صالحًا منهم يدبر شئونهم يعرف بمدرار[٢]. وبنى هناك مسجدًا ومصلًّى، والمسجد مشهور باسم مسجد عبد الوهاب: وقد أقامه في موضع يقال له تلالت من هذا الجبل[٣].

(ب) زيارة الإمام لجبل نفوسة

مضى الإمام بعد ذلك إلى جبل نفوسة الذي يتصل اتصالا وثيقًا بجبل دمر[٤]، ويعتبر هذا الجبل معقلًا مهمًّا من معاقل الدولة الرستمية، فأهل الجبل كلُّهم من الإباضية، وهم لا يدينون بالطاعة لأحد غير إمام تاهرت، وفي ذلك يقول اليعقوبي «لا يؤدون خراجًا إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم[٥]. ويذكر البكري أن قبائل هذا الجبل إذا تداعت للقتال فإنها تستطيع أن تجند للحرب ستة عشر ألف مقاتل[٦]، وهذه الكثرة العددية كان لها أثرها في الحفاظ على كيان الدولة الرستمية كقوة سياسية في بلاد المغرب.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٥.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٩، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٣٧.

(٣) الشماخي: السير ١٥٩.

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا ١٤٥. تحقيق: إسماعيل العربي.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٣٤٦.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٩٠.

أقام الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة سبع سنوات واتخذ من قرية «ميرى» مقرًّا له وبنى بها مسجده وكان غاية في الاتساع والترتيب والصنعة[1]، وقد شهد هذا المسجد لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جهودًا ثقافية رائعة؛ حيث عُقدت حلقات الدراسة للطلاب الذين تعاقبوا على الإمام ينهلون من علمه. ويقال: إن موضوع الصلاة قد استأثر بكثير من اهتمام عبد الوهاب طيلة هذه السنوات السبع[2]. ولقد ظهر في جبل نفوسة جيل من العلماء الذين حملوا شعلة العلم في عصر الرستميين، ومن هؤلاء العلماء: مهدي النفوسي ومحمد بن يانس وأبو الحسن الابداني وعمروس بن فتح ويعقوب بن أفلح وأبو عبيدة عبد الحميد الجناوني ومعبد الجناوني[3].

حصار طرابلس

ومن جبل نفوسة كان عبد الوهاب يراقب الأحداث المضطربة في طرابلس التي استشرت فيها حوادث الشغب، نتيجة الخلافات القبلية التقليدية بين القيسية واليمنية والتي حاول الأمير الأغلبي إبراهيم بن الأغلب معالجتها بشتى الوسائل حتى إنه استعان بجند مصر في قمع هذه الفتن دون جدوى، فلجأ عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب - نائب طرابلس - إلى الاستعانة بالبربر لمواجهة الموقف المتأزم، ولكن هذه الجهود فشلت هي الأخرى وعمّت الفوضى أنحاء طرابلس، وقام البربر بالثورة على جند المدينة وعلى العرب عمومًا بمن فيهم نواب بني الأغلب، فثارت هوارة في وجه الأغالبة[4]. ويبدو أن الذي شجعها على ذلك وجود عبد الوهاب بن عبد

---

(١) الشماخي: السير ١٥٩، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٤١ - ١٤٢.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ٢/ ١٤٢، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٤٢، علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ ٢/ ٧٨.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٥.

(٤) هو عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي أبو العباس ثالث الأغالبة من أمراء إفريقية كانت إمارته فيها استقلالًا والخطبة لبني العباس، وليها بعد وفاة أبيه ويعهد منه سنة ١٩٦هـ، وكانت أيامه في القيروان وأطرافها، أيام دعة وسكون إلى أن توفي سنة ٢٠١هـ/ ٨١٧م. قال الباجي: كان حسن الصورة قبيح السيرة أبطل عشر الحب وجعله دراهم، أخصب أم أجدب، وقال لسان الدين ابن الخطيب: كان شديدًا جمّاعًا للأموال، اشتكى الناس من جوره إلى أن مات، وقال ابن الأثير: لم يكن في أيامه شر ولا حرب وسكن الناس فعمرت البلاد. انظر المزيد في: الخلاصة النقية ٢٥، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٩٧، الكامل ٦/ ٥٢ و١١١، البيان المعرب ١/ ٩٥، أعمال الأعلام: ١٧.

الرحمن بن رستم فى جبل نفوسة القريب من طرابلس[1]. فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون القدامى لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام[2]. خرج جند الأغالبة من طرابلس لإخماد ثورة هوارة والتقى الجند جموع هوارة عند وادى الرمل[3]، ولكن هوارة استطاعت أن تسحق جند الأغالبة وجعلتهم يفرُّون أمامها إلى طرابلس وتبعتهم هوارة حتى دخلت طرابلس وهدمت أسوارها، ويصوِّر ابن الأثير هذه المعركة بقوله «فثارت هوارة بطرابلس فخرج الجند إليهم والتقوا واقتتلوا فهزم الجند إلى المدينة فتبعهم هوارة، فخرج الجند هاربين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب ودخلوا المدينة فهدموا أسوارها»[4].

وصلت أنباء الثورة إلى مسامع إبراهيم بن الأغلب فسير إليها ابنه أبا العباس عبدالله فى ثلاثة عشر ألف جندى، وتمكن عبدالله من إلحاق الهزيمة بهوارة، وقتل منها عددًا كبيرًا وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها[5]. ورأى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أن هزيمة هوارة على هذا النحو اعتداء صارخ من الأغالبة على مواطنى دولته، فأعدَّ الجيوش وجمع القوات وتقدم بها لحصار طرابلس، وتمكن عبد الوهاب من فرض حصار قوى على المدينة سنة ١٩٦هـ/ ٨١١م[6]. وقد وجد عبد الوهاب متاعب كثيرة فى أثناء الحصار بسبب عدم التكتم على الخطط العسكرية فى معسكره، الأمر الذى جعله يكتفى بمشورة وزيره مزور ابن عمران فقط دون غيره من القادة[7] ورغم هذه المتاعب التى عاناها عبد الوهاب فإن أبا العباس عبد الله لم يجرؤ على فتح أبواب المدينة والخروج منها للقاء عبد الوهاب، وإنما سدَّ أبواب المدينة كلها، وكان يقاتل من باب واحد هو باب هوارة، وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب الذى كان قد عهد بالإمارة إلى ابنه

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٩٥.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٩، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ١٤٥ تحقيق: إسماعيل العربى.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٥.

(٤) الشماخى: السير ١٦٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٢٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٦/ ٢٧.

(٧) الشماخى: السير ١٦٠، ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٢٧

عبد الله، وقام زيادة بن إبراهيم بن الأغلب[1] بأخذ العهود والمواثيق على الجند، وأرسل إلى أخيه عبد الله رسالة يخبره بموت أبيه وبأن الإمارة انتقلت إليه[2]، ولكن الرسول والرسالة وقعا في أيدي جند عبد الوهاب، ويروى ذلك ابن الأثير فيقول «فأخذ البربر الرسول والكتاب ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فأمر بأن ينادى عبد الله ابن إبراهيم بموت أبيه»[3]. وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بد من عقد الصلح مع الإمام عبد الوهاب، وجاءت شروط هذا الصلح اعترافًا من دولة الأغالبة ـ الممثل الشرعي للخلافة العباسية في بلاد المغرب ـ بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس؛ إذ كانت أهم بنود هذا الصلح أن يكون للأغالبة السيادة على مدينة طرابلس والبحر، أما ما كان خارجًا على ذلك فهو لعبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم[4]. وبهذه المعاهدة قوى مركز الإمام الرستمى عبد الوهاب فى الجهات الشرقية للدولة الرستمية، ولم يتوان هذا الإمام عن انتهاز رأى فرصة لتوطيد دعائم دولته فتراه بعد ما صالح الأغالبة فى طرابلس، يتطلع إلى المناطق التى يسود فيها المذهب الإباضى ليضمَّها إلى الدولة ويعين الولاة والعمال عليها من قِبله، فأرسل سلمة بن قطغان الزواغي إلى قابس فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى استولى عليها، وضمَّها إلى الدولة الرستمية وكانت ضمن نفوذ الأغالبة، ثم تقدم ذلك القائد إلى ما يلى قابس من القرى والجبال والقبائل يُخضعها لسلطان الرستميين كمطاطة وزنزقة ودمر وزواغة وجزيرة جربه[5]. وأخذ الإمام عبد الوهاب فى رصد عماله على هذه النواحي الجديدة وغيرها مما بسط الرستميون نفوذهم عليها، فجعل سلام بن عمرو اللواتى على مدينة سرت ونواحيها، وسلمة بن قطغان الزواغى على مدينة قابس، ومحمد بن إسحاق الخزرى على نفرواة، ووكيل بن دراج النفوسى على مدينة قفصه، أما جارون بن القمرى ونهدى بن عاصم الزناتى وبيران اليزمرتنى المزاتى فيرجح أنهم كانوا عمالاً للإمام عبد الوهاب على غدامس وزويلة وتوزر[6]. وقصارى القول أن عبد الوهاب استطاع عن طريق المعاهدة التى

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٦/ ٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٢٧.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٦/ ٢٧.

(٥) الشماخى: السير ١٦١، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٦) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٦٤ – ١٦٥، محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ٣/ ٥١٣.

عُقدت بينه وبين أبى العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أن يفرض واقعًا جديدًا على الأغالبة، فجعل خط الحدود فى دولته يسير مع خط المناطق التى ينتشر فيها المذهب الإباضي، والمعروف أن المذهب الإباضي قد انتشر في مناطق كثيرة من جنوب إفريقية وأن هذه المناطق خضعت لللنفوذ الرستمى بفضل جهود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ومن هذه المناطق من جنوب إفريقية نذكر جبال الأوراس موطن قبائل هوارة ومكناسة، يقول البكرى «جبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم إباضية»[1]. أما شمال الأوراس حتى جنوب مدينة بجاية فقد كانت فيه منازل مزاته التي قال عنها الإمام عبد الوهاب «ما قامت هذه الدولة الرستمية إلا بسيوف نفوسة وأموال مزاته» [2]وعندما تحدثالبكرى عن مدينة بجاية قال مؤكدًا الوجود الإباضي هناك «ويسكن فحص هذه المدينة قبائل مزاته وضريسة وكلهم إباضية»[3] وعند ابن الصغير المالكى الدليل القاطع على خضوع هذ المناطق للنفوذ الرستمى وامتداد سلطاتهم الإدراية حتى هناك، فعندما مات قاضى جبل الأوراس اختار مجلس الشورى لهذا المنصب القاضى محكم الهوارى وكان أحد الشخصيات البارزة فى جبل الأوراس يقول ابن الصغير: «وأجمع رأيهم مجلس الشورى على محكم الهوارى الساكن بجبل أوراس فأتوا إلى أفلح بن عبد الوهاب فقالوا قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرتضى أحدًا منا وقد ارتضينا جميعًا بمحكم الهوارى الساكن بجبل أوراس»[4].

ويتضح من هذه الحقائق التاريخية أن خط الحدود الشرقية للدولة الرستمية يبتدئ شرقًا من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ما عدا مدينة طرابلس والساحل فإنهما تقعان تحت النفوذ الأغلبي، وينعطف الخط عند جنوب صفاقس نحو الغرب فيمرُّ على قفصة وجبال الأوراس وتهودة وبعدها يرتفع خط الحدود إلى الشمال تاركًا أراضى إمارتى هاز ومتيجة حيث ينتهى فى شرق شرشال على ساحل البحر. أما حدُّ الدولة الرستمية الشمالى فيمتد على ساحل البحر من شرق شرشال إلى غرب وهران

---

(١) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٤٤.

(٢) أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣١أ.

(٣) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٥١٨.

(٤) ابن الصغير: سيرة الائمة الرستميين فى تاهرت ٢٣، البرادى: الجواهر المنتقاة ورقة ٨٩.

متضمنا مدنًا ساحلية هامة هي: شرشال وتنس ومستغانم ووهران، أما الحدود الغربية للدولة فتبدأ من غرب وهران وشرق جبال تلمسان إلى جنوبها ثم تتجه نحو الغرب فتخترق جبال القصور إلى غرب ففيف، ومدينة بني ونيف ثم تنحدر الحدود حتى الصحراء الكبرى فتخرج تلمسان وجبالها من نطاق الدولة الرستمية بنطاق حدود واسعة من الشمال إلى الجنوب تبدأ من ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال حتى أقصى الصحراء الكبرى في الجنوب إلى ما بعد وارجلان وغدامس وفزان[1].

عودة الإمام إلى تاهرت

وبعد أن وطد الإمام عبد الوهاب النفوذ الرستمي في إقليم طرابلس وكثير من جهات جنوب إفريقية، عزم على العودة إلى تاهرت، فطلب إليه أهل نفوسة وغيرهم من القبائل أن يولي عليهم رجلًا وطلبوا أن يكون هذا الرجل السمح بن أبي الخطاب المعافري وزير الإمام عبد الوهاب، ورغم أن السمح كان عزيزًا على الإمام ولا يريد الإمام أن يفارقه، فقد نزل الإمام على رغبتهم وترك السمح واليًا على إقليم طرابلس بما فيه جبل نفوسة، ومضى الإمام راحلًا إلى تاهرت[2]. وظل السمح واليًا على حيز طرابلس فأحسن السيرة «وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في النقاط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامه بحيث لم ينكروا عليه شيئًا في مدة ولايته كلها لا يخرج عن رأي الإمام ولا يخالف له أمرًا»[3]. واستطاع السمح الاحتفاظ بولاء أهالي جبل نفوسة الديني والسياسي للأئمة في تاهرت[4] فلما حضرت السمح الوفاة اجتمع إليه وجوه أصحابه وقالوا له «أوصنا ومرنا بأمرك يرحمك الله فإنّا مطيعوك في حياتك وبعد وفاتك... فقال السمح: أوصيكم بتقوى الله والأتباع لما أمركم به والانتهاء عما زجركم عنه وطاعة إمامكم عبد الوهاب وتأييده ما دام مستقيمًا على الحق الذي

---

(١) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ١/ ٢٢١، أحمد توفيق المدني: الجزائر ٢١، محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٥١٥ ـ ٥١٧.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٠.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٤٨.

(٤) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٦٨.

عليه سلفكم وجهاد من خالفهم[1]. وبعد وفاة السمح سارع كثير من العامة إلى تولية خلف بن السمح[2]، ويبدو أن خلفًا هذا قد دعا إلى نفسه على أساس أنه من أبناء أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى كان إمامًا للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية. ويؤيد ذلك أن خلفًا لم يكتف بولايته على الجبل فحسب، بل إن مؤيديه أرسلوا الكتب إلى أبى سفيان محبوب بن الرحيل وهو من أئمة الإباضية المشارقة يستفتونه راجين أن يجوز لهم الانفصال عن الدولة الرستمية بدعوى أنهم بعيدون عن تاهرت[3].

رفض الإمام عبد الوهاب ولاية خلف على حيز طرابلس وأرسل كتابًا لأهل الجبل يبين لهم فساد ولاية خلف ويقول كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس. أما بعد.. فإنى آمركم بتقوى الله واتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغنى ما كتبتم به إلىَّ من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفًا ورد أهل الخير ذلك. فإن من ولَّى خلفًا من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمل منكم السمح إلى عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمح حتى يأتيه أمرى، وتوبوا إلى ربكم وراجع التوبة عليكم تفلحون»[4].

ورفض خلف بن السمح ومن معه الاستجابة لأوامر الإمام وأعلنوا العصيان عليه، ورأى الإمام عبد الوهاب أخطار الانقسام تهدد دولته وكان لهذا الإقليم من أقاليم دولته أثره فى دعمها ماديًا وعسكريًا، لذا سارع الإمام إلى تعيين أيوب بن العباس، وكان شخصية قوية هابها خلف والتزم بالسكون والطاعة[5] وبعد وفاة أيوب بن

(١) الشماخى: السير ١٦٥.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٤٨.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣١، البارونى: الأزهار الرياضية جـ٢، ١٥١.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٥٠، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢٤ و٢٥.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣١، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٥٢.

العباس تولى أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى أمر جبل نفوسة، وفى أيامه استفحل شأن خلف وأتباعه، وأخذ فى شنِّ الغارات على الأطراف، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له فى حرب خلف، ولكن الإمام أشار على أبى عبيدة أن يلاطف خلفًا وألا يفتح معه بابًا للقتال، فهدأت حركة خلف بن السمح مرة ثانية. وظل أبو عبيدة «قائمًا بأموره فى حيزه مواصلًا للإمام بما يجب من المال»[1].

وهكذا نجح عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فى توطيد الدولة الرستمية وفى الوصول بها إلى أوج اتساعها، وترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان يقول عنها ابن الصغير: «وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله، ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والجند ما لم يجتمع لأحد قبله، ولقد حكى لى جماعة من الناس أنه قد بلغت قوته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملأ المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان»[2]، وظل الهدوء سائدًا فى أنحاء الدولة الرستمية حتى توفى الإمام عبد الوهاب سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م بعد أن مضى فى الإمامة أربعين سنة[3].

ازدهار الدولة الرستمية فى عهد أفلح بن عبد الوهاب ٢١١ـ ٢٤٠هـ/ ٨٢٦ـ ٨٥٤م

١ ـ إمامة أفلح بن عبد الوهاب

تولى أفلح بن عبد الوهاب الإمامة بعد وفاة والده مباشرة؛ خوفًا من تجدد الخلاف حول مسألة الإمامة كما حدث بعد وفاة جده عبد الرحمن بن رستم. وكان أفلح مرشحًا للإمامة كما يقول البارونى: «بأعماله العالية وعلومه ومداركه الواسعة، فبايعوه وسلموا له مقاليد الأمور بدار الإمارة قطعا للخلاف على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح»[4].

وكانت أكثر الصفات التى جعلت أفلح مرشحًا للإمامة من الجميع ومن قِبل والده

---

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٥٧.

(٢) ابن الصغير سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٧.

(٣) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٨، د. السيد عبد العزيز سالم تاريخ المغرب ٥٥٧، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٦٣.

(٤) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢٦ أ.

عبد الوهاب بصفة خاصة صفة الشجاعة التى تميز بها وأصبحت غالبة عليه؛ لذا فقد أوصى عبد الوهاب بأن يكون أفلح ولى عهده فى الإمامة، وجاءت هذه الوصية على لسان عبد الوهاب نفسه عندما كان يقاتل بنى مسألة، وكان أفلح مشتركًا معه فى هذه المعركة، وقد أعجب عبد الوهاب بشجاعته فقال لمن معه: «لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة»[1].

ومثل الإباضية هنا مثل أهل السنة عندما يشترطون فى اختيار الإمام العلم فى وقت السلم، والشجاعة فى وقت الحرب[2] وقد كانت شجاعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب سببًا فى إنهاء كثير من مشكلات الدولة الرستمية وحسمها لصالح والده عبد الوهاب، ومن ذلك على سبيل المثال قتله ليزيد بن فندين زعيم النُكّار عندما هاجم تاهرت وبمقتله لم تقم للنُكّار قائمة بعد ذلك. وكان الإمام عبد الوهاب قد حرص على إعداد أفلح ليتحمل مسئولية الحكم إذا ما اختير من بعده إمامًا وحتى يتمرس أفلح بأساليب الحكم والإدارة، فقد ترك له عبد الوهاب إدارة شئون الدولة الرستمية من العاصمة تاهرت فى أثناء غيابه فى جهات الدولة الشرقية. وقد استفاد أفلح من هذه الفترة كثيرًا، فعن طريق احتكاكه بالناس وتعامله معهم، عرفوا قدره، وخبروا مدى علمه. ويبدو أن هذه الفترة لم تكن هى الفترة الوحيدة التى أدار فيها أفلح شئون الدولة، وإنما أدار شئون الدولة مرة أخرى قبل وفاة والده عبد الوهاب بسنوات، لذا فعندما مات والده، أحسَّ الجميع أنه أنسب الشخصيات لهذا المنصب الخطير فى الدولة فتمسكوا به إمامًا لهم[3].

ويحدد ابن الصغير هذه الفترة بأنها كانت فى أعقاب آخر أعمال الإمام عبد الوهاب الحربية التى حارب فيها بنى مسألة وقضى على تمردهم وفى ذلك يقول: «ورُشح أفلح للإمارة وانقطع إليه المنقطعون ودارت إليه الحوايج والعطاء من تحت يديه، فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى اخترمت عبد الوهاب منيته فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لأفلح»[4]. وابن الصغير فى هذا النص استخدم كلمة الإمارة مشيرًا

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٢

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٢٢.

(٣) محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٣.

إلى الفترة التى تولى فيها أمر الدولة الرستمية فى أواخر عهد والده، فلما توفى عبد الوهاب صارت الخلافة من نصيب أفلح.

وجدير بالملاحظة هنا، أن إمامة أفلح بن عبد الوهاب على هذا النحو تعد خروجًا على مبدإ الانتخاب العام الذى نادت به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج؛ فقد رفض الخوارج مبدإ التقنين أو الوراثة، وطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أى الانتخاب، على أن يكون المرشح من أى جماعة من الناس حتى ولو كان عبدًا حبشيًّا[1]. ويعتبر خروج الإباضية فى الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى نوعًا من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظًا على كيان الدولة من التفتت والانقسام، من جراء الفتن والقلاقل التى كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التى تجرى عليها سائر الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدإ الوراثة[2].

وقد رضى الجميع عن أفلح فما كادت أخبار تولية الإمامة تنتشر حتى جاءته كتب العمال وصلحاء المسلمين من جميع الجهات والولايات تعلن مبايعتها له، ومن هذه الكتب كتاب أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى عامله على جبل نفوسة[3]. وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات أراد الشراة[4] منها أن يعرفوا مدى صلاحية أفلح لمنصب الإمامة، ومن ذلك أن قاضيًا من قضاة أبيه مات فى أيامه، فاجتمع الشراة إليه فسألوه أن يولى منصب القضاء من يستحقه فقال لهم: «اجمعوا جمعكم وقدّموا خيركم ثم أعلمونى به أجبره لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم»[5].

فاختاوروا لهذا المنصب محكم الهوارى - الساكن بجبل الأوراس - وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك فقال أفلح: «ويحكم دعوتم إلى رجل كما وصفتم فى ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ فى بادية ولا يعرف لذى القدر قدره ولا لذى الشرف شرفه

---

(١) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ٢٠١.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوى: المرجع السابق ٢٠٢.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٦٦.

(٤) البارونى: المصدر السابق ٢/ ٢١٠.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٣.

وإن كان ليس أحد منكم يجب أن يظلم ولكن تحبون أن يجرى فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لأغراضكم ولا امتهان لأنفسكم»، قالوا: «فأنا لا نرضى لقضائنا أحدًا غيره»[1]. وقد أثبتت الأحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الأمور، فعندما ذهب وفد الشراة إلى محكم لإخباره باختياره لمنصب القضاء قال لهم: «إن الحق مر أمر من شرب الدواء ولا يُشرب الدواء إلا كُرهًا وأنتم مرفهون أبناء نعم وغيرى أحب إليكم منى وقد نصحتكم فاقبلوا نصحيتى»[2]. ولكنهم أصروا على اختياره فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء، ومن القضايا المشهورة التى عرضت على محكم الهوارى وأثبتت صحة رأى أفلح فى محكم الهوارى، قضية كان فيها خصمان، الأول: أبو العباس أخو الإمام أفلح ـ وكان أحد المتمسكين باختيار محكم لمنصب القضاء ـ والثانى صهر الإمام أفلح، فما كان من محكم إلا أن ساوى بينهما فى مجلس القضاء، وكان أبو العباس يظن أن محكمًا سيحابيه ويفضِّله على خصمه ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فخرج أبو العباس غاضبًا حتى دخل على أخيه أفلح وقال له: «نزل بى من هذا الهوارى الشرُّ الجافى ما لم ينزل بأحد»[3] فقال أفلح: يا أبا العباس قد كفت أعلمتك بهذا من قِبل والصواب ما فعل والحق أولى أن يؤثر، ولو فعل غير هذا لكان مداهنًا فاتصل ذلك من كلامه بوجوه الإباضية فأعجبهم وأسروا به» وبالغ أفلح فى إظهار التواضع؛ إذ رأى أن شخصيته كإمام محط الأنظار من الجميع، ومن ذلك أن وفدًا من نفوسة نزلوا ضيوفًا عليه ولما حضر الطعام وقف على رءوسهم بالقنديل وهم يأكلون فمدَّ له واحد منهم لقمة مما بين أيديهم باتفاق مع رفقائه ولما كانت إحدى يديه رحمه الله مشغولة بالقنديل ولم يكن من الأدب قبوله اللقمة بيد واحدة وضع القنديل فوق ركبتيه حتى لا يختفى عنهم نوره وتلقى اللقمة بيديه ولم يتكبر فشكروه على ذلك[4].

وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع. وعن هذا الرضا والتقدير تحدث ابن الصغير فقال: «فلما ولى أفلح أخذ بالعزم والحزم ونشأ له

---

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢١٣.

من البنين ما لم يكن لغيره ممن قبله وطار له الصيت... ولم يكن الشراة تطعن عليه فى شىء من أحكامه ولا فى صدقاته ولا فى أعشاره»[1].

٢ ـ سياسة الإمام أفلح الداخلية

ترك الإمام عبد الوهاب دولة قوية مستقرة الدعائم متينة البنيان، وكان أفلح بن عبد الوهاب الذى تولى الأمر بعده ـ يدرك هذه الحقيقة المهمة ويدرك أن مجتمع دولته الذى يغلب عليه النظام القبلى فى حاجة إلى سياسة خاصة، ولم يكن أفلح بن عبد الوهاب أقل من والده حنكة ودهاء، فاستطاع بتعاليم أبيه وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الأمور فى الدولة[2].

ومن الأساليب التى لجأ إلى استخدامها سياسة إضعاف التحالف بين القبائل عن طريق الوشاية بينها، فقد كانت القبائل المنتشرة حول تاهرت قد تعاظم شأنها نتيجة ما اكتسبوه من الأموال بسبب الرخاء الاقتصادى الذى عمَّ الدولة، واتخذت هذه القبائل العبيد والخيول حتى خاف أفلح أن تجمع هذه القبائل عليه أو تؤثر على مكانته، لذا عمد إلى استخدام جهاز من الأعوان أشبه ما يكون بجهاز المخابرات ووظيفة هؤلاء الأعوان إلقاء الأحقاد والفتن بين القبائل الكبرى حول تاهرت[3]. وقد نجحت هذه السياسة أيما نجاح فى اضعاف مركز هذه القبائل وإبطال ما قد قد يقوم بينها من تحالف. يقول ابن الصغير: «فلما رأى ذلك أفلح بن عبد الوهاب أرش ما بين كل قبيلة ومجاورها فأرش بين لواته وزناتة وما بين لواته ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفًا من أن يعين صاحبتها عليها»[4].

ولم يألُ أفلح جهدًا فى القضاء على ثورة خلف بن السمح تلك الثورة التى كانت تفتُّ فى عَضُد الدولة من أيام والده عبد الوهاب، وبعد تولى أفلح منصب الإمامة وصلته من أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى ـ عاملة على جبل نفوسة ـ رسالة يطلب

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٣.

(٢) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٩.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٧.

(٤) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣٢، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٦٦.

فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمح للقضاء على حركته[1]، ولكن أفلح لم ير هذا الرأى وأمر أبا عبيدة أن يساير خلفًا ويلاطفه، ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توطد الأمن وتحقن الدماء. ولكن خلفا ظن ذلك ضعفًا من الإمام وعامله فاتجه بأتباعه إلى ناحية «تمتى» وما يليها شرقًا وهناك استطاع خلف أن يجند جيشًا ضخمًا تقدم به قاصدًا ناحية «حاور» فخرج إليه أبو عبيدة والتقى طليعة من طلائع جيش خلف كانت قد أغارت على قرية «أدرف» من قرى جبل نفوسة وقتلوا من أهلها عشرة رجال، ولم يصمد رجال خلف طويلا أمام أبى عبيدة ففرّوا عائدين إلى خلف الذى انسحب بهم من حيث أتى[2].

وفى إطار سياسة الملاطفة التى أمر أفلح «أبا عبيدة» أن يلتزم بها أرسل أبو عبيدة كتابًا إلى خلف يدعوه إلى الكفّ عن الفساد أو الالتزام بالناحية التى هو فيها، وفى ذلك يقول أبو عبيدة «وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن فى حيزك وأكون فى حيزى وما بال الحرب»[3]. ورغم هذه المحاولات من جانب أبى عبيدة فإن خلف استعد لجولة ثانية مع أبى عبيدة فخرج ليه بعد سنة فى أربعين ألف جندى، وقامت بقايا النُّكّار من أتباع يزيد بن فندين بمحاولات لصرف أبى عبيدة عن حرب خلف، ودعوه إلى خلع طاعته لأفلح بن عبد الوهاب، ولكن أبا عبيدة رفض هذه الدعوة؛ كما رفض محاولة ثانية قام بها رسولان أرسلهما خلف لدعوة أبى عبيدة إلى خلع الإمام أفلح والدخول فى طاعة خلف بن السمح، ولم يجد أبو عبيدة بدًّا من لقاء خلف مرة ثانية رغم قلة عدد قواته فاستند أبو عبيدة الجبل، وبالقرب من جارو دارت بينه وبين خلف معركة انتصر فيها أبو عبيدة عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١هـ وفرّ خلف من المعركة بعد أن قتل من جنده أعداد كثيرة[4].

ولم يرتدع خلف بن السمح إلا على يد العباس بن أيوب الذى تولى شئون جبل نفوسة بعد وفاة أبى عبيدة، ودارت بين العباس وخلف معركة فاصلة عند موضع «فاغيس» بالقرب من «تمتى» ورغم ما يذكره الشماخى من ضعف شوكة خلف بسبب

---

(١) الدرجينى: المخطوطة السابقة ورقة ٣٢، البارونى: المصدر السابق جـ٢ ١٦٨.

(٢) الدرجينى: المخطوطة السابقة ورقة ٣٢.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٦٨.

(٤) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣٣.

هذه الحرب، فإن فرقة الخليفة ـ أتباع خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى ـ ظلت حية بين فرق الإباضية الأخرى فى إقليم طرابلس وجبل نفوسة[1]. ومن المشكلات الداخلية التى واجهت أفلح بن عبد الوهاب فى جبل نفوسة، خروج فرج النفوس المعروف بنفات بن نصر عن طاعة الإمام أفلح وطعنه فى الأئمة الرستميين، وكان نفات هذا من إحدى القرى الغربية القريبة من قنطرارة فى جبل نفوسة، وقد وفد إلى تاهرت لتلقى العلم فى صحبة صديقه سعد بن أبى يونس الذى كان والده عاملًا على قنطرارة من قِبل الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وفى تاهرت ارتادا معًا مجالس الإمام أفلح وغيرها من المجالس العلمية وأصحبا من الشخصيات المعروفة لدى الإمام وغيره من العلماء. وبعد وفاة والد سعد قرر أفلح ـ بعد أن شاور أهل الرأى ـ أن يتولى سعد عمل قنطرارة خلفًا لوالده؛ لما لمسه فى سعد من الصلابة فى الدين وحسن التجربة والوقوف عند نواهى الشرع[2]. فأوغر ذلك صدر نفات على الإمام، فما لبث أن عاد إلى قريته وهناك خرج على الإمام وأشهر الطعن فيه قائلا: «إن أفلح» أضاع أمور المسلمين ويزيد فى الخلقه إذا مشا ويلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد ويصلى بالأشبور[3].

يضاف إلى ذلك أن نفاثًا خالف المسلمين كما يقول البارونى فى عدة أمور، منها:

١ ـ قوله إن الله هو الدهر الدائم.

٢ ـ إنكاره الخطبة فى صلاة الجمعة وادعاؤه أنها بدعة وضلال.

٣ ـ إنكاره استعمال الإمام للعمال والسعاة فى جباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا.

٤ ـ قوله إن ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ لأب.

٥ ـ وقوله إن المضطر بالجوع لا يمضى بيع ماله إذا باعه لأجل ذلك، وعلى من شهد مضرته تنجيته.

---

(١) الشماخى: السير ١٨٧، د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣٤، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣٥.

٦ ـ وقوله إن الفقد لا يتحقق إلا فيمن تجاوز البحر[١].

«ولما بلغ الإمام خبر نفات وانتقاده عليه قال: ليأت إلينا نفات فيوضح لنا ما أنكره منا فإن كان حقًّا قبلناه وإن كان باطلًا «فإيه» فلما سمع نفات ذلك وعلم بطلان حجته قال: إن كلمة «ايه» من السلطان هي القتل عينه فإلى أين أذهب؟ وبقي على ذلك والإمام لم يأذن فيه بشيء والعمال لم يتجاسروا على معاملته بسوء انتظارًا الإذن الإمام فيما يراه من الحكم، إلى أن شاع أمره وذاع خبر خلافه وفساد عقيدته، فكتب عمال الإمام الذين بلغهم خبره إليه ببيان حاله ومسائله التي خالف فيها»[٢].

والنص السابق يبرز لنا حقيقة مهمة تتجلى في المبدإ المهم الذي سار عليه أفلح بن عبد الوهاب متأسيًا بمن سبقه من الأئمة الرستميين ألا وهو مبدأ احترام حرية الفكر والرأي لسائر الأفراد في الدولة، وقد رأينا قبل ذلك عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم يناقش الواصلية ويفند آراءهم ويفسح المجال للمناقشة معهم على جميع المستويات، والطريقة والأسلوب نفسهما يدعو أفلح نفاثًا لعرض أفكاره أمامه فإما أن يقتنع الإمام، وإما أن يقنع الإمام نفاثًا.

وخوفًا على ما قد تُحدثه آراء نفات من بلبلة بين العامة فقد بعث أفلح بالرسائل إلى العمال كي يقرءوها على العامة لتحذيرهم من آراء نفات، وفي الوقت نفسه بعث إلى نفات برسالة أخيرة تشير إلى انتهاء مرحلة اللين معه[٣]. فخاف نفات على نفسه وجمع أمواله وهرب إلى أرض سرت ومنها إلى بغداد حيث أقام هناك[٤] وظل هناك في جبل نفوسة بعض الذين تأثروا بأراء نفات بن نصر وظلوا يحملونها؛ لذا عُرفوا بالنفاثية[٥]. وعن طريق احترام أفلح مبدإ حرية الفكر والرأي في دولته استطاع أيضًا أن يجذب الواصلية ويستميلهم إلى جانبه بعد أن كانوا أعداء لوالده بالأمس، فأصبح رئيسًا للواصلية إلى جانب كونه رأسًا للإباضية والصفرية، ونجح بهذا في احتواء هذه

---

(١) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٥، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٥-١٩٦.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٩.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٠٤.

(٤) الباروني: المصدر السابق ٢/ ٢٠٦.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٨.

الجماعات. وفى ذلك يقول البكرى: «وكان ميمون «أفلح بن عبد الوهاب» رأس الإباضية وإمامهم وإمام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة[1]. وتدعيمًا لأركان الدولة ظل الإمام أفلح يكتب الكتب إلى العمال الذين يقومون بدورهم فى نقلها إلى العامة، وتدعوهم هذه الكتب إلى تقوى الله، وأتباع آثار السلف الصالح وأن يقوموا لله بالعدل فى عباده وبلاده»[2]. وكان لهذه الرسائل أثرها فى تهدئة الأحوال فى الدولة، حتى أصبح عهد أفلح بن عبد الوهاب عهد ازدهار الدولة الرستمية.

٣ - مظاهر ازدهار الدولة في عهد أفلح بن عبد الوهاب

ساد الهدوء فى بلاد الرستميين ومن ثم اتجهت طاقات أبنائها إلى العمل على تقدم الدولة وازدهارها، وبدأت طلائع هذا التقدم تظهر فى حياة الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى شمخ فى ملكه وأخذ فى بناء القصور واتخذ لها أبوابًا من الحديد وبنى الجفان وأطعم فيها فى أيام الجفان «وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق»[3].

أما البلاد فقد حفلت بأنواع التجارات التى عادت على الناس بأرباح وفيرة أنفقوها فى البناء والعمران، وتنافس الناس فى البنيان حتى ابتنوا القصور والضياع خارج تاهرت، وشقُّوا لها الأنهار لحمل الماء إليها، واتخذ أغنياء تاهرت لأنفسهم قصورًا غاية فى الأبهة والعظمة، ذكر منها ابن الصغير قصرى أبان وحمويه باملاق، وقصر عبد الواحد الذى كان معروفًا باسمه حتى أيام ابن الصغير[4]. وقد أعجب ابن الصغير بجمال هذه القصور وروعتها ودقة النظام بها، الأمر الذى دفعه إلى وصف قصرى أبان وحمويه فيقول «ولقد حدثنى بعض من أثق به أن أبان وحمويه خرجا يومًا إلى قصورهما متنزهين ومعهما جماعة من إخوانهما، فذكر بعضهم أنه قال: لما أشرفنا على القصرين سبق بنا بعض عبيدهما فأعلموا سكان القصرين بقدومهما قال: فتشوق من كان بالقصرين إليهما فوالله ما رأيت شرافة من القصرين إلا وعليها ثوب أحمر

---

(١) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧ - ٦٨.

(٢) البكرى: المصدر السابق ٦٨.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٦.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦.

وأصفر على الجدار كالبدور»[1]. وإلى جانب هذه القصور الضخمة كانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابتنت نفوسة لنفسها حي «العدوة» وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هربًا من بطش الأغالبة ببناء حيهم الذي أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم «المدينة العامرة»[2].

وكان للعجم دورهم فى إثراء الدولة الرستمية وازدهارها، عن طريق التجارة التى كانوا يمارسونها، وقد رأينا أحدهم وقد ابتنى سوقًا تجارية عُرفت باسمه وهى سوق ابن وردة، وكذلك انتشرت قصور العجم فى أنحاء تاهرت[3]، وصارت مؤسساتهم التجارية تكوّن جزءًا مهمًا من اقتصاديات الدولة الرستمية. ولم تكن مظاهر الازدهار هذه مقصورة على تاهرت قائمة فيها، وإنما انتقلت إلى سائر جهات الدولة فنالت القبائل حظَّها من الثورة، وظهرت عليها آثار الرخاء، يقول ابن الصغير: «وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم»[4]، ويقول فى موضع آخر: «وآمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أطغت أهل الحواجز والبوادى»[5].

كما نالت الدولة أيضًا حظَّها من الازدهار الثقافى فاصبحت تاهرت مركزًا ثقافيًا مهمًا كغيره من المراكز الثقافية الإسلامية، فعرف الرستميون الثقافة ونبغوا فى مناحيها، وخصوصًا الثقافة الدينية؛ لأن الأئمة الإباضية كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم ومبادئهم بالحجة الدامغة والدليل القوى[6]. لذا فقد امتلأت مساجد تاهرت بطلاب العلم يتلقونه على أيدى كبار علماء الإباضية فى أصول الدين والشريعة والرياضيات والطب والكيمياء والتنجيم، وشاركت المرأة الرستمية فى هذه النهضة الثقافية، فكانت أخت الإمام أفلح ممن نبغن فى علم الحساب والفلك والتنجيم، بل إن أفلح نفسه كان ممن ضربوا فى زحمة كل فن من فنون العلم، فنبغ فى الأدب وقال الشعر، وقد أورد البارونى لأفلح

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٦.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٧.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦ـ٢٧.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٧.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٧.

(٦) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائرى ٣٠ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

قصيدة طويلة بلغت ثمانية وثمانين بيتًا يدعو فيها إلى الإقبال على العلوم الدينية[1] نذكر منها:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحيى به ذكرهم طول الزمان	قد يريك أشخاصهم روحًا وأبكارا
يحيى وإن مات ذو علم وذو ورع	إن كان في منهج الأبرار ماما را
أو أنها غيَّرت أشخاصهم ومضوا	ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة	ولا يبالى أحيًّا نال أم عارا[2]

والذي يظهر من هذا العمل الأدبى أن الثقافة المشرقية أصبح لها جذور ثابتة فى بلاد المغرب، وكانت هذه المحاولات من جانب أفلح بن عبد الوهاب فى مجال الشعر مقدمة لظهور الأدب المغربى بعد ذلك.

وكان لازدهار الدولة الرستمية على هذا النحو آثاره الخطيرة على جيرانهم؛ فقد تضَّخم مُلك الرستميين تضخمًا كبيرًا وتألق نجمهم فى سماء المغرب كله، وأصبحت تاهرت، تحتل مكان الصدارة فى بلاد المغرب[3]. وقد أحسَّ الأغالبة خطورة هذا الأمر على مركزهم السياسى والاقتصادى، فقام أبو العباس محمد بن الأغلب[4] ببناء مدينة قرب تاهرت سمَّاها العباسية سنة ٢٣٩هـ[5]؛ لتقف فى وجه الرستميين وتجذب الأنظار عنهم وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت، لذا لم يدخِّر أبو العباس محمد بن الأغلب وسعًا فى ترتيب أسواقها على نسق وترتيب غريب[6].

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٥.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٠.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٥٦٨.

(٤) هو محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أبو العباس سادس ملوك الدولة الأغلبية بإفريقية، ولى بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٦هـ ودانت له البلاد وحسنت سياسته فاستمر إلى أن توفى بالقيروان سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م وكان مولده سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م من آثاره بناء قصر سوسة وجامعها سنة ٢٣٦هـ قال ابن الخطيب: «كان مظفرًا فى حروبه على ما فيه من جهل وأفن واستغراق فى اللهو». انظر المزيد فى: أعمال الأعلام ١٠، الخلاصة النقية ٢٨، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٠٠، البيان المغرب ١/ ١٠٧، الكامل ٦/ ١٧٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٦/ ٥١٩.

(٦) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٨٦.

وهذا ما يفسر أهمية السبب الاقتصادى الذى أقيمت العباسية من أجله. ورغم أن أفلح بن عبد الوهاب سالم جيرانه الأغالبة ـ بادئ ذى بدء جريًا على ما سار عليه والده عبد الوهاب ـ فإنه رأى أن فى إقامة العباسية تهديدًا لسلامة الدولة الرستمية وأمنها[١]. فما كان منه إلا أن سكت حتى أتم أبو العباس محمد بن الأغلب بناءها ونظم أسواقها فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم فيها النيران وأحرقها عن آخرها[٢]. ولم يكن فى استطاعة محمد بن الأغلب أن يفعل شيئًا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم آثر السلامة ولاذ بالصمت[٣].

٤ ـ وفاة الإمام أفلح

وكان للإمام أفلح بن عبد الوهاب ولدان هما: أبو بكر وأبو اليقظان... واشتهر أبو اليقظان بالتقوى والورع، وقد أبدى رغبته قبيل وفاة والده أفلح فى الحج إلى مكة. وعندما وصل أبو اليقظان إلى مكة وطاف وسعى اكتشف رجال بنى العباس وجوده بين الحجيج وسمعوا أن أبا اليقظان قدم من المغرب يرتاد البلاد، ويرسل رسله فى كل الآفاق إلى كل من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب. قبض العباسيون على أبى اليقظان ومعه رجل من نفوسة كان يخدمه وحُمل الاثنان معًا إلى بغداد؛ حيث أمر الخليفة العباسى الواثق بحبس أبى اليقظان، وفى السجن التقى أبو اليقظان «المتوكل أخى»[٤]

---

(١) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٦/ ٥١٩، ابن خلدون: العبر ٤/ ٢٠٠، البلاذرى: فتوح البلدان ١/ ٢٧٧.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٨.

(٤) هو جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد أبو الفضل: خليفة عباسى، وُلد ببغداد سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ وكان جوادًا ممدحًا محبًا للعمران، من آثاره: المتوكلية ببغداد أنفق عليها أموالًا كثيرة وسكنها ولما استُخلف كتب إلى أهل بغداد كتابًا قرئ على المنبر بترك الجدل فى القرآن، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه، ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى دمشق فأقام بهذه شهرين فلم يطب له مناخها فعاد وأقام فى سامراء إلى أن اغتيل فيها ليلًا بإغراء ابنه المنتصر، ولبعض الشعراء هجاء فى المتوكل لهدمه قبر الحسين وما حوله سنة ٢٣٦هـ وكثرة الزلازل فى أيامه فعمر بعض ما خربت. وكان يلبس فى زمن الورد الثياب الحمر ويأمر بالفرش الأحمر ولا يُرى الورد إلا فى مجلسه، وكان يقول: «أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين وكل منا

الخليفة الواثق[1] فأصبح صديقًا حميمًا له، وسيصبح لهذه الصداقة أثرها في حياة أبي اليقظان بعد ذلك[2].

ولما علم بما حدث لولده أبي اليقظان اشتد حزنه «وطال غمه به فلم يزل مهمومًا محزونًا إلى أن وافته منيته وابنه محبوس ببغداد[3] وكانت وفاته سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م[4].

أولى بصاحبه». انظر المزيد في: تاريخ بغداد ٧/ ١٦٥، النبراس ٨٠ـ٨٥، ثمار القلوب ١٤٩، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٨، الكامل ٧، ١١ و ٢٩، تاريخ الطبري ١١/ ٢٦ و ٦٢، مروج الذهب ٢/ ٢٨٨.

(١) هو هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسي أبو جعفر، من خلفاء الدولة العباسية بالعراق. وُلد ببغداد سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ فامتحن الناس في خلق القرآن وسجن جماعة، وقُتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي بيده سنة ٢٣١هـ قال أحد مؤرخيه: كان في كثير من أموره يذهب مذهب المأمون وشغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم ومات في سامراء قيل: بعلة الاستسقاء. وقال ابن دحية: كان مسرفًا في حب النساء ووصف له دواء للتقوية فمرض منه وعولج بالنار فمات محترقًا. كان كثير الإحسان لأهل الحرمين حتى قيل إنه «لم يوجد بالحرمين في أيامه سائل». انظر المزيد في: الكامل ٧/ ١٠، تاريخ الطبري ١١/ ٢٤، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٤، الأغاني ٩/ ٢٧٦ـ٣٠٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٧، معجم الشعراء ٤٨٤، النبراس ٧٣ـ٨٠، مروج الذهب ٢/ ٢٧٨ـ٢٨٨، تاريخ بغداد ١٤/ ١٥.

(٢) ابن الصغير: سيرة الرستميين في تاهرت ٢٧ـ٢٨.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٠.

(٤) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٢١، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ١٩٧، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٦و ٣٧، أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣١ ب.

الفصل الرابع
خلفاء أفلح بن عبد الوهاب
(٢٤٠ - ٢٩٦هـ / ٨٥٤ - ٩٠٨م)

(أ) إمامة أبى بكر بن أفلح ٢٤٠ ـ ٢٤١هـ/ ٨٥٤ ـ ٨٥٥م

نعمت الدولة الرستمية بالرفاهية التامة فى عهد أفلح بن عبد الوهاب؛ إذ إن أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة، لذا احتفظت الدولة فى عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين سائر جيرانها. وبوفاة أفلح بن عبد الوهاب سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م تغيرت الأمور، إذ تولى الإمامة ابنه أبو بكر الذى لم يكن على المستوى المطلوب للحاكم الذى يسوس دولة لها أهميتها مثل الدولة الرستمية. وقد اجتمع أهل الحل والعقد من نفوسة وغيرهم وعقدوا الإمامة لأبى بكر بن أفلح سنة ٢٤٠هـ[1]؛ لأنهم لم يجدوا غيره فى أبناء البيت الرستمى: فأخوه أبو اليقظان مقبوض عليه فى بغداد، ويعقوب بن أفلح مازال صغيرًا حدث السن لا ينفع للإمامة[2]. لم يستطع الإباضية بذلك تطبيق مبدإ الانتخاب العام أو التخلص من مبدإ الوراثة «أو أنهم لم يستطيعوا التخلص من أفكارهم الأولى عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الإمامة وراثية فى أهل البيت»[3]. ورفض الكثيرون من الإباضية ممن يؤمنون بمبدإ الانتخاب العام إمامة أبى بكر؛ فقد «كان عبد العزيز بن الأوز ينادى بأعلى صوته: الله سائلكم معاشرة نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من

---

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٢١.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٩.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٨٦.

هو أتقى وأرضى فلا يلتفتون إلى كلامه ولا يشتغلون بمقالته»[١]. وواضح عن هذا النص أن هناك قوة سياسية ضخمة وهي قوة نفوسة في تاهرت كانت تحافظ على بقاء الإمامة في البيت الرستمي رغم معارضة المعارضين ورفض بعض الناس إمامة أبي بكر[٢].

كان أبو بكر ضعيفًا ليس فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه، وكان سمحًا جوادًا كما يقول ابن الصغير «يسامح أهل المروات ويشايعهم على مروائهم وبحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين»[٣].. لذا مال إلى الخمول والكسل والراحة وانصرف إلى حياة اللهو والترف، تاركًا شئون الدولة لصهره محمد بن عرفة الذي سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح بن عبد الوهاب وملك السودان[٤]. وكان محمد ابن عرفة هذا قد تزوج بأخت أبي بكر بن أفلح، وفي الوقت نفسه كان لمحمد بن عرفة أخت أو بنت جميلة تزوجها أبو بكر[٥]؛ لهذا تضخم نفوذ ابن عرفة وأصبح له سلطان كبير في الدولة الرستمية، وقد سجل ابن الصغير هذا فقال: «فكانت الإمارة بالاسم لأبي بكر» وبالحقيقة لمحمد بن عرفة[٦]، وقد ترتب على ذلك ضعف سلطة الإمام على القبائل مما أدى إلى زيادة الخلافات بين هذه القبائل «فكانت الحروب بينها تهيج ثم تسكن على حد تعبير ابن الصغير»[٧]، بل إن الخلافات تطرقت إلى داخل بعض القبائل الكبرى في الدولة وأدت إلى انقسامها ولاسيما هوارة «فإنها تحاسرت حتى انقسمت، فانحاز قسم منها يُعرف ببني أوس إلى من والاه من القبائل الأخرى، وانحاز القسم الآخر ويُعرف بترهنة كذلك إلى غيرها[٨].

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣١.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٢٢.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣١.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣١.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٢٣.

(٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣١.

(٧) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٢.

(٨) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٢٤.

وفي تلك الأثناء عاد أبو اليقظان من العراق ـ بعد أن أطلق سراحه الخليفة المتوكل العباسي ـ «فوجد «أبو اليقظان» أخاه أبا بكر أميرًا، والعجم على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم وسائر الناس على ما هم عليه، فلم يغير شيئًا ولم ينكره ولا ادّعى إمارة ولا نازع فيها أخاه»[1]، وانصرف أبو بكر إلى ملذاته وشهواته وترك إلى أبى اليقظان تسيير أمور الدولة، فكان أبو اليقظان يجلس في المسجد إلى الناس والعمال والقضاة وأصحاب الشرطة لإجراء الحقوق إلى الناس، عظم قدرهم أو صغر، فإذا كان آخر النهار ذهب إلى أخيه أبي بكر فإن وجده جالسًا أعلمه بما حدث في يومه من خير وحكم، فإن لم يجده قال لمن علم أنه يصل إلى حرمته: «اقرأ على الأمير السلام، وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادية وإذا كان في الليل ركب وطاف في المدينة حتى أقصاها ويحكم الأمر الضرورى ويأمرهم إذا حدث حادث أن يوافوا داره فإذا حكم جميع ذلك انصرف إلى داره»[2].

وبينما كان أبو اليقظان يُحكم تدبير الدولة وشئونها، كان نفوذ ابن عرفة في ازدياد وصيته في دوى وأسهمه في ارتفاع، مما أوغر صدر رؤساء الإباضية عليه، حتى إذا واتتهم فرصة الاجتماع بأبي بكر قالوا له: «إنك ذاهب ونحن ذاهبون. قال: وكيف ذلك؟ قالوا له: ما نحسب أنك تعلم مجيء ابن عرفة إذا جاء فيمن يجيء ولا انصرافه إذا انصرف فيمن ينصرف ولا اجتماع الناس عند بابك إذا جاء ولا خلوه إذا انصرف»[3]. أقلقت هذه الأخبار أبا بكر بن أفلح وأراد أن يتأكد بنفسه من صدق ما وصله من أقوالهم، فنظر من طاقة في أعلى قصره إلى الجهة التى يأتي منها محمد بن عرفه، فإذا هو قادم في موكب من الناس قد بادروا إليه من كل جانب، فنزل أبو بكر إلى مجلسه وقد هاله ما رآه من أمر محمد بن عرفة، وتكرر هذا المنظر ثانية حين انصرف محمد بن عرفه فصعد أبو بكر إلى الطاقة نفسها ونظر منها «فإذا الأمم التى أقبلت قد انصرف وبقى بابه خاليًا فتحقق عنده ما قال القائل»[4].

---

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٢.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٣

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٤.

ويذكر ابن الصغير أن أبا بكر استشار أحد أصحابه في أمر محمد بن عرفة، فأشار عليه بقتله على أن تتم عملية القتل في سرية تامة. وتردد أبو بكر فيما أشار به صاحبه، وكان يقول: «أحسب نفسي تطوع في ذلك ولا سيما أخته تحتي وأختي تحته حتى أنا شككت في البنت أو الأخت، ومتى ما فعلت ذلك تنغصت حالي وكفت كقاطع كفي بكفي»[1]، ولكن عواطف أبي بكر بن أفلح ما لبث أن تبددت وأرسل يدعو محمد ابن عرفة إلى نزهة خلوية في حدائق تسمى «جنان الأمير» دون أن يحضر معه أحد من حاشيته أو عبيده، وفي «جنان الأمير» قضى الاثنان يومهما حتى إذا جاءت صلاة المغرب، ووقفا للصلاة أشار أبو بكر إلى غلامه فضرب محمد بن عرفة بحربة كانت بيده بين كتفيه فأرداه قتيلاً[2]. ويصور ابن الصغير ذلك المشهد الرهيب فيقول: «فلما علم ذلك أبو بكر قال لغلامه زمّله بثيابه واحمله على فرسه ففعل الغلام ما أمر به وركب أبو بكر فرسه وشيء بين يدي الغلام والغلام خلفه حتى أتى جبلاً قد تقسم نصفين له هواة أعظم يُعرف ذلك الموضع بالشقة الحمراء فقال له: ألقه في الهواة، فألقاه فيها وأمره أن يغيب فرسه ولا يُظهره وانصرفا حتى دخلا المدينة[3].

وأحدث تغيب ابن عرفة درجة عظيمة في تاهرت، فخرج أتباعه وأنصاره يبحثون عنه حتى وجدوا جثته فحملوه إلى النهر الذي قُتل عنده «وبعثوا إلى داره وأتوا منها بفرس له، وكسوة طاهرة وسيفه فغسّلوه في النهر وأنظفوه وطيّبوه ثم كسوه ثيابه وقلدوه سيفه وحملوه على فرسه وجعلوا خلفه رجلاً يحبسه حتى أتوا به مدينة تاهرت فابتدر إليه العامة والخاصة والنساء والصبيان وألحق الناس من الجزع ما لم يلحقهم في قتيل قبله، وقام منادٍ ينادي بين يديه: ألا إن القتيل المظلوم يأمركم بطلب ثأره ودمه، فعجّل الناس بجهازه ودفنه ثم جلسوا حلقًا حلقًا يذكرون أمرهم[4].

الحرب الأهلية في تاهرت

كانت ردود الفعل لمقتل ابن عرفة قوية عنيفة في تاهرت؛ حيث تجمع أنصار

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٤.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٦.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٨٨، ابن الصغير: المصدر السابق ٣٥.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٦ - ٣٧، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٣٠.

محمد بن عرفة بقيادة محمود بن الوليد ومعهم جند القيروان بقيادة خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم[1] وكان هؤلاء الجند قد أعلنوا في مناسبات كثيرة تمردهم على الأغالبة واستقروا بتاهرت وأسسوا لهم ربضًا كبيرًا بها يُعرف بالمدينة العامرة، وطبيعي أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدون أنصار محمد بن عرفة في محنتهم لابن عرفة عربي وقروي مثلهم وافد من القيروان[2]. وإلى جانب هؤلاء الثائرين وقف عدد من وجوه التجار في تاهرت منهم أبو محمد الصيرفي وابن الواسطي[3]، وقد دفع هؤلاء التجار الكثير من أموالهم رغبة منهم في تحطيم الإمامة وإنهائها، وكانوا يقولون للمطالبين بثأر ابن عرفة من العرب والجند: «لو بنيتم حصنا تأمنون فيه ليلكم وتتحصنون فيه إن دهمكم شيء من عدوكم وهذه أموالنا في أيديكم. فشرعوا في بناء الحصن ولم يكن بين حصنهم وحصن عدوهم إلا قدر رمية رام بسهم»[4]. هؤلاء هم الثائرون المطالبون بثأر محمد بن عرفة. أما الإمام أبو بكر بن أفلح فلم يكن معه سوى خاصته من الرستميين وبعض المسيحيين، وقد خاض بهم معاركه الأولى مع العرب والجند. أما العجم فقد انتهزوا فرصة اشتغال العرب والجند في مقاتلة الإمام وأتباعه وهاجموا أطراف المدينة التي يمتلكها العرب والجند[5]. أما أبو اليقظان بن أفلح فقد آثر عدم الخوض في هذه الحرب هو ونفوسة بل إنه انتقل إلى عدوة نفوسة وأقام بها. وإن كان العرب والجند ينظرون إلى موقف أبي اليقظان هذا بكثير من الشك ويرونه يحرض عليهم في السر[6]. تحولت الحرب الأهلية في تاهرت إلى حرب بين العجم والعرب ومعهم جند القيروان، أما أبو بكر بن أفلح فقد تشاءم الناس منه، فبقي في داره لا يأمر ولا ينهى[7]، ومما يلاحظ هنا أن العناصر المتصارعة في هذه الحرب

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٦.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب العربي ٥٦٠، محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٥٧١

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٨ - ٣٩.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٩.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٠

(٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٧.

(٧) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٧.

الأهلية لم يكن هدفها الأساسي هو الثأر لمحمد بن عرفة بقدر ما كان هدفها تحقيق مصالحها الخاصة وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: أن جند القيروان برغم عدائهم للأغالبة فقدّ اندسّ بينهم عدد من جواسيس الأغالبة الذين قاموا فى الدولة الرستمية بأعمال الطابور الخامس، بهدف تقويض هذه الدولة والقضاء عليها، وكان لخلف الخادم ـ مولى الأغلب بن سالم ـ دور خطير فى القيام بمثل هذه الأعمال، فقد كانت له «أموال عظيمة فأعان القوم بنفسه وماله»[1] كما كان خلف المحرض الأول للعرب والجند لإحراق درب النفوسيين ليقحمهم فى الحرب الأهلية. ولم يفت ابن الصغير أن يذكر هذا العمل من أعمال خلف فأشار إليه بقوله: «وكانت العرب والجند إذا غلبت على العجم أخرجتها من بعض ديارها فى حالها، فقال لهم خلف الخادم: وما تصنعون شيئًا إذا غلبتم على شيء من ديارهم فأضرموه نارًا فلما كان اليوم الثانى وقع الحرب فيه بجوار درب النفوسيين... وكان أكثره للعجم وبعضه لنفوسة واضرمت الدرب نارًا فغضبت نفوسة[2].

ثانيًا: أن العجم عندما شرعوا فى الحرب مع العرب والجند، كان هدفهم أن تصبح لهم المكانة الأولى والأخيرة فى تاهرت إذ قاموا بدور المنقذ للبلاد والسلطان، وقد أشار إلى هذا ابن الصغير بقوله «فلما رأت العجم ما نزل بين الفريقين من السباب والقتل قالوا: قد أمكننا فى العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نثبت على طرف المدينة فنقتل مقاتلتهم ونخرب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيصفو لنا البلد والسلطان وقد وقع بينهم وبين سلطان البلد «أبو بكر بن أفلح» من الفتق ما لا يرتفق أبدًا له»[3].

ثالثًا: كانت الضغائن التى بذرها أفلح بن عبد الوهاب بين القبائل قد عملت عملها، وظهرت سافرة فى عهد أبى بكر بن أفلح، وما لبثت أن طفت إلى السطح مرة أخرى حتى أصبحت الحرب لا تفتر ليلًا ونهارًا، وحميت بينهم حمية الجاهلية،

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣٧.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٧ - ٣٨.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٨.

وصارت الحرب بينهم على قول ابن الصغير «سعة ورباء»[1]. ولما نجح الجند في إحراق درب النفوسيين دخلت الحرب الأهلية في تاهرت مرحلة جديدة، فقد وجدت نفوسة صفوفها مع العجم والرستمية بقيادة أبي اليقظان بن أفلح لإنقاذ الأمور المتدهورة في تاهرت، وقد أحرز هذا التحالف انتصارات متتالية على العرب والجند في وقائع كثيرة منها واقعة قنطرة الدمتس وواقعة قنطرة سليس وواقعة الرد الحواج[2] ولكن موقف أبي اليقظان وحلفائه بدأ في الضعف والتراجع أمام قوة العرب والجند المتزايدة، حتى أنهم تفرقوا خارج تاهرت فنزلت العجم بموضع يقال له تنابغيلت وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت، ولحق الرستميون بأبي اليقظان واستقروا عند موضع يقال له «اسكدال» وهو على مسيرة يوم بقبلة تاهرت أما نفوسة فنزلت بقلعة نفوسة التي بنوها في عدوتهم المشهورة بعدوة نفوسة[3] أما أبو بكر بن أفلح فقد خرج مع من خرج من تاهرت لا حيا ولا ميتًا كما يقول ابن الصغير[4] ويدل هذا التعبير من ابن الصغير على مدى ما كان فيه أبو بكر من حالة سيئة وإحساس بالألم لما جناه على نفسه وعلى الناس.

وقد انتهز محمد بن مسألة الهواري الإباضي فرصة خروج الرستميين من تاهرت فاستولى عليها وأصبح لهوارة اليد العليا في تاهرت «وكانت لواته إذ ذاك بالمدينة مع أهل المدينة فتسلطت عليها هوارة بسلطانها وأعانها أهل المدينة، فلما رأت لواته ذلك طعنت عن المدينة وخلت عنها ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواته»[5]. وكان لخروج لواته من تاهرت تغيير في ميزان القوى مرة ثانية في صالح الرستميين، فقد أرسلت لواته إلى أبي اليقظان ودعته إلى النزول إلى جوارها بموضع يقال له «تسلونت» التي تخرج من عندها عيون نهر مينة الذي يجري إلى تاهرت. وهناك

---

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٨ - ٣٩.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٨.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٨ - ٣٩.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ١٩٧.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ١٩٧.

تمت مبايعة أبي اليقظان بالإمامة بعد أن اعتزلها أخوه أبو بكر بن أفلح سنة ١٤١هـ[١] «فصارت الدعوة والإمامة كلها لأبي اليقظان وأتته الإباضية من كل الأقطار»[٢] ومن تاهرت نفسها خرج الكثيرون ممن يحبون أبا اليقظان فأعلنوا ولاءهم له وبايعوه بالإمامة[٣].

ظل أبو اليقظان يهاجم تاهرت طيلة سبع سنوات متتالية دون جدوى، فأرسل في طلب العون العسكري من جبل نفوسة فلبَّت قبائل الجبل نداءه وأرسلت إليه أعدادًا وفيرة من الرجال، تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل في غرب تاهرت «فلما نزل منزله قالت نفوسة: لا نقاتل حتى نرسل إلى إخواننا وننذرهم فإن جاءوا ورجعوا إلى الطاعة، كانت أيدينا وأيديهم واحدة وإن أبوا منا ذلك نزلنا معهم على حكم الله[٤]. وما أن وصل رسل نفوسة إلى تاهرت حتى وجدوا الناس قد ملّوا الحرب فاتفقوا معهم على عقد الصلح مع أبي اليقظان على ألا يأخذ أحدًا بما سلف من أعماله «ثم خرجت طائفة من عسكر أبي اليقظان حتى اجتمعت بطائفة من أهل المدينة فعقدوا ذلك فيما بينهم[٥]. وأكدت نفوسة أهمية هذا الصلح للمجتمعين حيث قالت: «إنما جئنا لإصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا ولم نأت لطلبه علو في الأرض أو فساد»[٦].

وفور توقيع الصلح جرت الاستعدادات لدخول تاهرت، فرحل أبو اليقظان بعساكره حتى وصل إلى الظاهر المشرف على مدينة تاهرت المعروف بقلعة نفوسة، وهناك ضرب الإمام سرادقه الذي قدم به من بغداد. وكان سرادقًا عظيمًا، وهو أول سرادق يضرب في دولة الرستميين، إذ كانوا قبل ذلك يضربون المضارب والقباب[٧].

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٤٠، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٣٧، ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٩٧، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٣٧.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٤٠.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٧.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٠.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٠.

(٦) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٠.

(٧) ابن الصغير: المصدر السابق ٤١.

وظل أبو اليقظان مقيمًا فى سرادقة حتى بنى له أهل المدينة داره التى كانت قد تهدمت فى أثناء الحرب وتحولت إلى مزيلة أوكدية من الكداء فقام الأهالى «فكنسوها فى يومهم ذلك فابتنوها فى أسرع الأيام فلما فرغت نزلها أبو اليقظان ورفع مضاربه ونزل الناس المدينة»[1]. وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحرب الأهلية التى أوشكت أن تقضى على الدولة الرستمية نهائيًا، وكان لجهود أبى اليقظان ونفوسة الأثر الكبير فى عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية.

(ب) إمامة أبى اليقظان بن أفلح ٢٤١ - ٢٨١هـ / ٨٥٥ - ٨٩٤م

شخصية أبى اليقظان:

لم تذكر المصادر والمراجع شيئًا عن المراحل الأولى من حياة أبى اليقظان، وإنما اكتفى بعضها بالحديث عن ورعه وتقواه وأنه كان حسن الحال عند جميع الناس، وقد أفاض ابن الصغير فى الحديث عن تقواه وخوفه من الله وأن ذلك دفعه إلى طلب الذهاب إلى الحج، وألحّ على والده أفلح أن يأذن له فى ذلك، فأذن له رغم الأخطار التى قد يتعرض لها. وخرج أبو اليقظان مع قافلة الناس حتى إذا ورد مكة قبض عليه رسل بنى العباس، وحملوه من مكة إلى بغداد، وهناك زجُّوا به فى السجن[2]، وقد نقل ابن الصغير فى كتابه حديثًا لأبى اليقظان عندما سُجن فى بغداد قال: «وافق حبسى حبس المتوكل أخى الخليفة الواثق كان قد نقم عليه فأنقم: قال: فأمر بنا جميعًا فحُبسنا فى موضع واحد»[3]، وأجرى الخليفة على أبى اليقظان كل يوم مائة وعشرين درهمًا، وكان المتوكل صديقًا حبيبًا لأبى اليقظان فلا يأكل طعامًا ولا يشرب شرابًا إلا مع أبى اليقظان، وظلت الأحوال بهما كذلك حدثت ضجة فى السجن من حولهم «وإذا بالخليفة الواثق قد قُتل وقدم صاحبى الخليفة المتوكل الذى فى الحبس معى مكانه قال: فما شعرنا أن دخلت له الصقالبة والأجناد علينا فاختُطف من بين أيدينا ولم يسم من حدثنا من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم. قال: أبو

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٤١.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٨

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٨.

اليقظان: فلما استقل الملك بصاحبي وقعدت قواعده أمر بي فأُخرجت»[1]. ويتحدث أبو اليقظان عن اللحظات التي التقى فيها الخليفة المتوكل بعد أن خرج من السجن يقول: «فلما مثلت بين يديه أمرني بالجلوس فجلست قال أبو اليقظان: فذكر ما كنت عليه بما يرى مني اجتهادًا في صلاة، وغيرها»[2]، وعرض عليه الخليفة أن يوليه أي بلد من المشرق أو المغرب، ولكن أبا اليقظان رفض هذا العرض فقد كانت عنده رغبة شديدة في العودة إلى بلاد المغرب، فوافق الخليفة على رحيله إلى المغرب «ثم أمر الخليفة الوزير بالنظر في أمري وأمر جهازي وأمر لي بسرادق فضُرب لي ثم أمر لي بنفقة وكسوة وكتب كتابًا إلى عماله بالأمصار بالحفظ والرعاية والبر والإكرام»[3].

وكانت لهذه الفترة التي عاشها أبو اليقظان في بغداد أثرها في تكوين شخصيته السياسية سواء تلك الفترة التي قضاها مع المتوكل في السجن أو تلك التي قضاها في بلاط العباسيين حتى ارتحل عنهم إلى بلاد المغرب، فقد رأى في هذا البلاط نظمًا أعجبته وكثيرًا ما وقف منها موقف المستغرب لها، ومن ذلك أن الخليفة عندما أمر بإخراجه من السجن خصص له وزيرًا يشرف على شئونه حتى يحين موعد لقائه بالخليفة على غرار ما هو معروف الآن ببعثة الشرف التي تصاحب رؤساء الدول وكبار الزوار، يقول أبو اليقظان: «فأخرجت وصيرني إلى الوزير فأمره بحفظي وكرامتي، والنظر في أمري إلى أن اجتمع معه فكنت معه مبرورًا مكرمًا»[4].

ومما شاهده أبو اليقظان أيضًا في بلاط العباسيين واطلع عليه نظام تعبئة الجيوش عند الحاجة إليها، فذات يوم عند انصراف أبي اليقظان من قصر الخليفة إلى داره الذي أُعد له وجد الوزير واقفًا في صحن ذلك الدار على فرسه، فوقف أبو اليقظان يتحدث إليه فبينما هما كذلك إذ أقبل على الوزير عشرة رجال فنزلوا عن دوابهم فقال لهم الوزير: أتدرون لماذا أرسلت في طلبكم؟ قالوا: لا علم لنا بشيء، فقال الوزير: «إذا كان الغداة فأحضروني عشرة آلاف فارس، فقالوا: نعم أصلح الله الوزير، قال أبو اليقظان: فعجبت من قوله ومن قولهم وقلت يهزأ بهم أو يهزءون به أو أراد

(1) ابن الصغير سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٨

(2) ابن الصغير المصدر السابق ٢٩.

(3) ابن الصغير المصدر السابق ٣٠.

(4) ابن الصغير سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٨.

أن يُظهر لى شيئًا أتحدث به فى المغرب لا أصل له»[1]، وقد لاحظ الوزير على أبى اليقظان علامات الاستغراب فقال له: «مالك يا مغربى أراك تعاظمك ما سمعت؟ فقلت (أبو اليقظان): أصلح الله الوزير، كيف لا يتعاظمنى والله أصلحك لو كان ما سألتم دراهم فى أكمامكم لما استطاعوا إحضارها إليك بالغداة، وكيف عشرة آلاف فارس؟»[2]، وأراد الوزير أن يزيل دهشة أبى اليقظان فقال له: «يا مغربى ترى هؤلاء العشرة؟ قلت: نعم. قال: تحت كل واحد منهم عشرة. كم هذا معك؟ قلت: ألف. قال: وتحت كل واحد من الألف عشرة. كم هذا معك؟ قلت: عشرة آلاف. قال الوزير: فإنما تخرج هذه العشرة فيدعو كل واحد منهم من تحت يده فيأمره بإحضار عشرة ثم يخرج كل واحد منهم من المأمورين فيأمر من تحت يده فيجتمع ذلك كله فى أقل من لحظة عين»[3].

كانت بلاد المشرق إذن رافدًا من الروافد التى صبّت فى شخصية أبى اليقظان الكثير من المؤثرات التى جعلت لهذه الشخصية الكثير من الإمكانات التى ساعدتها على إعادة الهدوء إلى الدولة الرستمية بعد الثورة العاتية المدمرة التى حدثت فى عهد أخيه أبى بكر، ومكنت أبى اليقظان من القيام بحركة إصلاح واسعة شملت نظم الدولة كلها، وقد عبّر ابن الصغير عن ظهور هذه المؤثرات المشرقية فى شخصية أبى اليقظان عندما عاد من المشرق يقول: «فصرف أبو بكر بن أفلح النظر فى المدينة وأحوازها إلى أخيه أبى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بنى العباس وسيرهم»[4].

استقرار الأوضاع الداخلية فى عهد أبى اليقظان

استطاع أبو اليقظان بفضل شخصيته القوية ومكانته بين الجميع أن يظل فى الإمامة أربعين سنة متصلة[5]. تمتعت الدولة الرستمية خلالها بكثير من الإصلاحات الداخلية

---

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٩.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٩.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٠.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٢.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣٧.

التى ساهمت فى دعم مركز الدولة السياسى والاقتصادى والاجتماعى. فعلى أثر دخول أبى اليقظان إلى تاهرت استصلح للناس قاضيًا بعد أن شاورهم فى ذلك، ووقع الاختيار على أبى عبدالله محمد بن عبدالله بن أبى الشيخ ثم ولَّى بيت المال رجلا من نفوسة، وقدم على منبره من ارتضاه هو بنفسه لهذه المهمة. وألقى إلى قوم من نفوسة مهمة مراقبة الأسواق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمحافظة على المظهر العام للعاصمة تاهرت من حيث نظافتها، وسيادة الأمن فى ربوعها، كما كانت رعاية المساجد والمصلين بتاهرت من المهام الملقاه على عاتق هذه الجماعة[1].

وواصل أبو اليقظان جهوده فى إصلاح ما أفسدته الحرب الأهلية «حتى عادت الناس إلى خطة سيرها القديم فى سبيل العمارة والتجارة والبنيان واشتغلوا بطلب العلم.. وكاتب الإمام بعد إصلاحه الشئون الداخلية رؤساء سائر أتباع الإمامة فى كل الجهات فأتت طائعة خاضعة وقدَّمت البيعة برضاء فرتب الولاة والعمال والحكام والقضاة وأصحاب الشرطة فى الولايات كلها»[2].

ومن هذه الوفود التى قَدِمَتْ على أبى اليقظان وفد نفوسة الجبل، الذين طلبوا من الإمام أن يقدم عليهم عاملًا يرتضيه، فأنزلهم دار الضيافة وطلب إليهم أن يكتبوا أسماءهم وأن يرفعوها إليه، وأمر كاتبه أن يكتب السجل، وعلى هذا السجل كتب أبو اليقظان بخط يده اسم العامل الذى اختاره وهو أفلح بن العباس[3] ولم تقف جهود أبى اليقظان فى مضمار الإصلاح الداخلى عند هذا الحد، بل نهض بنفسه يباشر إلقاء الدروس على الطلاب والراغبين فى العلم، وأرسل الرسائل إلى عماله فى جميع الجهات، وفى هذه الرسائل يدعو الناس إلى تقوى الله والمسارعة إلى طلب العلم واتباع السلف الصالح، والبعد عن الأهواء والبدع وما ينشره أعداء الدولة من أباطيل[4]. ونتيجة لهذه الإصلاحات قويت الدولة الرستمية واستردت هيبتها فى بلاد المغرب، وأصبحت قادرة على ردع أى محاولة للنيل من أراضيها أو استقلالها.

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٤١.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٤٧.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

الغزو الطولوني

تعرضت حدود الدولة الرستمية الشرقية في عهد أبي اليقظان بن أفلح إلى الغزو من جانب الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م[١]، وقد قام بهذا الغزو العباس[٢] بن أحمد بن طولون الذي خرج من مصر متجهًا نحو بلاد المغرب مدعيًا أن الخليفة المعتمد[٣] قد قلده إفريقية وأنه أقرّه عليها[٤]. وما أن وصل العباس بن أحمد إلى برقة حتى أرسل إلى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب يأمره بالدعاء له بإفريقية ويخبره بأنه سائر إليه[٥]. وفي الوقت نفسه أرسل إلى إلياس أبي منصور النفوسي عامل الرستميين على نفوسة يتوعده وينذره ويدعوه إلى الطاعة ويقول له: «أقبل بسمعك وطاعتك وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي وأبحت رحمك»[٦]. ولم

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢، الكندي: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٢) هو العباس بن أحمد بن طولون من شعراء الأمراء، حكم مصر نيابة عن أبيه في خلال رحلة قام بها إلى الشام، وطمع بالملك في غياب أبيه، وظهر منه ما يدل على ذلك، فنصحه الوزير أحمد بن محمد الواسطي فقبض عليه ورأى عنده كتبًا من أبيه أحمد بن طولون تدل على أن الخبر وصل إليه، فخاف العباس وحمل ما استطاع من أموال الخزائن وفرّ إلى برقة سنة ٢٦٥هـ، وأظهر العصيان وعاد أبوه إلى مصر فوجّه إلى إفريقية جيشًا قاتله العباس بجموع أنفق عليها ما معه من الأموال وفشل فقُبض عليه وحُمل إلى مصر فأمر أبوه بضربه وسجنه مقيدًا فظل إلى أن مات سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، وكان مولده سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م، وولي أخوه خمارويه بن أحمد بن طولون فطلب هذا من العباس أن يبايعه فامتنع فقتله. انظر: النجوم الزاهرة ٣/ ٤ و٢٠ و٤٠ و٤٩، الولاة والقضاة ٢١٩ – ٢٢٤.

(٣) هو أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم أبو العباس المعتمد على الله خليفة عباسي ولد بسامراء سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م، وولي الخلافة سنة ٢٥٦هـ بعد مقتل المهتدي بالله بيومين وطالت أيام ملكه وكانت مضطربة كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالي وغلبتهم عليه، فقام ولي عهده أخوه الموفق بالله طلحة فضبط الأمور وصلحت الدولة وأبعدت يد المعتمد عن كل عمل حتى أنه احتاج يومًا إلى دينار فلم ينلها، وكان من أسمح آل عباس جيد الفهم شاعرًا إلا أنه لما غلب على أمره انتقده الناس، وكان مقام الخلفاء قبله في سامراء فانتقل المعتمد منها إلى بغداد، فلم يعد إليها أحد منهم بعده، ومات أخوه الموفق سنة ٢٧٨هـ، فأهمل أمر الرعية ومات مسمومًا سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، وقيل رُمي في رصاص مذاب وكان موته ببغداد وحُمل إلى سامراء فدفن فيها. انظر المزيد في: الكامل ٧/ ٧٧ـ ١٥١، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٨، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٤، تاريخ الطبري ١١/ ٢١٤ ـ ٣٤١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٤٢، تاريخ بغداد ٤/ ٦٠، النبراس ٨٩، مروج الذهب ٢/ ٣٤٥، الديارات ٦٣ ـ ٩٦.

(٤) ابن خلدون: العبر ٤/ ٦٤٥، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٤.

(٥) الكندي الولاة والقضاة ٢٢٢.

(٦) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب ١/ ١٢١، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

يكتف العباس بن أحمد بن طولون بذلك، فما أن وصل إلى لبدة في جمادى الأولى سنة ٢٦٦هـ حتى أمر جنده باستباحة المدينة ونهبها، يقول الكندى «فأمر العباس بنهبها فنُهبت وأهلها على غرة فقُتلت رجالهم وفُضحت نساؤهم»[١]. وبالقرب من لبدة انهزمت قوات الأغالبة بقيادة أحمد بن قرهب عاملهم على طرابلس، وتبعه العباس بن أحمد بن طولون حتى طرابلس فحاصرها ونصب عليها المجانيق ودام الحصار ثلاثة وأربعين يومًا[٢]. قام فيها جنود العباس بن أحمد بن طولون يُكثر من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية بالقرب من طرابلس «فتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادى وهتكوا الستر، فاستغاث أهل طرابلس بأبى منصور صاحب نفوسة فقام محتسبًا وناصرًا جيرانه من المسلمين»[٣].

خرج إلياس أبى منصور النفوسى إلى ابن طولون فى اثنى عشر ألفًا وتمكن من إلحاق الهزيمة به وإخراجه إلى برقة[٤]. وانتهب أهل طرابلس الكثير من أموال الطولونيين بينما تورَّع النفوسيون كعادتهم عن أخذ شىء من هذه الأسلاب وفقًا لمبادئهم[٥]. وكانت هذه فرصة عظيمة لإبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فأخذ فى البحث عن أموال ابن طولون «وأخذها ممن وجدت عنده، فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرًا ما أمكنه خوفًا أن تؤخذ منه»[٦]. وظلت أحوال الدولة هادئة إلى نهاية حكم أبى اليقظان حتى إذا جاءت سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م توفى أبو اليقظان[٧] بعد أن عاش من العمر أكثر من مائة سنة قضى منها فى الإمامة أربعين عامًا، وكان كل ما وُجد فى تركته بعد وفاته من أموال سبعة عشر دينارًا[٨] وبوفاته اعترت الدولة الرستمية عوامل الضعف والتفكك وبدأ نجمها يأفل من سماء المغرب.

---

(١) الكندى: المصدر السابق ٢٢٢.

(٢) ابن عذارى: البيان النغرب ١/ ١١٩.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١١٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٧/ ٣٢٤.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ٦٤٦.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١١٩.

(٧) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٤٩.

(٨) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣١، ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٤٤.

(جـ) إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد ٢٨١ - ٢٩٤هـ/ ٨٩٤ - ٩٠٦م

لم يكن أحد من أبناء أبي اليقظان في تاهرت عند وفاته، فابنه يقظان كان في الحج، وابنه أبو حاتم كان قد خرج على رأس جيش لحماية بعض القوافل التجارية من اعتداء قبائل زناتة عليها، وكانت هذه القوافل قادمة من المشرق وفيها أموال كثيرة لا تُحصى. ولما كانت المسافة بين تاهرت وأبي حاتم بعيدة فهو على مسيرة يومين من المدينة، اجتمع العوام والفرسان دون القبائل وأعلنوا مبايعتهم لأبي حاتم وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقد الإمامة[١]، له وعلى عجل عاد أبو حاتم إلى تاهرت واستقبلته جماهير المبايعين عند باب المدينة حتى «ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوا فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله وحملوه على الأيدي والأعناق حتى وصلوه إلى داره ثم أرسلوا إلى القبائل فبايعته»[٢] ولم يجد مجلس الشورى أمام هذا الإجماع العام الحاشد بدًّا من مبايعة أبي حاتم، ووافقوا على البيعة بالإجماع[٣]. ولم يرض يعقوب بن أفلح عن مبايعة ابن أخيه أبي حاتم على هذا النحو، لذا آثر أن يرحل عن تاهرت حيث أقام في مدينة زواغة[٤] في الجنوب الغربي لمدينة صبرة في غرب طرابلس[٥].

تجدُّد الحرب الأهلية

كان أبو حاتم فتى شابًا يجمع الفتيان إلى نفسه فيطعم ويكسو وقد منحه ذلك الكثير من حب الناس ورضاهم عنه مما جعلهم يتحمسون إلى مبايعته على هذه الصورة التي رأيناها، ولكن ما كادت البيعة تتم له حتى انفردت به عشيرته وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه، واستهدفوا من ذلك أن يحجبوا الإمام عن جماهير الشعب، ويحيطوه بأبهة الملك والسلطان. ولكن الشعب رفض ذلك، وطالبوا بأن يُسمح لهم بالاتصال المباشر بالإمام في كل الأوقات كما كان ذلك متاحًا لهم قبل

---

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٥٠.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٠.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٣.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٥٣.

(٥) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٦٣.

إمامته[1]. ولم يكن احتجاب أبى حاتم عن العامة بتأثير من أقاربه ومواليه فحسب، وإنما شارك فى ذلك عدد من شيوخ تاهرت من غير الإباضية كما يقول ابن الصغير «منهم رجل يعرف بأبى مسعود وكان كوفيًا فقيهًا بمذاهب الكوفيين، ومنهم شيخ يُعرف بأبى دنون وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفى، ومنهم رجل يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من أهل الفقه ولكن كانت له رياسة فى البلد ومحبة عند العوام وكانوا هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الإباضية»[2]. كانت هذه العناصر تحجب الإمام عن العامة لتثير عليه الرعية، بل قد وصل بهم الأمر إلى حد التآمر مع اثنين من خاصة أبى حاتم وهما محمد بن رباح ومحمد بن حماد للتخلص من أبى حاتم، ولم يشك أبو حاتم لحظة فيما سمعه عن هذه المؤامرة، لأن محمد بن رباح ومحمد بن حماد سبق لهما أن عرضا على أبى حاتم أن يقتلا والده أبا اليقظان عندما كان على خلاف مع أبى حاتم وقالا له: «لا عليك، أثبت كما أنت وخلِّ بيننا وبين هذه الخوخاء (أبو اليقظان) نحن ندخل إليه فنقتله ويصير الأمر إليك»[3].

ويادر أبو حاتم إلى الحيلولة دون إتمام هذه المؤامرة فأصدر أوامره بتحديد إقامة محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج تاهرت، وسمح لهما بالإقامة معًا فى قصر لمحمد بن رباح يقال له (الثلث). ولكنهما لم يهدأ عن تحريك ثورة ضد أبى حاتم «فلم يزالا يرسلان رسولًا بعد رسول إلى من فى المدينة من إخوانها ويقولان لهم: «أترضون أن يكون مثلنا يُنفى من البلد بلا جناية كانت منا؟ فيجتمع إخوانهم ويقولون: والله لقد صدقا ثم اتفق من بالمدينة من إخوانهم على أن يرسلوا إليهما فيدخلوهما على رضا الراضى وسخط الساخط فما شعر أبو حاتم إلا والتكبير عليهما فى المدينة[4]. ويبدو أن عودة محمد بن حماد ومحمد بن رباح إلى تاهرت تمت بطريقة أفزعت أبا حاتم وروَّعته إلى درجة جعلته يقرر الخروج من تاهرت سنة ٢٠٢هـ/ ٨٩٥م هو ومن يناصره من أهلها إلى حصن لواته بعد سنة واحدة من مبايعته بالإمامة[5] وخرج معه نحو من مائة رجل من وجوه تاهرت، كما خرجت العجم

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٩.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٥٠ – ٥١.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٥١.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٥١.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٩٧.

ونفوسة أيضًا، ولم يبق بتاهرت غير العامة ومشايخ البلد الذين أيقنوا أن أبا حاتم إنما خرج ليستجمع قواه خارج تاهرت وأن عليهم أن يستعدوا للحرب[1].

نجح أبو حاتم في استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمّت إليه لواته كلها كما اجتمعت إليه قبائل الصحراء، فأعطى الأموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت «من ثلاثة مواضع: من القبلة والمشرق والمغرب، فتولى بنفسه القبلة مع لواته والرستمية وما شايعها، وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايعها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نفوسة»[2]، واستطاع أبو حاتم أن يضغط بهذه القوات على أهل تاهرت، الأمر الذي جعلهم يفكرون في استدعاء يعقوب بن أفلح عم أبي حاتم ليتولى منصب الإمامة في تاهرت. وأعتقد أهل تاهرت أنهم بهذا العمل يستطيعون إضعاف معسكر أبي حاتم بجذب كثير من أنصاره إلى يعقوب بن أفلح. وما أن دخل يعقوب تاهرت حتى ضعفت شوكة أبي حاتم؛ إذ انضم إلى يعقوب جماعة من لواته وغيرهم من أصحاب أبي حاتم. ورغم هذا فقد استمر حصار أبي حاتم لتاهرت التي أغلق يعقوب أبوابها إلا بابًا واحدًا صار يحارب منه أبا حاتم، واستمرت الأحوال على هذه الصورة حتى تدخل أبو يعقوب المزاتي رئيس مزاته بين الطرفين لعقد الهدنة بينهما[3]. وجرت مراسم الهدنة، فقدم يعقوب بن أفلح «عبدالله اللمطي» لينوب عنه في توقيع الهدنة، وقدم أبو حاتم اثنين هما: منكود وابن أبي عياض اللواتيين. وعُقدت الهدنة على شرط أن يُعزل الاثنان من الإمامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدها من يحبون إمامًا لهم، وتم العقد على هذا الأساس[4]، وقد انتهز أبو حاتم فرصة هذه الشهور الأربعة وقام بدعاية واسعة لنفسه فكان «إذا لقي أحدًا من وجوه أهل تاهرت وشبابهم استماله فإن كان على القرب استمال به إلى وإن كان على البعد زوده وأعطاه فمالت قلوب الناس إليه»[5]. استعاد أبو حاتم بهذه الدعاية ثقة الناس فيه، فخرجت جماعات من أهل تاهرت إلى قصر أبي حاتم الذي يقيم فيه عند نهر مينة، وكان على رأس هذه الجماعات رجلان من وجوه المدينة هما:

---

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٢، ابن عذاري: المصدر السابق ١/ ١٩٧.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٥٢.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٤.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٥.

(٥) ابن الصغير: المصدر ٥٥.

محمد وأحمد المعروفان بابنى دبوس يقول ابن الصغير: «فبينما أبو حاتم فى منزله وقصره بنهرمينة إذ دخل عليه محمد وأحمد نيابة عن جماعة الناس فقالا: قم فاركب الساعة، فخرج معهما وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله فلم يصبح إلا على باب المدينة وبادر الناس أجمع»[1]، وما كادت هذه الأنباء تصل إلى يعقوب بن أفلح حتى خرج وشيعته وركبوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى زواغة مرة ثانية[2]. بعد أن قضى يعقوب فى الإمامة أربع سنوات[3]. وبعد عودة أبى حاتم إلى الإمامة مرة ثانية حاول بكل الوسائل أن يستعيد سلطة الإمامة وهيبتها، بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية حتى وصلت إلى الخصيص، وظهر كثير من الأمراض الاجتماعية، يقول ابن الصغير «وكان البلد «تاهرت»، قد فسدت وفسد أهلها فى تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقًا والغلمان أخذانًا»[4] لذا بادر أبو حاتم بإحكام قبضته على الأمور، فعين عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبى الشيخ قاضيا، وجعل عبد الرحمن بن صواب النفوسى على بيت المال، وولى أمر الشرطة إلى جماعتين من الناس هم قوم زكار وقوم إبراهيم بن مسكين، واستكمل أبو حاتم بذلك سلطاته التنفيذية وقد نجح هؤلاء جميعًا فى ضبط الأمور فى الدولة، وواجهوا المنحرفين بالضرب والسجن والقيد، وحطموا الخوابى فى كل دار عظم شأنها أو صغر وشردوا الغلمان وأخدانهم إلى رءوس الجبال والأودية وأمنت الطرق بعد أن قضى على اللصوص وقطاع الطرق، فانتشر الأمن فى ربوع البلاد[5].

وفى عهد أبى حاتم خرج عليه الطيب بن خلف فى خير طرابلس وجبل نفوسة، فأصدر الإمام أوامره إلى عامله أبى منصور إلياس بالقبض عليه قبل استفحال أمره، فهرب الطيب إلى قبيلة زواغة التى كانت على رأى أبيه خلف، ورفضت زواغة أن تسلم الطيب إلى أبى منصور وكان فى بنى يهراسن من زواغة شيخ كبير أدرك أنه لا طاقة لزواغة بالوقوف في وجه أبى منصور وحربه، فاقترح على زواغة ثلاثة أمور وقال لهم: «يا معشر زواغة اقترح عليكم ثلاثة أمور إن اخترتم منها واحدًا أصبتم وإلا

---

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٦.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٦.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٩٧.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٥٦.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٦ – ٥٧.

فمصيركم إلى الذلة إما أن تتركوا حوزة طرابلس وتدخلوا إلى جزيرة جربة لتتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم، وإما أن ترسلوا إلى تاهرت رسلا بكتاب من عندكم تطلبون فيه الإمام أن يخصصكم بعامل مستقل عن جبل نفوسة حتى لا تدخلوا تحت أحكامهم وسيطرتهم. وأما أن تسلموا إلى صاحبكم ابن خلف لأسلمة لنفوسة بالأمان وأنا أضمن لكم سلامتكم وأنهم لا يتجاوزون فيه الحق[1]، ورفضت زواغه الانصياع لنصائح الشيخ، فلما وصلهم أبو منصور طالبهم بتسليم الطيب فرفضوا فناجزهم الحرب، فكان بين الفريقين قتال شديد هُزمت على أثره زواغة ونجأت إلى جزيرة جربة، وهناك اختفى الطيب بن خلف عند رجل من وجوه زواغه فى جربة، فبذل أبو منصور مائة دينار إلى الزواغي، فدعاه الزواغي إلى جربة فدخلها بلا حرب، وعلى الفور توجه الزواغي إلى ابن خلف وهو فى قصره وقال له: «أنزل أيها الأمير فقد أرملت كثيرًا من نساء زواغة[2]، ونزل الطيب بن خلف فقبض عليه أبو منصور وقيده ومضى به إلى الجبل فحبسه، وكانوا يلقبونه بالطيب بن الخبيث بن الطيب وظل فى سجنه حتى أعلن توبته فأفرج عنه[3]. وإذا كان أبو منصور إلياس النفوسى عامل الرستميين على إقليم طرابلس وجبل نفوسة قد نجح فى صد الهجوم الطولونى على شرق الدولة الرستمية فى عهد أبى اليقظان، واحتفظ بهذه الجهات هادئة فى عهد أبى حاتم، فإن أفلح ابن العباس الذى خلف أبا منصور فى قيادة الحروب وتوجيه الأمور قد مُنى بهزيمة فادحة على أيدى الأغالبة حين عزم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب على غزو الطولونيين في مصر، فخرج سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م، على رأس جيش يقوده أبو بحر بن أدهم[4]، فاعترضت نفوسة الجيش الأغلبى بين قابس وطرابلس وكانت فى عشرين ألف جندى، ولكن الأغالبة تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالنفوسيين وقتلوا أكثرهم[5]. ويذكر الدرجينى أن القتلى من هذه المعركة كانوا أثنى عشر ألفا من الإباضية كان من بينهم أربعمائة من العلماء[6]. ولم يكتف ابن الأغلب بذلك بل زحف إلى قنطرارة فقتل منها مَن قتل وأسر منها ثمانين عالمًا، ولم تنجُ نفراوة هى

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) البارونى: المصدر السابق ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) البارونى: مختصر تاريخ الإباضية ٤٣.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٢٩.

(٥) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٨٠.

(٦) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٤٠.

الأخرى من ضربات ابن الأغلب[1]، وفى غمرة هذه الأحداث لم يستطع أبو حاتم أن يحرك ساكنًا فقد كان محاصِرًا لعمه يعقوب بن أفلح فى تاهرت فى تلك الأثناء، وقد دفع ذلك الأغالبة إلى معاودة الكَرة فى الهجوم على نفوسة، ففى العام التالى سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م سيّر إبراهيم بن أحمد ابنه أبا العباس إلى نفوسة، فقتل منهم عددًا كبيرًا، وأسر منهم ثلاثمائة ذُبحوا عن آخرهم وأُخرجت قلوبهم، ونُظمت فى حبال نُصبت على باب تونس[2].

وأمام هذه الضربات المتلاحقة انهارت نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس ودرعها الواقية، ولم تعد لها تلك القدرة الفنية على مواصلة إمداد تاهرت اقتصاديًا عسكريًا[3]. ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الهزائم كفيلة بإسقاط هيبة الإمام فى تاهرت، رغم المحاولات التى بذلها للسيطرة على الأمور، ولكن الوقت كان قد فات، فطمع فى الإمامة بعض أقاربه وهم بنو أخيه فلم يجدوا مشقة كبيرة فى التآمر عليه وقتله سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م[4].

(د) يقظان بن أبى يقظان ٢٩٤ - ٢٩٦هـ/ ٩٠٦ - ٩٠٨م

بعد نجاح المؤامرة على أبى حاتم وقتله، ارتقى يقظان بن أبى اليقظان إلى الإمامة، ورغم أن فترة إمامته امتدت إلى سنتين فإن هذه الفترة سادتها عوامل الانقسام والاضطراب، أما الانقسام فإن الكثيرين من شيوخ الإباضية كانوا ساخطين على اليقظان[5]. ومن هؤلاء الساخطين شيوخ نفوسة الجبل؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن يقظان بن أبى يقظان مشترك فى مؤامرة قتل أبى حاتم[6]. ومن عوامل الانقسام أيضًا تلك المناقشات الحادة التى سادت مجتمعات العلماء وحلقات الإباضية وكان لها

---

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٨٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ١/ ١٣٠.

(٣) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣٣، د. محمود إسماعيل: الأغالبة سياستهم الخارجية ١٣٤.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٩٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٥.

(٦) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٩٢.

أثرها فى تفتيت وحدة الفكر فى الدولة الرستمية[1]. أما عوامل الاضطراب فلأن خطر الشيعة ببلاد المغرب بدأ يلوح فى الأفق ويقترب من حدود الدولة الرستمية، فأبو عبدالله الشيعي تمكن من الاستيلاء على الزاب ودخل رقادة سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بعد أن هرب منها زيادة الله بن الأغلب[2].

وأمام مظاهر الاضطراب والانقسام هذه لم يستطع يقظان بن أبى اليقظان أن يفعل شيئًا لمواجهة الخطر الشيعى القادم عليه، وفى منتصف رمضان سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م كان أبو عبدالله الشيعى - داعى الفاطميين فى بلاد المغرب - قد أتم استعداداته العسكرية لبدء جولته الثانية التى كانت هذه المرة مع الرستميين أصحاب المغرب الأوسط، ذلك أن ظهور حركة الشيعة كان من أهم العوامل التى أودت بالدولة الرستمية؛ إذ نمت هذه الحركة نموا مضطردًا وأصبح لها من القوة العسكرية ما استطاعت به أن تكيل الضربات لدول المغرب وتُسقطها الواحدة تلو الأخرى، وكان من بينها الدولة الرستمية. ولا يخفى وجود مؤثرات شيعية بدأت تتسرب إلى الدولة الرستمية فظهرت خطب الإمام «على» على منابر الدولة وهى الخطب التى يستخدمها الخطباء يوم الجمعة إلى جانب خطبهم العادية[3]، وقد تجلت هذه المؤثرات فى اعتناق أحد الإباضية من النُكَّار - هو شيخ من شيوخ قبيلة كتامة - دعوة أبى عبدالله الشيعى وقد استغل داعية الشيعة هذه الميول عند الشيخ أحسن الاستغلال، يقول ابن عذارى «فوجد داعية الشيعة الشيخ يميل فى مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة فدخل عليه من هذه الثلمة، ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه[4]. ويتحدث ابن عذارى أيضًا عن الاستعدادات الضخمة التى جهزها أبو عبدالله الشيعى لضرب الدولة الرستمية فيقول «فلما كمل له ما أراد من جيوشه وجهازه وعدده وآلات سفره استخلف على إفريقية أخاه أبا العباسى وأبازاكى تمام بن معارك الآجانى ثم خرج من رقادة يوم الخميس للنصف من رمضان فى جموع كالوبى المنتشر ومعه وجوه رجاله وأهل دعوته.. فسار أبو عبدالله حتى حل بمدينة تاهرت فدخلها بالأمان وقتل بها

---

(١) البارونى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٧.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٤٧ - ١٤٨، ابن الأبار: الحلة السيراء ١/ ١٩١.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٨٧.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٢٤.

من الرستمية يقظان بن أبي اليقظان وجماعة أهل بيته وبعث برءوسهم إلى أخيه أبي العباس وأبي زاكي خليفته برقاده وطُوفت بالقيروان ونُصبت على باب مدينة رقادة وانقضت بذلك دولة بني رستم بتاهرت[١].

ويذكر بعض كتَّاب الإباضية أنه كانت لأبي حاتم يوسف بن محمد ابنة اسمها «دوسرا» ولما قُتل والدها توجهت مع أخ لها إلى أبي عبدالله الداعي ودعته إلى الأخذ بثأر أبيها من قاتليه ووعدته بالزواج منها لقاء ذلك، ولكن الداعي لم يجبها بشيء[٢]. فلما استنجد عبيدالله الشيعي المهدي بأبي عبدالله الداعي لتخليصه من سجنه، وكان المدراريون قد سجنوه لما تحققوا من شخصيته، فوُضع هو وابنه أبو القاسم في غرفة عند مريم بنت مدرار[٣]. فلما توجه أبو عبدالله الداعي إلى سجلماسة، مرَّ بالقرب من تاهرت فخرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والواصلية والصفرية والمالكية وقدموا له الشكاية في اليقظان ووعدة بالإعانة بالمال والرجال ورغبوه في استئصال هذه العائلة كلها وانتزاع الأمر من أيديهم؛ لأنه لا رجال ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لإدبار الناس عنه بما وقع من قتل الإمام[٤]. وهذه الحقيقة توضح أن سبب انهيار الرستميين أمام ضربات الفاطميين هو عدم وجود جيوش رستمية نظامية[٥].

أرسل أبو عبدالله الداعي إلى اليقظان يطلب الاجتماع به، فخرج إليه اليقظان ومعه بنوه وإخوته وأتباعه، وعلى بعد أميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه أبا عبدالله الداعي فقال لليقظان متجاهلا: «ما اسمك؟ فقال له: اسمي اليقظان. فقال الحجاني: بل أنت الجيران، ما بالكم قتلتم أميركم وسلبتم من أنفسكم ملككم وأطفيتم نور الإسلام وألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار ثم أمر بقتلهم فقُتلوا عن آخرهم وذلك في شوال سنة ٢٩٦هـ[٦].

ولما سمعت دوسرا ما حدث هربت خوفًا من أبي عبدالله الشيعي، وقد بحث عنها

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ١/ ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٥٣.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٩٢.

(٤) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣٦.

(٥) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٩٣.

(٦) البارونى: المصدر السابق ٢/ ٢٩٣.

كثيرًا فلم يعثر عليها[1]. ودخل أبو عبدالله الداعي تاهرت ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م فاستباحها ونهبها وقصد إلى المكتبة المعروفة بالمعصومة ليقضي على الفكر الإباضي المكتوب[2]، فقد كانت المعصومة مكتبة عظيمة ضخمة تحوي أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد، أغلبها في الشريعة الإسلامية وفلسفتها وفي شرح المذهب الإباضي والاحتجاج له، وفي تاريخ الدولة الرستمية، وبقدر ما كان أبو عبدالله الداعي يريد القضاء على كل مظاهر الفكر الإباضي وإفنائه بقدر ما كان حريصًا على كل ما من شأنه تدعيم الدولة العبيدية التي يقيمها، فأخذ ما في المكتبة المعصومة من كتب الرياضة والصنائع وغيرها من كتب الفنون، وأحرق كل ما تبقى من الكتب وخصوصًا تلك التي تتعلق بالمذهب الإباضي[3]. وقام داعية الشيعة بإنهاء الدولة الرستمية رسميًا، وذلك بتنصيب أبا حميد دواس بن صولات اللهيصي وإبراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهواري على تاهرت[4]. أما الرستميون فقد انتشرت فلولهم في البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال أوراس وإلى جبال بني راشد، وبعضهم أنطلق إلى جبل نفوسه وجربه[5]. ويذكر الدرجيني أن يعقوب بن الأفلح خرج فارًا إلى ورجلان معه عدد كبير من العائلات الرستمية، فلما كان في بعض الطريق نظر نظرة في النجوم وكان ممن درسوا علم الفلك والنجوم فقال لأصحابه «أنكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم»[6]، فلما نزل وأصحابه ورجلان رغب أهلها في مبايعة يعقوب بن الأفلح وتوليته عليهم ولكن يعقوب رفض طلبهم وقال لهم قولته المشهورة: «لا يُستر الجمل بالغنم»[7]، وبهذه العبارة طوى يعقوب بن الأفلح ـ آخر من بقي من الرستميين ـ آخر صفحة الأخيرة من صفحات الدولة الرستمية المشرقة.

---

(١) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٩٣.

(٢) محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٤/ ٦١٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ١٥٣.

(٤) د. محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٦١٨.

(٥) د. محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٦١٨.

(٦) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٤٦.

(٧) الدرجيني: المخطوطة السابقة ورقة ٤٦.

الفصل الخامس
علاقات الرستميين بالعباسيين والدويلات الأخرى

تمهيد

كانت الرستمية من أسبق الدول المستقلة عن الخلافة قيامًا فى بلاد المغرب، وأصبح لها منذ إعلان قيامها سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م - ٧٧٧م شخصيتها بوصفها دولة ذات سيادة على مواطنيها وأراضيها، وأصبح من حقها أن تساهم بدورها فى العلاقات الدولية، تلك العلاقات التى استفاد منها الرستميون مكاسب كثيرة كانت لها آثار بعيدة المدى فى دعم أركان دولتهم؛ حيث أتاحت لهم هذه العلاقات مزيدًا من الاحتكاك سياسيًا وعسكريًا وحضاريًا. وقد تنوعت هذه العلاقات قوةً وضعفًا، صداقةً وعداءً بحسب مواقف الدول من الدولة الرستمية.

١ ـ علاقة الرستميين بالعباسيين

ارتبطت علاقات الرستميين الخارجية بالعباسيين بعاملين كانا ذا أثر كبير فى طابع العداء الذى اتسمت به تلك العلاقة:

أولهما: أن العباسيين منذ آلت الخلافة إليهم يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثًا شرعيًا تركه الأمويون لهم، وعلى هذا نظروا إلى الرستميين نظرة عداء. وأصبحت هذه النظرة تحكم سير العلاقات بينهما، فقامت على أسس عدائية بين الطرفين باعتبار أن الرستميين اقتطعوا جزءًا من ممتلكات العباسيين.

ثانيهما: كان بين العباسيين والرستميين ذلك العداء التقليدى الذى كان بين الخلافة العباسية السنية والإباضية باعتبار أنهم فرقة من الخوارج، وقد وُضعت هذه الأسس العدائية موضع التنفيذ أيام مطاردة ولاة العباسيين بإفريقية لعبد الرحمن

بن رستم، ورغم أن أهداف عبد الرحمن بن رستم فى تأسيس دولة منفصلة تمامًا عن الخلافة العباسية لم تكن واضحة للعباسيين، فقد قاوم العباسيون شخصية عبد الرحمن بن رستم منذ اللحظات الأولى التى ظهر فيها على مسرح الأحداث فى بلاد المغرب؛ لأنه كان فى نظرهم خليفة لأبى الخطاب عدوهم اللدود، لذا حرص محمد بن الأشعث الوالى العباسى فى القيروان سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتله أبا الخطاب، ولكن ابن الأشعث فشل فى محاولته وانسحب إلى إفريقية تاركًا عبد الرحمن بن رستم فى مأمنه فى جبل سوفجج[١]. ولما لم ينجح العباسيون فى القضاء على عبد الرحمن بن رستم ورأوا أن خطر هذه الشخصية بات قويًا من ممتلكاتهم فى إفريقية، أمر أبو جعفر المنصور عمر بن حفص» عامله على إفريقية أن يحصن قاعدة طبنة[٢]، وفى مواجهة هذه الخطوة من العباسيين حرص عبد الرحمن بن رستم على تكوين تحالف إباضى ـ صفرى يضم سائر القوى المعارضة للخلافة العباسية. ولكن عمر بن حفص ـ الذى تولى أمر المغرب سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م ـ نجح فى تمزيق هذا التحالف، وانفرد بعبد الرحمن بن رستم وقواته والحق به هزيمة فادحة عند تهوده[٣]. ولكنه لم يتمكن من القضاء عليه، لذا اقتنعت الخلافة العباسية بأنه من الأسلم لها أن تحتفظ بنفوذها فى إفريقية، وأن تترك المغرب الأوسط؛ لأن محاولة استرجاعه محفوفة بكثير من الأخطار، ولعل ذلك يفسر مسلك الوالى العباسى روح بن حاتم الذى تولى أمر إفريقية سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م ـ ٧٨٨م[٤]، إذ حرص على تحسين العلاقات بينه بوصفه ممثلًا للعباسيين وبين الرستميين فمد يده إلى عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين فى تاهرت طالبًا موادعته، فوادعه عبد الرحمن وكان ذلك فى السنة نفسها التى توفى فيها عبد الرحمن بن رستم ١٧١هـ/ ٧٨٧م ـ ٧٨٨م[٥].

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم أرسل روح بن حاتم إلى عبد الوهاب بن عبد

---

(١) الشماخى: السير ١٣٣، البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٣.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢، ورقة ٢٠ - ٢١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٦.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق ١/ ٨٤.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٩٣.

الرحمن بن رستم الذى انتُخب إمامًا بعد وفاة والده، وطلب روح استمرار الموادعة فوافق عبد الوهاب على استمرارها[1]، وتعتبر هذه الموادعة اعترافًا رسميًا من العباسيين وممثليهم فى بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الأوسط. وقد تحدثت كتب الإباضية عن شيء من العلاقات التجارية التى تمت بطريقة سرية فى عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بين تاهرت وبغداد، فقد بعث عبد الوهاب إلى الربيع بن حبيب باثنى عشر ألف درهم أو دينار «فاشترى بها الربيع جهازًا من البصرة وأرسل به أخاه إلى تاهرت. فلما وردها جمع عبد الوهاب تجار تاهرت، فاشتروا منه جهازه واشتروا لأخى الربيع بن حبيب حوايجه فى ثمانية أيام فانصرف راجعًا إلى المشرق»[2]. على أن الهدوء الذى ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين فى عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفته عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، عاد وتحرك ثانية نحو التوتر، فعندما أخفق فرج النفوسى ـ المعروف بنفاث بن نصر ـ فى حركته ضد الإمام أفلح بن عبد الوهاب لم يجد مخرجًا سوى الهروب إلى المشرق قاصدًا بغداد، وهناك رحب الخليفة العباسى المأمون بمقدمه[3]. وفى هذا الحادث ما يشير إلى احتواء الخلافة العباسية للخارجين على الرستميين.

وما لبثت العلاقات الرستمية ـ العباسية أن بلغت قمة العداء، وكان ذلك عندما قبض العباسيون ـ فى عهد الواثق العباسى ـ على محمد بن الأفلح الملقب بأبى اليقظان الذى كان يقوم بأداء مناسك الحج فى مكة. ونُقل أبو اليقظان إلى بغداد حيث سجن هناك[4]. ولكن هذه العلاقات ما لبثت أن وجدت شيئًا من التحسن بسبب العلاقة القوية التى تمت بين أبى اليقظان بن أفلح، والمتوكل العباسى الذى كان مسجونًا مع أبى اليقظان، فما أن اعتلى المتوكل دست الخلافة بعد مقتل أخيه الواثق حتى أفرج عن صديقه أبى اليقظان وأكرمه وسمح له بالعودة إلى بلاده[5]. وبينما كانت العلاقات بين الرستميين والعباسيين تمضى فى طريق العداء تارة والتحسن

---

(١) الرقيق القيروانى: تاريخ إفريقية والمغرب ١٧٣، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٧٣.

(٢) الشماخى: السير ١٦١ - ١٦٢.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٠٧، أبو الربيع سليمان البارونى: مختصر تاريخ الإباضية ٣٨.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٨.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٨.

تارة، كانت العلاقات الثقافية تتسم بالصلة القوية بين الرستميين وإباضية المشرق الذين كانوا من الناحية الشكلية من رعايا الدولة العباسية، وكثيرًا ما جرت تفاصيل هذه العلاقات الثقافية بين تاهرت والبصرة القريبة من بغداد، فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أرسل ألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبًا. فلما وصلهم هذا المبلغ اشتروا به رقًا فنسخوا له فيها وقر أربعين جملًا كتبًا فلما بلغته تشمر وجد لقراءتها[1]. وكثيرًا ما لجأ الأئمة من الرستميين وغيرهم من علماء دولتهم إلى علماء الإباضية في البصرة وفي مكة يستشيرونهم فيما قد يظهر لهم من مشكلات سياسية وعلمية، وكانت رسائل علماء الإباضية المشارقة تساهم في حل كثير من المشكلات التي تعرَّض لها الرستميون[2].

ومن معالم العلاقات الثقافية أيضًا أن نفاث بن نصر الثائر على الإمام أفلح بن عبد الوهاب عندما فرَّ إلى بغداد أمضى وقته هناك في استنساخ ديوان جابر بن زيد عالم الإباضية المشهور ـ وكان ذلك الديوان موجودًا في خزانة الخليفة العباسي في بغداد، وللصلة القوية بين نفاث والخليفة طلب أن يُسمح له بنسخ الديوان، فلما سمح له استطاع أن ينسخ هذا الديوان في يوم وليلة بمساعدة عدد من الورَّاقين في بغداد، وقد حمل نفاث بن نصر هذا الديوان معه عندما عاد إلى المغرب ثانية[3]. ومن العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى البصرة في العراق بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي وهو من شعراء الطبقة الأولى في عصره، كان فقيهًا عالمًا بالحديث ورجاله، قال عنه البكري «كان ثقة مأمونًا حافظًا للحديث»[4]، وُلد بكر بن حماد[5] بتاهرت ورحل عنها إلى البصرة سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م وهناك نهل من روافد العلم، فأخذ عن مسدد[6] الأسدي البصري شيخ الأئمة المصنفين الاثبات،

---

(١) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٦٤.

(٢) الدرجيني: طبقات علماء الإباضية ورقة ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ٥٤ بيروت ١٩٧١.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٥) هو بكر بن حماد بن سمك الزناتي أبو عبد الرحمن التاهرتي، شاعر عالم بالحديث ورجاله، فقيه من أفاضل المغرب. وُلد بتاهرت سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م، ورحل إلى البصرة سنة ٢١٧هـ ثم إلى القيروان وعاد منها إلى تاهرت سنة ٢٩٥هـ فتوفي فيها سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م انظر المزيد في: معالم الإيمان ٢/ ١٩٢، البيان المغرب ١/ ١٥٣.

(٦) هو مسدد بن مسرهد بن مسربل الأسدي البصري أبو الحسن، محدث هو أول من صنَّف المسند بالبصرة.

كما التقى هناك كبار الأدباء وعظماء الشعراء كالشاعر دعبل اللغوى[1]، واللغوى الراوية العباسى ابن الفرج الرياشى[2] والشاعر الأديب على بن الجهم بن بدر[3]، وكذلك سهل بن محمد السجستاني[4]، أحد كبار علماء اللغة والشعر. كما التقى الشاعر حبيب بن أوس الطائى أبو تمام[5]. واستطاع بكر بن حماد أن يثبت وجوده فى بلاد العباسيين فاتصل بالخليفة المعتصم بالله العباسى ومدحه[6]، وقد ذكر البارونى

قال ابن ناصر الدين: كان حافظًا حجة من الأئمة المصنفين الأثبات، مات سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٣م. انظر المزيد في: طبقات الحنابلة ١/ ٣٤١ - ٣٤٥، هدية العارفين ٢/ ٤٢٨، تذكرة الحفاظ ٢/ ٨.

(١) هو دعبل بن على بن رزين الخزاعى أبو على، شاعر هجاء أصله من الكوفة أقام ببغداد، له أخبار وشعر جيد وكان صديق البحترى وصنف كتابًا فى طبقات الشعراء وُلد سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، ومات سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م كان بذى اللسان مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس وهجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق فمن دونهم وطال عمره. انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ١٧٨، دول الإسلام ٥/ ١٢٠، معاهد التنصيص ٢/ ١٩٠، الشعر والشعراء ٣٥٠، لسان الميزان ٢/ ٤٣٠، تاريخ بغداد ٨/ ٣٨٢.

(٢) هو العباس بن الفرج بن على بن عبدالله الرياشى البصرى من الموالى أبو الفضل لغوى راوية، عارف بأيام العرب من أهل البصرة، قُتل فيها أيام فتنة الذبح سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م، وكان مولده سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م. له كتاب الخيل وكتاب الإبل، وكتاب ما اختلفت أسماؤه من كلام العرب وغير ذلك، روى عنه المبرد. انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ٢٤٦، تهذيب التهذيب ٥/ ١٢٤، بغية الوعاة ٢٧٥، تاريخ بغداد ١٢/ ١٣٨.

(٣) هو على بن الجهم بن بدر أبو الحسن من بنى سامة من لؤى بن غالب شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد كان معاصرًا لأبى تمام وخص المتوكل العباسى ثم غضب عليه المتوكل لنفاه إلى خراسان فأقام مدة وانتقل إلى حلب ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بنى كلب فقاتلهم وجرح ومات من جراحه سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م. انظر المزيد فى: الأغانى ١٠/ ٢٠٣ ـ ٢٣٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٤٩، تاريخ الطبرى ١١/ ٨٦، تاريخ بغداد ١١/ ٣٦٧.

(٤) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمى السجستاني: من كبار العلماء باللغة والشعر من أهل البصرة. كان المبرد يلازم القراءة عليه، له نيف وثلاثون كتابًا منها كتاب «المعمرين» و«النخلة» و«ما تلحن فيه العامة» و«الشجر والنبات» و«الطير»، وغيره، مات سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م.انظر المزيد فى: الفهرست ١/ ٥٨، وفيات الأعيان ١/ ٢١٨، بغية الوعاة ٢٥٦، انباه الرواة ٥٨.

(٥) هو أحد أمراء البيان ولد فى جاسم سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٤م ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام فى العراق ثم ولى بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفى بها سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م.انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ١٢١، المعاهد ١/ ٣٨.

(٦) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ٥٤ - ٥٥.

بعض الأبيات التى كتبها إلى المعتصم يحرضه فيها على دعبل الخزاعى[1]. ولكنه عاد إلى القيروان ومنها إلى تاهرت حاملًا معه هذه المؤثرات الثقافية المشرقية.

علاقة الرستميين بمصر

سارت العلاقات بين الرستميين ومصر فى طريق ودى؛ إذ كانت مصر تمثل الجار الشرقى للدولة الرستمية والمنفذ الوحيد لهم إلى شرق العالم الإسلامى، ومن ثم حرص الرستميون على أن تكون هذه العلاقات علاقات حسن جوار، إلا أنه يلاحَظ أن العلاقات السياسية كانت ضعيفة على حين نشطت العلاقات الأخرى، التجارية والثقافية، ومرجع ذلك أن مصر كانت ولاية عباسية خاضعة للعباسيين وتسير على النهج نفسه الذى تسير عليه بغداد. وترجع العلاقات الثقافية القوية بين مصر والرستميين إلى أن عددًا كبيرًا من المصريين كانوا على المذهب الإباضى، بل لقد كان من بين هؤلاء الإباضية المصريين علماء لهم وزنهم فى رأى الرستميين فكانوا مرجعًا لهم فى شئونهم وفتاواهم ومن بين هؤلاء الإباضية المصريين العلماء شعيب المصرى[2] الذى قدم إلى تاهرت أيام الفتنة التى حدثت بين الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويزيد بن فندين، وقد كان شعيب هذا يطمع فى الحصول على منصب الإمامة ولكنه لم ينجح فى مساعيه فعاد إلى مصر بعد أن تمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على فتنة يزيد بن فندين[3] أما العلاقات التجارية فقد كانت مصر المعاصرة للدولة الرستمية تلعب دور الوسيط فى التجارة بين الشرق والغرب، وأصبحت تمثل مخزنًا لمختلف البضائع الشرقية والغربية[4]، وقد حتمَّت طبيعة الامتداد الجغرافى لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذًا للقوافل الرستمية المتجهة إلى المشرق الإسلامى وخاصة القوافل التى تحمل

---

(1) يقول بكر بن حماد محرضًا الخليفة المعتصم على دعبل الخزاعى:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه	ويمشى على الأرض العريضة دعبل
أما والذى أرسى ثبيرا مكانه	لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله	يهم فيعفو أو يقول فيفعل

الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٧١.

(2) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٨.

(3) الباروني: المصدر السابق ٢/ ١١٢.

(4) د. سيدة إسماعيل: كاشف أحمد بن طولون ٢٠٤. سلسلة أعلام العرب.

الحجيج والرحّالة والعلماء والتجار، وقد سارت هذه القوافل في الطرق التجارية التي امتدت بين مصر والواحات الغربية وبلاد المغرب[1]. وقد تولت هوارة في شرق طرابلس وكذلك نفوسة والقبائل الطرابلسية الأخرى هذه المهمة فكانت «تجوب صحراء سرت ذاهبة آيبة بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر وقوافلها الجرارة مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية[2]»، ومما لاشك فيه أن هؤلاء التجار والرحّالة والعلماء من الرستميين قد نقلوا كثيرًا من الأفكار الرستمية إلى مصر، كما تأثروا كثيرًا بما وجدوه في مصر من مظاهر الحضارة فنقلوها إلى بلادهم، وقد شهدت العلاقات بين مصر والرستميين شيئًا من التوتر في عهد الطولونيين سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م، ولكن الذي يُفهم من أحداث هذا التوتر الذي سبق عرضه قبل ذلك[3] أن أهدافه لم تكن بسبب سياسة عدائية رسمها الطولونيون تجاه الرستميين، وإنما تمت كل دوافع هذا التوتر في ظروف شخصية بحتة، تتصل بفتنة العباس بن أحمد بن طولون، ومما يؤيد وجهة النظر هذه أن أحمد بن طولون لم يكن في مصر حين خرجت حملة ابنه العباس نحو بلاد المغرب[4]. ومن ناحية ثانية أفاض المؤرخون في الحديث عن بواعث هذه الحملة، يقول ابن الأثير: «عصى العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، وسبب ذلك أن أباه كان قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس كما ذكرناه، فلما أُبعد أحمد بن طولون عن مصر حسَّن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانشراح إلى برقة ففعل ذلك وأتى برقة في ربيع الأول[5]»، ويرى البعض أن الحكومة المركزية في العراق كان لها يد في تدبير رفقاء السوء الذين التفوا حول العباس بن أحمد بن طولون ودفعوه إلى القيام بهذا العمل، وقد عمد الخليفة الموفق إلى هذه الطريقة لخلق حالة من الاضطرابات والشغب في حكومة أحمد بن طولون[6]. وعندما علم أحمد بن طولون بهذه التطورات الخطيرة التي حدثت في مصر، عاد سريعًا إلى الفسطاط حرصًا منه على وضع حد لهذا التوتر الذي أحدثه

(١) د. سيدة إسماعيل كاشف: أحمد ابن طولون ٢٠٦.

(٢) د. محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٣٥١.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة ٢٢٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٤.

(٥) الكندي: الولاة والقضاة ٢٢٠.

(٦) د. سيدة إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون ٩٤ - ٩٥.

ابنه العباس بين الدولة الطولونية وجيرانها[1]، وأرسل ابن طولون إلى العباس وفدًا على رأسه القاضي أبو بكرة بكار بن قتيبة[2]، وفشل هذا الوفد في إعادة العباس إلى مصر[3]. ولكن الهزائم التي تلاحقت على العباس من الرستميين والأغالبة أضعفت شوكته، فلم يقوَ على الصمود أمام الجيش الذي أرسله أحمد بن طولون لإعادة العباس حيث تمكن هذا الجيش من هزيمة العباس هزيمة منكرة وقبض عليه إلى مصر في شوال سنة ٢٦٨هـ[4].

وقد أشار المؤرخ ابن سعيد إلى الحالة النفسية السيئة التي كان يشعر بها أحمد بن طولون نتيجة تردي العلاقات بينه وبين الرستميين من جهة وبينه وبين الأغالبة من جهة أخرى، يقول: «وكان الناس يرون غمَّ أحمد بن طولون مما جنى عليه العباس وأنه لم يكتف بما حمله من مصر حتى أوقع أثرًا غليظًا بينه وبين إبراهيم بن الأغلب وإلياس بن منصور النفوسي عامل الرستميين على جبل نفوسة، وأنه إن حاول الانتصار منهما أجحف بنفسه، وإن أمسك عنهما نقص موقعه، وبدت عورة من عوراته»[5].

علاقة الرستميين بالأغالبة ١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٥ ـ ٩٠٨م

قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمي مع دولة الأغالبة، وهي الجار الأقوى على حدودهم الشرقية. وقد دفع هذا بعض المؤرخين إلى القول بأن علاقة الرستميين بالأغالبة لم تتخذ طابعًا عدائيًا[6].

وفي الحقيقة أن انتهاج الرستميين سياسة التعايش السلمي مع الأغالبة لا ترجع

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١/ ١١٨، الكندي: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٢) هو قاض فقيه محدث ولي القضاء بمصر للمتوكل العباسي سنة ٢٤٦هـ ولما صار الأمر إلى أحمد بن طولون بمصر أمره بخلع الموفق من ولاية العهد فامتنع بكار فاعتقله فأقام في السجن يقصده الناس ويروون عنه الحديث ويفتيهم وهو باقٍ على القضاء إلى أن توفي في سجنه بمصر سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، وكان مولده سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م. انظر المزيد في: الأعيان ١/ ٩١، تهذيب ابن عساكر ٣/ ٢٨٢، الولاة والقضاة ٤٧٧ و٥٠٥.

(٣) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق ١١٩.

(٤) الكندي: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٥) ابن سعيد: المصدر السابق ١٢١ ـ ١٢٢.

(٦) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة ١٢١.

إلى ما اشتهر به الرستميون «من التقوى والمسالمة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم وانصرافهم إلى شئون الداخلية»[1]. وإنما يرجع في حقيقة الأمر إلى طبيعة الحدود المشتركة بين الدولتين، إذ تطوق حدود الدولة الرستمية الممتدة من تاهرت غربًا إلى طرابلس شرقًا ـ دولة الأغالبة من الشرق والغرب والجنوب، ولم تكن هذه الحدود واضحة المعالم[2]. فقد كانت دولة الرستميين «مملكة بدوية صحراوية تبسط سلطانها على قبائل البادية أو الصحراء، فمع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز في القرى الجبلية أو الواحات الصحراوية، إلا أنها ظلت في حالة ميوعة لا يستقر لها قرار، فكانت تنتقل من مكان إلى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية»[3]، وقد عقد أول اتفاق لتقرير مبدأ التعايش السلمي بين الرستميين والأغالبة سنة ١٩٧هـ/ ٨١٣م[4]، حين اضطر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى الاصطدام مع الأغالبة دفاعًا عن مواطني دولته من قبيلة هوارة[5]. وجاءت نصوص هذا الاتفاق مراعية لمصالح الطرفين حيث أكد الأغالبة احترامهم الامتداد الجغرافي للدولة الرستمية ونطاقها الرعوي الداخلي في منطقة طرابلس وبالتالي احترم الرستميون حاجة الأغالبة إلى الشريط الساحلي لطرابلس لاتخاذهم البحر المتوسط ميدانًا للجهاد ضد الروم ونشر رايات الإسلام على جزر غرب البحر المتوسط[6]. ولكن سياسة التعايش السلمي هذه التي اتبعتها الدولة الرستمية أملت عليها في كثير من الأحيان الدفاع عن نفسها ضد الأغالبة وأطماعهم، فرأى الرستميون أن قيام أبي العباس محمد بن الأغلب سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م ببناء مدينة العباسية بالقرب من تاهرت فيه مساس بمبدإ التعايش السلمي ويتعارض تمامًا مع المصالح الحيوية للرستميين، إذ استهدف الأغالبة ببنائها القضاء على المركز التجاري المهم الذي احتلته تاهرت[7]، كما شعر

---

(١) د. محمود إسماعيل: الأغالبة ١٢٢.

(٢) د. محمود إسماعيل: المرجع السابق ١٢٤.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٩٥.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ٢٠٨.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٢١.

(٦) د. إبراهيم أحمد العدوي: المرجع السابق ٢١١.

(٧) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٨٦، د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ٥٦٨.

الرستميون أنها بُنيت لتكون قاعدة للهجوم على عاصمتهم تاهرت[1]، لهذا قام أفلح بن عبد الوهاب بإخلائها وحرقها[2].

حقًا أن الأغالبة كان لهم مسلكهم في معاداة أعداء الخلافة العباسية، ولكنهم بالنسبة للرستميين لم يستطيعوا الإفصاح عن هذا العداء سافرًا، لذا عمدوا إلى تشجيع القلاقل والخلافات الداخلية التي كانت تظهر بين الحين والحين في مجتمع الدولة الرستمية، وقد ساعدهم على ذلك وجود جالية كبيرة من المتمردين على الأغالبة، أعطى الرستميون أفرادها ما يشبه حق اللجوء السياسي عندهم، فكانت تاهرت زاخرة بعدد كبير من هؤلاء القيروانيين الذين عاشوا في المجتمع الرستمي، وهم يتمتعون بكامل الحقوق التي تُمنح لمواطني الدولة الرستمية، بل إن بعضهم صاهر أئمة الدولة وأصبح له من النفوذ ما لم يصل إليه غيره كمحمد بن عرفة، وقد اندس بين هؤلاء اللاجئين السياسيين عدد ممن سخَّرهم حكام الأغالبة لإثارة الشغب كلما واتتهم الفرصة لذلك[3]. وقد قام خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم ـ في عهد أبي بكر بن أفلح ـ بإثارة الفتنة والشقاق بين سكان تاهرت متخذًا من مقتل محمد بن عرفة ذريعة إلى ذلك، وقد بذل في سبيل ذلك أموالًا كثيرة[4]، وقد تمكن أبو اليقظان ـ خليفة أبي بكر بن أفلح ـ من القضاء على هذه الفتنة بعد أعوام سبعة من إمامته[5]. وفي إطار مبدأ التعايش السلمي نهض كل الرستميين والأغالبة للوقوف في وجه العباس بن أحمد ابن طولون عندما هدد الحدود الرستمية ـ الأغلبية سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨ [6]. ولم يكن اشتراكهما معًا في مواجهة أطماع العباس نتيجة تحالف أو تعاون مشترك تم بينهما، بل حدث نتيجة لما أحاط الجانبيين من خطر في وقت واحد[7]؛ ولأن هزيمة أي واحد منهما أمام العباس قد تعرِّض الآخر لهزيمة مماثلة تغير من طبيعة

---

(١) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة ١٣٠.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٥١٩.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٧.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٦) الكندي: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٧) د. محمود إسماعيل عبد الرازق الأغالبة ١٣٢.

الوضع السياسي لمنطقة طرابلس. والثابت أن كلا من الرستميين والأغالبة قد نال قسطًا من تهديدات العباس بن أحمد بن طولون واعتداءاته[1]. وإذا كان الرستميون قد ألزموا الأغالبة بمبدإ التعايش السلمي بالقوة وبالاشتراك معهم في الدفاع عن حدود الدولتين ـ عندما خرج العباس بن أحمد بن طولون للاستيلاء على إفريقية ـ تارة أخرى، فإن الأغالبة عندما استشعروا ضعف الرستميين استهانوا بمبدأ التعايش السلمي معهم واعتدوا عليهم بغية القضاء عليهم. وقد واتتهم الفرصة في إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد[2] ففي سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م[5].

اصطدم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بقبيلة نفوسة ـ التي كانت من رعايا الدولة الرستمية ـ عند موضع «قصر مانو» بين قابس وطرابلس[3]. وكانت نفوسة قد خرجت إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب في عشرين ألف مقاتل، واندلعت الحرب بينها وبين إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ودارت الدائرة على نفوسة وقُتل منها عدد ضخم جدًّا من الرجال والعلماء[4]. ويعد هذه المعركة انهارت نفوسة التي كانت تشكل عصب الدولة الرستمية ودرعها الواقية، وسرت في الجبل حالة من الفوضى؛ لأن أهل الرأي في الجبل اجتمعوا وقرروا عزل أفلح بن العباس عامل الرستميين على الجبل، وقد دفعت حالة الفوضى هذه الأغالبة إلى إرسال جيش آخر سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م[5] هجم على نفوسة واستباحها وعاد مثقلًا بالأسرى منهم. وهناك من يرى: «أنه لولا ما جرى في هذه الأثناء من عزل إبراهيم بن أحمد وتوجهه إلى صقلية، لوجَّه ضربته التالية نحو تاهرت قلب المملكة الرستمية»[6].

ورغم أن الأغالبة حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجاريًا وثقافيًا[7]، فإن هناك ما يشير إلى وجود شيء قليل من هذه العلاقات التي كانت تتم بصورة غير

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٣٢٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٢٩.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٨١.

(٤) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٤٠.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٣٠.

(٦) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة سياستهم الخارجية ١٣٥.

(٧) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: المصدر السابق ١٣٥.

رسمية وعلى المستوى الشعبى، فالعلاقات التجارية اليومية كانت تسير بصورة طبيعية بين الجهات الداخلية لطرابلس التابعة للنفوذ الرستمى وطرابلس نفسها الخاضعة للأغالبة، وإلى هذه العلاقات أشار ابن سعيد بقوله «ومنه جبل نفوسة تمتاز طرابلس بأنواع الخيرات»[1]. كما كانت هناك علاقات ثقافية قائمة بين تاهرت والقيروان تمثلت فى العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى القيروان بغية تحصيل العلم على يد من فيها مَنْ العلماء، ومن هؤلاء العلماء الأدباء: بكر بن حماد بن سهل بن أبى إسماعيل الزناتى التاهرتى، وصل إلى البصرة فى العراق سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م[2]، وظل جادًا فى تحصيل العلم حتى عاد إلى القيروان سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م، فأخذ فيها عن عون بن يوسف الخزاعى[3] وسحنون بن سعيد[4] حتى إذا كانت سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م تصدر لإملاء الأدب والعلم بجامعها الكبير، فارتحل إليه كثير من أهل إفريقية والأندلس للأخذ عنه، وكان منهم محدث الأندلس فى عصره قاسم[5] بن أصبغ بن محمد البيانى القرطبى، وقد عاد بكر بن حماد إلى تاهرت سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م، حيث توفى سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بعد سنة من عودته فى قلعة ابن حمة شمال تاهرت[6]. وله شعر ذكره أكثر المؤرخين فى الحديث عن تاهرت ووصفها[7].

---

(١) ابن سعيد: الجغرافيا ١٤٥.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٣) ورد فى طبقات علماء إفريقية للخشنى.

(٤) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى الملقب بسحنون قاضى فقيه، انتهت إليه رياسة العلم فى المغرب، كان زاهدًا لا يهاب سلطانًا فى حق يقوله، أصله شامى من حمص، مولده سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م فى القيروان، ولى القضاء بها سنة ٢٣٤هـ واستمر إلى أن مات سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م أخبار كثيرة جدًا، وكان رفيع القدر، عفيفًا أبى النفس. انظر المزيد فى: معالم الإيمان ٢/ ٤٩، وفيات الأعيان ١/ ٢٩١، قضاة الأندلس ٢٨، الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ١٠٥، رياض النفوس ١/ ٢٤٩ - ٢٩٠.

(٥) هو قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أو واضح، الإمام الحافظ محدث الأندلس أبو محمد الأموى القرطبى. سمع بقى بن مخلد وابن وضاح والحارث بن أبى أسامة وابن أبى الدنيا وان أبى خيثمة وكتب عنه التاريخ وصنف سننًا مخرجًا على أبى داود و«مسند مالك»، و«الصحيح» على هيئة «صحيح مسلم». وكان بصيرًا بالحديث ورجاله، رأسًا فى العربية، فقيهًا، كبر وكثر نسيانه وما اختلط فأحس بذلك، فقطع الرواية صونًا لعلمه، وانتهى إليه علو الإسناد بتلك الديار والحفظ والجلالة. ولد سنة ٢٤٧هـ، ومات سنة ٣٤٠هـ انظر المزيد فى: إرشاد الأديب ٥/ ٧٩، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٦، شذرات الذهب ٢/ ٣٧٠، طبقات المفسرين للداودى ١/ ٣٨٢، العبر ٢/ ٢٦٧، النجوم الزاهرة ٣/ ٣١٥.

(٦) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٧) ذكر البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧ هذه الابيات:

تمثل دولة الأدارسة الجار الغربي لدولة الرستميين، وهذه الدولة تضم إقليم المغرب الأقصى بأكمله، وهذا الإقليم يحده من الشرق وادى ملوية وجبال تازه وهما يمثلان خط الحدود مع الدولة الرستمية، أما حدُّها من جهة الغرب فالبحر المحيط، ومن الشمال بحر الروم، ومن الجنوب جبال[1] درن، ومؤسس هذه الدولة هو إدريس[2] بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ودولة الأدارسة دولة شيعية من النوع المعتدل الذى تقترب آراه مع آراء أهل السنة[3]. ولذا أطلق عليها ابن عذارى اسم الدولة الهاشمية[4] وقربها من أهل السنة جعلها من ناحية أخرى قريبة فى ميولها السياسية من الرستميين أصحاب المذهب الإباضى المتاخمين لهم فى المغرب الأوسط والذين يمثل مذهبهم الإباضى آخر تطورات الفكر الخارجى فى تلك الفترة؛ إذ أصبح هذا المذهب أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة، ومن ثم لم تكن هناك خلافات مذهبية حادة بين الدولتين الجارتين؛ لذا وضع الرستميون سياستهم مع الأدارسة على أساس حسن الجوار المتبادل بينهما. ومما دعَّم علاقات حسن الجوار بين الدولتين «أنه كان يجمع بينهما موقف موحد إزاء

ما أحسن البرد وريعانه	وأحرق الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت	كأنها تنتشر من تحت
فنحن فى بحر بلا لجة	تجرى بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس إذا ما بدت	كفرحة الذّمى بالسبت

(١) ياقوت الحموى معجم البلدان ٢/ ٢٧.

(٢) هو إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب وإليه نسبتها، أول ما عرف عنه أنه كان مع الحسين بن على بن الحسن المثلث فى المدينة أيام ثورته على الهادى العباسى سنة ١٦٩هـ ثم قُتل الحسين فانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ، ونزل بمدينة وليلى على مقربة من مراكش ولعلها اليوم مدينة قصر فرعون، وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد فعرفه إدريس بنفسه فأجاره وأكرمه ثم جمع البربر على القيام بدعوته وخلع طاعة بنى العباس، فتم له الأمر يوم الجمعة ٤ رمضان ١٧٢هـ جمع جيشًا كثيفًا وخرج به غازيًا فبلغ بلاد ئادلة قرب تلمسان وفاس ففتح معاقلها وعاد إلى وليلى، ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها، وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن توفى مسمومًا فى وليلى سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م. انظر المزيد فى: الاستقصا ١/ ٦٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢، البيان المغرب ١/ ٨٢ و٢١٠.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٨٢.

(٤) حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ٢٤٥ رسالة ماجستير - دار العلوم.

الخلافة العباسية وهو العداء المشترك نحوها؛ حيث استقلت كلتاهما بجزء من الدولة العباسية، وأصبح لكل منهما شخصيتها الخاصة وكيانها المستقل بعيدًا عن سلطة الخلافة العباسية وولاتها، كما كان الأدارسة يشعرون أن دولة الرستميين بالمغرب الأوسط تمثل الحارس الأمين لحدودهم الشرقية[١]، فهي بمثابة حاجز يفصل بين دولة الأدارسة في المغرب الأقصى والولاة العباسيين أعدائها في المغرب الأدنى، فأي جيش يرسله العباسيون أو ولاتهم في إفريقية لابد أن يخترق أراضي الدولة الرستمية، وهذا ما لا تسمح به الدولة الرستمية؛ لأنهم كانوا يتمتعون بالسيادة التامة على أراضي دولتهم، ومن ناحية ثانية لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والعباسيين أو ولاتهم بإفريقية[٢]. وقد كان لموقع دولة الرستميين على هذا النحو أثره في الأساليب التي اتبعتها الخلافة العباسية لمقاومة الأدارسة والقضاء عليهم، حيث لجأت الدولة العباسية إلى أسلوب الاغتيال لمؤسس هذه الدولة؛ لأنها رأت أن فكرة إرسال جيش للقضاء على هذه الدولة يُعَدُّ ضربًا من المستحيل[٣]. وحققت الخلافة أملها في التخلص من إدريس فاغتالته سنة ١٧٧ هـ/ ٧٩٣م[٤].

وقد أفسحت الدولة الرستمية صدرها لكثير من العلويين الفارين من العباسيين، وقد عاش هؤلاء في المدن المنتشرة حول تلمسان، وبعضهم آثر البقاء في بقاع الدولة الرستمية، فعاشوا في بعض مدنها في شمال تاهرت على ضفاف نهر شلف كالمدينة الخضراء، وسوق إبراهيم ومدينة ثمطلاس. وقد كان أكثر هؤلاء العلويين من أبناء محمد بن سليمان العلوي، وسليمان هذا أخو إدريس بن عبدالله مؤسس الدولة الإدريسية. وقد استقل هؤلاء العلويون بهذه المدن بعد انقراض الدولة الرستمية وذلك في القرن الرابع الهجري[٥].

وظلت العلاقات الرستمية ـ الإدريسية تسير في جملتها في إطار علاقة حسن الجوار التي رسمها الرستميون، إلا أن شيئًا من القطيعة أصاب هذه العلاقات في عهد

---

(١) GAuter, op: Cit. p. 315.

(٢) حسن علي حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ٢٤٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٨٣، ابن الأبار: الحلة السيراء ١/ ٩٨.

(٤) د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي ٥١.

(٥) ابن خلدون العبر ٤/ ٣٤، د. محمد علي دبوز: المغرب الكبير ٣/ ٢٣٦.

الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم. وكان ذلك نتيجة لموقف مغراوة وبنى يفرن أمراء تلمسان الخاضعين لنفوذ الأدارسة[1]. فقد سعى هؤلاء فى تأليب واصلية المغرب الأوسط وهم رعايا الدولة الرستيمية وحرضوهم على القيام بثورة ضد الإمام عبد الوهاب بهدف الاستقلال بالأماكن التى يعيشون فيها من أراضى الدولة الرستمية والعمل على ضمِّها للأدارسة واستعانوا فى ذلك بواصلية المغرب الأقصى وزعيمهم إسحاق بن محمد الأوربى، وقد تمت مكاتبات بينه وبين واصلية المغرب الأوسط فى هذا الشأن[2]. ويبدو أن الذى دفع مغراوة وبنى يفرن إلى ذلك أن بنى يفرن هالها مقتل يزيد بن فندين زعيم النُكَّار فى دولة الرستميين - والمعروف أن يزيد بل فندين من بنى يفرن وهو فرع من زناتة التى ينتمى إليها معظم وأصلية المغرب الأوسط[3] ولكن هذه المحاولات لم يُكتب لها النجاح. وتمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على ثورة الواصلية بعد حوار فكرى دار بين مفكرى الإباضية وعلماء الواصلية، تلته معركة عسكرية انتهت بهزيمة الواصلية وقمع ثورتهم[4].

علاقة الرستميين بدولة سجلماسة ١٤٠ - ٢٩٦هـ/ ٧٥٧ - ٩٠٨م

قامت إلى الجنوب الغربى لحدود الدولة الرستمية دولة بنى مدرار فى سجلماسة، تلك الدولة التى ترتبط مع الرستميين بأوثق الروابط، وقد قامت دولة سجلماسة سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م[5]؛ على أساس المذهب الصفرى. وعلى هذا فأصحابها ينتمون إلى المذهب الخارجى مثلهم فى ذلك مثل الرستميين، ولذلك التقت أهداف الدولتين معًا وتوطدت بينهما أواصر المودة والصداقة[6]. وسعت كلتا الدولتين إلى كسب احترام الأخرى لها، إذ نظر الرستميون إلى سجلماسة على أنها منفذ مهم لهم إلى بلاد السودان تنتقل من خلالها تجارة الرستميين وقوافلهم التجارية؛ ومن ثم فهى شريان

(١) حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ٢٤٦.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١١٧.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٤) البارونى: المصدر السابق ١٢٣ - ١٢٥

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٥٦.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٢.

الحياة بالنسبة لبنى رستم، كما كان بنو مدرار يشعرون بأهمية الرستميين لهم؛ إذ إن توثيق الصلات بهم وتعمق الروابط معهم يعطى المدراريين الأمان الذى يشعرون بالحاجة إليه كدولة صغيرة، خاصة أن لها جارًا قويًا وهم الأدارسة يحاربون أصحاب النحل المتطرفة من أمثال الخوارج، فقد قام الأدارسة بالقضاء على الخوارج داخل دولتهم فى المغرب الأقصى[1]. لذا حرص المدراريون على إقامة ما يشبه الحلف الثنائى بينهم وبين الرستميين، ومما دعم هذا الحلف وقوى من شأنه تقارب زعماء كل من الدولتين والتقاؤهما فى الأهداف[2]. وظهرت نتائج هذا التقارب عندما تزوج مدرار بن المنتصر بن اليسع الذى تولى حكم دولة سجلماسة سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣[3]، من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم أول أئمة الدولة الرستمية، ويمثل هذا الزواج قمة التقارب فى العلاقات بين الدولتين. وقد تحدث البارونى عن الأهداف الحقيقية لهذا الزواج فقال: «وعلى عهده اليسع بن القاسم الذى تولى الحكم سنة ١٧٤هـ استفحل أمرهم واشتد ملكهم، وكان يرى فى نفسه العظمة لكثرة الجنود والأتباع، وله ابن يُعرف بمدرار فلم ير له كفؤًا للمصاهرة غير الإمام عبد الرحمن، وكانت له ابنة تعرف بأروى فخطبها اليسع وبعد أن أظهر الإمام العزة والامتناع مع إلحاح الخطيب أجابه إلى طلبه وزوّجها من مدرار ابنه ولم يصغ للمعترضيين والمنكرين عليه مؤملًا أن يأتى يوم ما على أولادها إن قدر الله بحملها، وهم على مذهبه فيضمهم هو أو خلفه إليه أو تتوثق علائق الود بين المملكتين فلا يطرقه منهم طارق سوء ولا يأتيه من قِبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له قلقًا أو خللًا فى داخليته؛ إذ كانت تحت حكمه من الصفرية ما يعد بعشرات الألوف من المقاتلين الموصوفين بالشجاعة والبسالة كما أن بسجلماسة من الإباضية أمثال ذلك من الفرسان الاشداء[4]». والذى يُفهم من هذا النص أن اليسع سعى إلى هذا الزواج رغبة فى كسب حليف قوى يحميه وأن عبد الرحمن بن رستم سعى إلى هذا الزواج رغبة فى كسب تأييد هذا العدد الضخم من الصفرية من مواطنى دولته. وقد أنجبت أروى لمدرار ولدًا أسماه ميمونًا وهو الذى

---

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٤.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ٤/ ١٤.

(٣) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٥٠.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٤.

لعب دورًا مهمًا في حياة دولة بني مدرار في سجلماسة[1]. كانت العلاقات السياسية إذن قوية متينة بين الدولتين الرستمية والمدرارية بسجلماسة، وقد فتح ذلك باب العلاقات الثقافية والتجارية على مصراعيه، فبدأ المذهب الإباضي بغزو أراضي دولة سجلماسة، حتى أنه بدأت تظهر كثير من مؤثرات هذا المذهب بين مواطني دولة سجلماسة، وفي هذا الصدد أشار بعض المؤرخين إلى أن المذهب الإباضي غزا فكر أئمة دولة سجلماسة وعلمائها[2]. ومما وثق هذه العلاقات ودعمها أن كثيرًا من رعايا الدولة الرستمية كانت تغشى دولة سجلماسة وتعيش فيها كما قام بذلك كثير من أهل سجلماسة فأقاموا في أنحاء الدولة الرستمية[3]. أما العلاقات التجارية فكانت نشيطة إلى درجة كبيرة بين الدولتين؛ لأن طريق التجارة الرستمية إلى بلاد غانا[4] والسنغال يمر بسجلماسة؛ يقول البكري «ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانا وبينها وبين مدينة غانا مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة». وكانت القوافل التجارية الرستمية تغدو ذاهبة آيبة تعبر سجلماسة أو تستقر فيها، تحمل من سجلماسة أنواع التجارات والمنتجات إلى الدولة الرستمية، ومن هذه المنتجات الزراعية التي تكثر في سجلماسة مثل الكمون والكروياء والحناء[5]. كما تنقل هذه القوافل الأزر المصنوعة في سجلماسة والتي تفوق في جودتها القصب التي تصنع في مصر[6]. ويحمل أيضًا من سجلماسة ثمار شجر التاكوت الذي يستخدم في دبغ الجلد الغدامسي في غدامس[7]، على أن أهم السلع التي كانت تسعى إليها هذه القوافل هي الذهب الذي كانت تحمله من غانا وتجني من ورائه ثراء كبيرًا، كان له أثره في ازدهار دولة الرستميين.

وقد أشار محمد علي دبوز إلى هذه العلاقات القوية بين الرستميين وبني مدرار بسجلماسة فقال: «وكانت المعاملات التجارية، والعلاقات الثقافية والصلات

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٥

(٢) د. محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٤٤٥.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٤٩، ابن سعيد: الجغرافيا ١١٣.

(٤) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ٢٨.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٧٩.

(٦) الباروني: المصدر السابق ٢/ ٧٩.

(٧) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٥٢.

السياسية على أتمّها وأحسنها بين الدولتين دولة بنى واسول فى سجلماسة، والدولة الرستمية فى تاهرت»[1].

علاقة الرستميين بالسودان

كانت العلاقات الرستمية ببلاد السودان فى جملتها علاقات تجارية[2] حيث كانت الدولة الرستيمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان، وقد امتلك الرستميون عددًا من القواعد الصحراوية التى تقع على طرق التجارة مع بلاد السودان، وأولى هذه القواعد الصحراوية فى الدولة الرستمية كانت ورجلان التى ترتبط ببلاد السودان ارتباطًا وثيقًا والسفر منها إلى هذه البلاد كان كثيرًا يقول عنها ابن سعيد: «والسفر من ورجلان في الصحراء إلى بلاد السودان كثير»[3]. أما القاعدة الثانية فهى غدامس حيث يهبط منها إلى الجنوب طريق التجارة إلى بلاد الكانم من أرض السودان، وعنها تحدث ابن سعيد قائلا: «وفي غدامس حصون على الجادة التى تمر ببلاد كانم»[4]. وكانت أهم المنتجات التى تحملها القوافل الرستمية إلى بلاد السودان، الأكسية القطنية والكتاينة وثياب الصوف والعمائم والمآزر وأصناف من الزجاج، كخرز الزجاج الأزرق والأصداف والأحجار وأنواع الأفاويه والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنوبر، كما تحمل هذه القوافل النحاس الأحمر والملون ومنتجاته من الأساور والخواتم والحلق وأيضًا آلات الحديد المصنوع والفخار والخزف ذى البريق المعدنى والملح[5]، ويعتبر الملح أهم هذه السلع؛ إذ يتعامل به أهل السودان كقطع العملة، يقول ابن بطوطة: «وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعًا ويتبايعون به»[6]. وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام والعاج وريش النعام، وجلود الحيوانات. وقد

---

(١) د. محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٤٤٥.

(٢) د. صلاح الدين المنجد: مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ٢١، بيروت ١٩٦٣م

(٣) ابن سعيد: الجغرافيا ١٢٦.

(٤) ابن سعيد: المصدر السابق ١٢٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٣.

(٦) ابن بطوطة: رحلته ١٧٤.

تخصص أهل ورجلان فى قيادة هذه القوافل التجارية، فكان منهم الأدلاء ذوو الخبرة بالطرق الصحراوية فى بلاد السودان[1].

وأشهر ممالك السودان التى كانت لها علاقة وثيقة بالدولة الرستمية مملكة كوكو[2]، التى تقع فى شرق نيل غانات الذى ينبع من بحيرة كورى «تشاد» كما يقول ابن سعيد[3]. وقد ظهرت معالم هذه العلاقات فى عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى أرسل سفارة إلى ملك كوكو الذى كانت تبعد مملكته عن تاهرت بمسافة ثلاثة أشهر سيرًا تقريبًا[4]، وقام بهذه السفارة محمد بن عرفة. وقد أعجب ملك كوكو بعظمة هذا السفير الرستمى الذى جاءه - يحمل هدايا أفلح بن عبد الوهاب - يقول ابن الصغير، «فعجب ملك السودان ما أراه من هيبته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل فهز يديه محمد بن عرفة وقال له ملك السودان كلمة بالسودانية ليست تعبر بالعربية لأن لا مخرج للإمساك إنما هو فيما بين القاف والكاف والجيم، إلا أن معناها أنت حسن الوجه حسن الهيبة والأفعال[5]. وقد ظهرت آثار الاتصال بين التجار الرستميين وأهالى هذه البلاد واضحة فى سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم «وتجار أهل كوكو يلبسون القداوير الجبب والأكيسة وعلى رءوسهم الكرازى وحليهم الذهب وخواصهم وجلتهم يلبسون الأزر وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقايضة»[6]، وكما حمل التجار الرستميون هذه الألوان الحضارية حملوا معهم الإسلام إلى هذه الجهات، وكثيرًا ما كان يرافق القوافل التجارية عدد من فقهاء المسلمين الذين خالطوا أهل البلاد وتركو فيهم آثارًا بعيدة المدى. وبطبيعة الحال كان الأثر الذى تركه التجار المسلمون فى نفوس الأهالى أكثر بكثير من الذهب الذى كانوا يحصلون عليه. وتعتبر جهود هؤلاء الفقهاء الأسس التى قامت عليها دولة مالى الإسلامية التى كان غالبية سكانها مسلمين لهم مساجدهم

---

(1) د. محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٢٤٧.

(2) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ١٨٤.

(3) ابن سعيد: الجغرافيا ٩٣.

(4) البارونى: المصدر السابق ٢/ ١٨٤.

(5) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣١.

(6) د. صلاح الدين المنجد: مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ٤٣ - ٤٥.

وفقاؤهم[1]. وقد ظهرت فى هذه المناطق بعض المؤشرات الإباضية التى تركها تجار الإباضية تمثلت فى بعض من شاهدهم ابن بطوطة من الإباضية الخوارج فى بلاد السودان فى رحلته المشهورة[2].

وصاحب انتشار الإسلام انتشار اللغة العربية، فكان هناك الكثيرون ممن يجيدون الحديث باللغة العربية إلى جانب لغاتهم الخاصة[3].

علاقة الرستميين بالأمويين فى الأندلس ١٣٨ ـ ٢٩٦هـ/ ٧٥٥ ـ ٩٠٨م

قامت العلاقات بين الرستميين والدولة الأموية فى الأندلس على أساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة[4]. وقد بدأت العلاقات بين الأمويين ممثلة فى شخص عبد الرحمن بن معاوية[5] الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس وبين الرستميين

---

(١) ابن بطوطة: رحلته ٦٨.

(٢) د. صلاح الدين المنجد: المرجع السابق ٤٥.

(٣) د. صلاح الدين المنجد: المرجع السابق ٦٢.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء ١/ ٣٥، المقرى: نفح الطيب ٤/ ٢٨.

(٥) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بصقر قريش ويعرف بالداخل الأموى مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس، وأحد عظماء العالم. وُلد فى دمشق سنة ١١٣هـ/ ٧٣١م، ونشأ يتيمًا مات أبوه وهو صغير، فتربى فى بيت الخلافة، ولما انقرض ملك الأمويين فى الشام، وتعقب العباسيون رجالهم بالقتل والأسر، أفلت عبد الرحمن وأقام فى قرية على الفرات، فتتبعته الخيل، فأوى إلى بعض الأدغال حتى أمن، فقصد المغرب فبلغ إفريقية فلجّ عاملها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بطلبه فانصرف إلى مكناسة، وقد لحق به مولاه بدر بنفقة وجواهر كان قد طلبها من أخت له تدعى «أم الإصبع» ثم تحول إلى منازل نفزاوة وهم جيل من البربر، أمه منهم فأقام مدة يكاتب من فى الأندلس من الأمويين وبعث إليهم بدرًا مولاه، فأجابوه وسيروا له مركبًا فيه جماعة من كبرائهم فأبلغوه طاعتهم له، وعادوا به إلى الأندلس فأرسى بهم مركبهم سنة ١٣٨هـ فى المنكب وانتقلوا إلى إشبيلية ومنها إلى قرطبة فقاتلهم والى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فظفر عبد الرحمن الأموى، ودخل قرطبة واستقر وبنى فيها القصر وعدة مساجد وجعل الخطبة للمنصور العباسى، فاطمأن إليه أهل الأندلس، ولما انتظم له الأمر ووثق بقوته قطع خطبة العباسيين وأعلن إمارته استقلالاً والمنصور العباسى أول من لقَّبه بصقر قريش، ولُقب بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين. وكان حازمًا سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة ولا يكل الأمور إلى غيره ولا ينفرد برأيه، شجاعًا مقدامًا شديد الحذر، سخيًا، لسنًا شاعرًا، عالمًا يقاس بالمنصور فى حزمه وشدته وضبطه الملك، وبنى الرصافة بقرطبة تشبهًا بجده هشام بانى رصافة الشام، وتوفى بقرطبة ودُفن فى قصرها. انظر المزيد فى:

في مرحلة مبكرة، فحين وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية فارًّا من العباسيين لجأ إلى المغرب الأوسط، حيث أقام بين بنى رستم الذين حافظوا عليه وأجاروه من الأخطار التى تعرض لها يقول المقرى: «وآل أمره فى سفره عبد الرحمن ابن معاوية إلى أن استجار ببنى رستم ملوك تاهرت من المغرب الأوسط»[1]. كان من الطبيعى إذن أن يتم التآلف بين أمراء بنى أمية فى قرطبة وبين الأئمة الرستميين فى تاهرت، وتقوم العلاقات بين الدولتين على أساس من الصداقة والتحالف والمودة، إذ كان الأمويون فى الأندلس محط عداء العباسيين ومكائدهم، كما كان العباسيون أيضًا أعداء للإباضية فى تاهرت. ومما دفع أمراء بنى أمية أيضًا إلى توطيد علاقتهم بالرستميين أنه لم يعد أمامهم من منفذ فى بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط؛ لأن المغرب الأدنى قامت فيه دولة الأغالبة الموالية للعباسيين، والمغرب الأقصى قامت فيه دولة الأدارسة الشيعية التى كانت علاقاتها بالدولة الأموية فى الأندلس تتسم بالعداء والحذر والتربص[2]، وفى إطار التعاون السياسى بين الدولتين ارتبطت كل منهما بالأخرى ارتباطًا وثيقًا، وكان زعماء كل من الدولتين يتابع نشاط الآخر بإعجاب بالغ، واستقبل الرستميون كبار رجال الأندلس الذين وفدوا إلى تاهرت واستوطنوها وأصبح منهم من عاون الأئمة فى شئون الإدارة والحكم، وقد اشتهر من بينهم اثنان هما عمران بن مروان الأندلسى ومسعود الأندلسى اللذان كانا ضمن الجماعة التى رشحها عبد الرحمن بن رستم لاختيار واحد منها لتولى الحكم فى الدولة الرستمية بعد وفاته[3]. وظلت الدولتان تسعى كل منهما إلى كسب صداقة الأخرى، ففى سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م بعث عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أبناءه الثلاثة فى سفارة رسمية إلى قرطبة عاصمة الإمارة الأموية، وقد كان يوم وصول هذه السفارة الرستمية إلى قرطبة يومًا عظيمًا مشهودًا[4] حيث استقبلهم عبد الرحمن الثانى استقبالًا ملكيًا رائعًا أنفق عليه مليونا من الدنانير حتى أصبح حديث الناس ومصدر إعجابهم[5].

البيان المغرب ٢/ ٤٩، الكامل ٥/ ١٨٢، ثم ٦/ ٣٧، نفح الطيب ١/ ١٥٥ ثم ٢/ ٧٠١، الاستقصا ١/ ٥٣ ـ ٥٤، أخبار مجموعة ٤٦، الحلة السيراء ٣٢، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٠.

(١) د. محمود على مكى الخوارج فى الأندلس ١٧١ . مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية العدد الأول ١٩٥٦م.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٩.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٠.

(٤) د. محمود على مكى: الخوارج فى الأندلس ١٧٢.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ٢٢٢.

وفى عهد أفلح بن عبد الوهاب نمت العلاقة الرستمية الأندلسية نموًا مضطردًا وكانت كلتا الدولتين تبلغ الأخرى بأخبار انتصاراتها أولا بأول وتتبادل الهدايا فيما بينها بهذه المناسبات، فحين ابتنى الأغالبة مدينة العباسية سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م قرب تاهرت لتهدد عاصمة الرستميين وتؤثر على مركزها الاقتصادى والسياسى، قام أفلح بن عبد الوهاب بهدمها وإحراقها، وبادر بإخبار حليفه عبد الرحمن الأوسط بما فعل فأرسل إليه عبد الرحمن الثانى الأوسط هدية كبيرة قدّرها المؤرخون بمائة ألف دينار[1]، وأصبح تبليغ أنباء الانتصارات بين الدولتين تقليدًا سياسيًا متبادلًا بينهما، فحينما انتصر عبد الرحمن الأوسط على المجوس «النورمانديين» فى سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م بادر بإبلاغ أنباء ذلك النصر إلى حليفة الرستمى أفلح بن عبد الوهاب[2]، وقد استعانت الدولة الأموية فى الأندلس بعدد من خيرة القادة الرستميين فى أعمالهم الحربية فاستعان الأمير عبد الرحمن الثانى الأوسط بالقائد الرستمى محمد بن رستم فى القضاء على الثورة التى قام بها هاشم الضراب بطليطلة سنة ٢١٤هـ/ ٨٢٩م[3]، كما استعان الأمير عبد الرحمن بمحمد بن رستم أيضًا فى صد الغارات التى دأب المجوس «النورمانديون» على شنّها على شواطئ الأندلس، وتمكن هذا القائد الرستمى من القضاء على هذا الخطر المجوسى الذى كان يتهدد المسلمين فى بلاد الأندلس[4]. كما شهد بلاط الأمويين فى الأندلس عددًا من رجالات السياسة من الرستميين الذين احتلوا منصب الوزارة والحجابة فى دولتهم، فكان منهم الوزراء والحجاب الذين أثبتوا كفاءة لا مثيل لها. يقول ابن القوطية: «وكان له عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٦هـ/ ٢٣٣هـ وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم، بعد عبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب المتقدم ذكره، فمنهم عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبدالله بن أمية بن زيد وعبد الرحمن بن رستم[5] «وقد تولى عبد الرحمن بن رستم هذا أيضًا منصب الحجاب فى عهد عبد الرحمن بن

(١) د. إبراهيم أحمد العدوى: تاريخ الجزائر ٢٢٢، البلاذرى: فتوح البلدان ١/ ٢٧٧.

(٢) د. محمود على مكى: المجلة السابقة ١٧٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٨٧ ـ ٨٨، ابن خلدون: العبر ٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٤.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ٨٣، بيروت ١٩٥٧م.

(٥) ابن القوطية: المصدر السابق ٨٣.

الحكم بعد وفاة عبد الرحمن بن غانم الحاجب، وفي ذلك يقول أيضًا ابن القوطية «ثم مات عبد الرحمن بن غانم فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم»[1]. ويوجد عند ابن الآبار نص يثبت أن عبد الرحمن بن رستم الوزير الحاجب في عهد عبد الرحمن بن الحكم الثاني هو ابن القائد الرستمي محمد بن رستم وأنه هو ووالده قد دخلا الأندلس أيام كان عبد الرحمن بن الحكم أميرًا من قبل والده لحكم على شذونة، يقول ابن الآبار «محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم.. دخل أبوه إلى الأندلس وكان محمد هذا بناحية الجزيرة واصطنعه عبد الرحمن بن الحكم في إمارته على شذونة من قبل أبيه الحكم، فكان يأنس به في بعض الأحيان، ثم أفضت إليه الخلافة فاستقدمه وصرفه في الحجابة والوزارة، وهو أحد القواد الذين كان فتح المجوس على أيديهم بإشبيلية إلى فتوحات تعلم له، وكان أريبًا حكيمًا»[2].

وإذا كانت الدولة الرستمية قد منحت بعض مواطني الدول التي تختلف معها سياسيًا ومذهبيًا حق اللجوء السياسي، وأعطتهم كل ألوان الحماية فإنها لم تكفل مثل هذا الحق للخارجين على الدولة الأموية ولم تسمح لهم بالقيام بأي نشاط سياسي ضد حلفائهم الأمويين في الأندلس، وفي الوقت نفسه منحت الدولة الرستمية حق الاستيطان والإقامة لكل أندلسي وفد إليها للتجارة أو العمل دون الإضرار بالعلاقات الطيبة المتوطدة بين الدولتين. ويروي ابن القوطية قصة طريفة تبين لنا مدى حرص الرستميين على توثيق هذه العلاقات وهذه القصة تروي أن عمر بن حفصون الذي قام بثورة أمير قرطبة فرّ إلى تاهرت واختفى بها استعدادًا للعمل ضد الأمويين، واشتغل مساعدًا لأحد الخياطين الذين وفدوا على تاهرت من مدينة رية بالأندلس ضمن الوافدين من أهل الأندلس رغبة في متابعة نشاطهم الاقتصادي وازدياد الثراء. وبينما عمر بن حفصون يجلس عند الخياط جاءه شيخ ومعه ثوب، فقام إليه الخياط، ووضع له كرسيًا فقعد عليه فسمع الشيخ كلام ابن حفصون، فأنكره عند الخياط، فقال له: من هذا؟ فقال: غلام من جيراني برية أتي ليخيط عندي، فالتفت الشيخ إليه فقال له: متى عهدك برية؟ قال له: منذ أربعين يومًا. قال: تعرف جبل ببشتر؟ فقال به: أنا ساكن عند أصله. قال له الشيخ فيه حركة؟ قال: لا، قال: قد أذهله ذلك ثم قال: هل تعرف فيما

---

(١) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٦.

(٢) ابن الآبار: الحلة السيراء ١/ ٣٧٢.

يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون، فذعر من قوله وأخذ الشيخ يطيل النظر إليه، وكان ابن حفصون قد أفضى الثنية فقال له: يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة، أرجع إلى بلدك فأنت صاحب بنى أمية وسيلقون منك غبا وستملك ملكًا عظيمًا، فقام من فوره وذلك خوفًا أن ينبش الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبى اليقظان ٢٤١هـ/ ٨٥٠م، وكانوا مالكى تاهرت وولاؤهم لبنى أمية فأخذ خبزتين من الخبار، وألقاهما فى كمه وخرج فأتى الأندلس[١].

ولم تكن العلاقات السياسية هى كل ما يربط الرستميين بالإمارة الأموية فى بلاد الأندلس، بل قامت العلاقات الاقتصادية التجارية على نحو فريد بين الدولتين، وتتمثل هذه العلاقات الاقتصادية التجارية فى تلك التسهيلات التى منحها الرستميون للتجار الأندلسيين، فقد فُتحت أمام هؤلاء التجار الطريق إلى سائر بلدان العالم الإسلامى، وأنقذتهم بذلك من الحصار الاقتصادى الذى فرضه عليهم الأغالبة والأدارسة، وقد قويت هذه العلاقات التجارية فى ظل حاجة الأمويين فى الأندلس إلى الأسواق الخارجية لتصريف منتجاتهم التى زادت بسبب التقدم الذى أحرزه الأمويون فى الأندلس فى ميادين الزراعة والصناعة، كما أنهم كانوا فى حاجة إلى الحصول على بعض المواد الخام من البلاد الإسلامية، وقد يسّر لهم الرستميون جميع السبل، ففتحوا لهم موانيهم فى تنس ومستغانم ووهران لاستقبال البضائع الأندلسية ولاسيما المصنوعات الحريرية، وقام الرستميون بدور الوسيط فى نقل هذه المنتجات وتصريفها فى بلاد السودان ومصر والمشرق العربى، حتى أصبحت قوة الاقتصاد الرستمى سندًا للإمارة الأموية فى عمليات التصدير والاستيراد وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من المصادر العالمية، وترددت أصداء هذا الازدهار الاقتصادى بين الدولتين فى نشاط الأساطيل التجارية الأندلسية وازدهار المدن والموانئ الرستمية الأموية وبخاصة تاهرت وقرطبة[٢]. وصاحب هذه العلاقات السياسية والاقتصادية علاقات ثقافية حضارية ضخمة بين الرستميين والأمويين فى الأندلس، إذ أصبحت الدولة الرستمية الجسر الذى ضمن استمرار التدفق الحضارى من المشرق إلى بلاد الأندلس، لذا حرص الأمراء الأمويون على استغلال هذا الجسر رغبة منهم فى ربط إمارتهم البعيدة

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ٢٦٠.

بتيار الحضارة الإسلامية في المشرق. وعن طريق الرستميين نجح أمراء بنى أمية في الأندلس فى الحصول على ما يحتاجون إليه من كنوز المشرق العربى ومؤلفاته ومخطوطاته وكذلك علمائه، وكانت لدى الرستميين مكتبتهم الضخمة التى عُرفت بالمعصومة والتي حوت عددًا ضخمًا من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون بالإضافة إلى جهود علماء الدولة المحليين[1] وبذا يكون الرستميون قد قاموا بدور الوسيط الثقافي كما قاموا من قبل بدور الوسيط التجارى، فأخذوا من المشرق وأعطوا الأندلس فكانت بلادهم ماء الحياة الذى جدد انطلاق الإسلام إلى غرب أوربا عن طريق الأندلس[2]. ونتيجة لهذا الدور الثقافي الذى اضطلع به الرستميون ظهرت مؤثرات إباضية في بلاد الأندلس، إذ إنه من الطبيعى أن تترك هذه العلاقات القوية آثارها فى الشعب الأندلسى، وإن لم يكن لها من القوة ما يُظهرها بشكل واضح نتيجة سيطرة العقيدة السنية المطلقة على الأندلسيين، وقد ظهرت هذه الآثار فى مناطق الاحتكاك التجارى بين الرستميين والأمويين فى قرية بلقين فى منطقة المرية «التى كان أهلها على مذهب الخوارج لا يستترون»[3]، وكان أحد المعلمين بقرطبة وهو جابر بن غيث الليلى يعلّم أبناء الوزير هاشم بن عبد العزيز، وكان هذا المعلم كثير التشدد حتى أنه كان فى صرامته يقارب الإباضية[4].

وإلى الأندلس رحل كثير من علماء الدولة الرستمية يسمعون على علمائها ويروون عنهم. ومن هؤلاء: قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي[5] وبكر بن حماد التاهرتى وأحمد ابن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي الذى حظى بمكانة عظيمة عند منذر بن سعيد[6]

---

(١) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوى: المرجع السابق ٢٢٤.

(٣) د. محمود على مكى: الخوارج فى الأندلس ١٧٥ مجلة الأبحاث المعربية والأندلسية.

(٤) د. محمود على مكى: المجلة السابقة ١٧٥.

(٥) الحميدى: جذوة المقتبس ٣٣٢، القاهرة ـ ١٩٦٦م.

(٦) هو منذر بن سعيد بن عبدالله بن عبد الرحمن النفرى القرطبى أبو الحكم البلوطى قاضى قضاة الأندلس في عصره، كان فقيها خطيبًا شاعرًا فصيحًا نسبته إلى «فحص البلوط» بقرب قرطبة ويقال له: «الكزنى» نسبة إلى فخذ من البربر يسمى كزنة. رحل حاجًا سنة ٣٠٨هـ، فأقام فى رحلته أربعين شهرًا أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر. قال ابن الفرضى: كان بصيرًا بالجدل، منحرفًا إلى مذاهب أصحاب الكلام، لهجًا بالاحتجاج، ولى قضاء ماردة وما والاها ثم قضاء الثغور الشرقية فقضاء الجماعة بقرطبة

القاضي فسمع منه تواليفه كلها كما سمع من أبي وكيم وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة[1] ومحمد بن معاوية القرشي[2] وأبي بكر الدينوري[3].

سنة ٣٣٩هـ، واستمر إلى أن تُوفي فيها سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، وكان مولده سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م لم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور. له كتب في القرآن والسنة والرد على أهل الأهواء، منها «الإنباء عن استنباط الأحكام من كتاب الله»، ويسمى أحكام القرآن، و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة» و«الناسخ والمنسوخ». انظر المزيد في: تاريخ علماء الأندلس ٢/ ١٧، مطمح الأنفس ٣٧، نفح الطيب ١/ ٣٣٥، قضاة الأندلس ٦٦، فهرسة ابن خير ٥٤، بغية الملتمس ٤٥٠، بغية الوعاة ٣٩٨، أزهار الرياض ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧، جذوة المقتبس ٣٢٦، الكامل ٨/ ٢٢٣، إنباه الرواة ٣/ ٣٢٥، ارشاد الأريب ٧/ ١٧٨ ـ ١٨٥.

(١) هو وهب بن مسرة بن مفرج بن حكيم التميمي الحجازي أبو الحزم، سمع بقرطبة من ابن وضاح وعبيد الله وأحمد بن إبراهيم الفرضي وابن معاذ وأبي صالح وأسلم وابن الوليد وابن أبي تمام ومحمد بن أبي تمام ومحمد بن عمر بن لبابة وطاهر بن عبد العزيز وأحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد بن قاسم وقاسم بن أصبغ والخشني وببلده من ابن وهب وابن أبي نخيلة ومحمد بن عزرة وغيرهم كان حافظًا للفقه بصيرًا وبالحديث واللغة، بصرًا حسنًا ضابطًا لكتبه مع ورع وفضل، أفتى بموضعه وله أوضاع حسنة واستقدم بكتبه إلى قرطبة وأخرجت إليه أصول ابن وضاح اللاتي سمع فيها فسمعت عليه، وسُمع منه علم كثير. وهو إمام ثقة مأمون وإليه كانت الرحلة ثم انصرف إلى بلده. حدث عنه أبو محمد القلعي وأثنى عليه وحدث عنه غير واحد. وكان يتكلم في الحديث وعلله وكان خيرًا فاضلًا وله كتاب في السنة وإثبات القدر والرؤية والقرآن رحمه الله تعالى: انظر المزيد في: بغية الملتمس ٤٦٥، جذوة المقتبس ٣٣٨.

(٢) روى عن عبيد الله بن يحيى بتديحي وخلق وفي الرحلة عن النسائي والفرياني وأبي خليفة الجمحي ودخل الهند، ورجع وكان ثقة.انظر: الديباج المذهب ٢/ ٣٠٤.

(٣) هو أحمد بن مروان الدينوري المالكي أبو بكر قاضٍ من رجال الحديث، كان على قضاء القلزم ثم ولي قضاء أسوان بمصر عدة سنين وتوفي بالقاهرة سنة ٣٣٣هـ/ ٩١٥م من كتبه «المجالسة» و«الرد على الشافعي»، و«مناقب مالك» وفي العلماء من يتهمه بوضع الحديث. انظر المزيد في: لسان الميزان ١/ ٣٩، حسن المحاضرة ١/ ٢٠٨.

الفهرس

Inv:1968

Date:4/4/2016

http://albordj.blogspot.com

http://albordj.blogspot.com
Bibliotheca Alexandrina
1502193

